رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تهذيب شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

العلامة صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي

تهذيب وتحقيق

أبي عبد الله مصطفى بن العدوي

الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تهذيب شرح
العقيدة الطحاوية

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

رقم الايداع: ٢٠١٣/١٣٣٥٣

الناشر
مكتبة فياض

المنصورة - عزبة عقل - شارع عبد الهادي

ت ٠٥٠٢٣٧٥٩٤٣

فاكس ٠٥٠٢٢٦٧٣٩٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تهذيب
شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

العلامة صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي

تهذيب وتحقيق

أبي عبد الله مصطفى بن العدوي

مكتبة فياض

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء: الآية ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد:

فهذا تهذيب واختصار لكتاب «شرح العقيدة الطحاوية»، ذلكم الكتاب الذي صنفه الإمام ابن أبي العز الحنفي شارحًا فيه كتاب «العقيدة الطحاوية» للإمام أبي جعفر الطحاوي رحمه الله، ولما كان كتاب «العقيدة الطحاوية» كتابًا قد حظي بالقبول عند كثير من أهل العلم، وذلك لكون مصنفه أورد فيه ما يُحتاج إليه من أمور الاعتقاد وسار في ذلك على نهج أهل السنة والجماعة في جُلِّ أبوابه مبينًا معتقدهم في التوحيد ومعتقدهم في الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر، وتضمن أيضًا ردودًا على أهل البدع وطوائفهم، فلذلك قمت بتخريج الأحاديث

والآثار الواردة في هذا الكتاب والحكم عليها بما تستحقه صحة وضعفًا، ونشر ذلك في طبعة أصدرتها دار ابن رجب للنشر والتوزيع، ولم أكن هنالك تعقبت الأمور التي زلَّت فيها قدم الإمام الطحاوي رحمه الله ولا علَّقت بشيء.

فها هنا عمدت إلى اختصار وتهذيب لكتاب «شرح العقيدة الطحاوية» فحذفت بعض المسائل والردود والاسترسالات التي لا يحتاج إليها طلبة العلم المبتدئون، والتي أُخذت من أقوال المتكلمين ومن الردود عليهم، فثمَّ استرسالات وردودٌ لا فائدة منها ولا نفع من وراء الجهد المبذول في فهمها، فضلًا عن إثارتها والانشغال بها؛ ثم إنني أيضًا علقت هنا على المواطن التي تحتاج إلى تعليق، وسواء كانت أقوالًا للإمام الطحاوي رحمه الله أو لشارح كتابه ابن أبي العز رحمه الله.

أما عن التخريج، فقد اقتصدت فيه بما يؤدي الغرض، وكذا لم أتوسع في بيان سبب الحكم الذي حكمت به على الأحاديث أو الآثار، فمن أراد توسعًا في التخريج، فليرجع إلى طبعة دار ابن رجب التي قمت بتحقيقها.

هذا، وما كان من صوابٍ في هذا العمل فمن الله وحده، فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، وما كان من خطأ وزلل فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله منه.

هذا، وبين يدي العمل ترجمة موجزةٌ للإمامين الطحاوي، وابن أبي العز رحمهما الله وأكرم مثواهما ونفع بهما وبمصنفاتهما.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وسلم والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ترجمة الإمام الطحاوي

اسمه ونسبه:

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الحجري المصري الطحاوي.

ونسبته إلى طحا - بفتح الطاء والحاء المهملتين، وبعدهما ألف - وهي قرية بصعيد مصر، وإلى الأزد - بفتح الهمزة وسكون الزاي المعجمة وبالدال المهملة - وهي قبيلة مشهورة من قبائل اليمن.

ولادته:

ولد الطحاوي ليلة الأحد لعشر خلون من ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائتين، وقيل: سنة ثمان وثلاثين ومائتين، والأول هو الصحيح، وعليه الأكثر ممن ترجموا له.

طلبه للعلم:

درس فقه الشافعية على خاله المزني، صاحب الإمام الشافعي، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة، فتفقه على الفقيه الحنفي أحمد بن أبي عمران، ورحل إلى الشام، فسمع الحديث ببيت المقدس وغزة وعسقلان ودمشق، وفيها تفقه على أبي حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، ثم عاد إلى مصر، وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر.

شيوخه:

روى عن يونس بن عبد الأعلى، وهارون بن سعيد الأيلي، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم، وإبراهيم بن أبي داود الضريس، وغيرهم.

تلاميذه:

روى عنه ابنه علي، وسليمان بن أحمد الطبراني، وأبو الحسين محمد بن المظفر، ويوسف بن القاسم الميانجي، وأحمد بن عبد الوارث الزجاج، وعبد العزيز بن محمد الجوهري وغيرهم.

مكانته العلمية:

قال عنه ابن عبد البر: كان عالمًا بجميع مذاهب الفقهاء.

وقال السمعاني: كان إمامًا ثقة ثبتًا فقيهًا عالمًا لم يخلف مثله.

وقال الذهبي: الفقيه المحدث الحافظ أحد الأعلام، وكان ثبتًا فقيهًا عاقلًا.

وقال ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»: الطحاوي الفقيه الحنفي المحدث الحافظ أحد الأعلام وشيخ الإسلام، وكان إمام عصره بلا مدافعة في الفقه والحديث واختلاف العلماء والأحكام واللغة والنحو، وصنف المصنفات الحسان.

ذكر أبو يعلى الخليلي في كتاب «الإرشاد» في ترجمة المزني أن الطحاوى المذكور كان ابن أخت المزني، وأن محمد بن أحمد الشروطي قال: قلت للطحاوي: لم خالفت خالك واخترت مذهب أبي حنيفة، فقال: لأني كنت أرى خالي يديم النظر في كتب أبي حنيفة، فلذلك انتقلت إليه، وصنف كتبًا مفيدة منها «أحكام القرآن»، و«اختلاف العلماء»، و«معاني الآثار»، و«الشروط»، وله «التاريخ الكبير»، وغير ذلك.

وذكره القضاعي في كتاب «الخطط» فقال: كان قد أدرك المزني وعامة طبقته، وبرع في علم الشروط، وكان قد استكتبه أبو عبيد اللَّه محمد بن عبدة القاضي وكان صعلوكًا فأغناه، وكان أبو عبيد الله سمحًا جوادًا، ثم عدَّله أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب القاضي عقيب القضية التي جرت لمنصور الفقيه مع أبي عبيد، وذلك في سنة ست وثلاثمائة، وكان الشهود يتعسفون عليه بالعدالة؛ لئلا تجتمع له رياسة العلم وقبول الشهادة، وكان جماعة من الشهود قد جاوروا بمكة في هذه السنة، فاغتنم أبو عبيد غيبتهم وعدل أبا جعفر المذكور بشهادة أبي القاسم

المأمون وأبي بكر بن سقلاب.

مصنفاته:

كان الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله صاحب تصانيف بديعة ومفيدة، كما تقدم في ثناء العلماء عليه، ولعل من أهم وأشهر مؤلفاته:

١ - «شرح معاني الآثار».

٢ - «شرح مشكل الآثار».

٣ - «مختصر الطحاوي».

٤ - «النوادر الفقهية».

٥ - «النوادر والحكايات».

٦ - كتاب «الأشربة».

٧ - «شرح الجامع الكبير» لمحمد بن الحسن الشيباني.

٨ - «التاريخ الكبير».

٩ - «الفرائض».

١٠ - «سنن الشافعي»، وقد جمع فيه ما سمعه من خاله المزني من أحاديث الشافعي، والشافعية يروون تلك الأحاديث من طريقه. وغيرها كثير.

وفاته:

توفي الطحاوي رحمه الله ليلة الخميس مستهل ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بمصر، ودفن بالقرافة قرب قبر الإمام الشافعي، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة رحمه الله(١).

* * *

(١) انظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٧١ - ٧٢) لابن خلكان، و«منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي وآراؤه في العقيدة من خلال شرحه للطحاوية» ص (٨ - ١٠).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ترجمة الإمام ابن أبي العز

اسمه ونسبه:

هو علي بن علي بن محمد بن محمد بن وهيب بن جبير بن جابر بن وهب الأذرعي الدمشقي الصالحي الحنفي، ويكنى أبا الحسن.

والأذرعي: نسبة إلى أذرعات من بلاد الشام جنوب دمشق.

والصالحي: نسبة إلى الصالحية، قرية بقرب دمشق، عند سفح جبل «قاسيون»، وكانت مركزًا يقصده العلماء في القرنين: السادس والسابع الهجريين، واشتهر منها علماء كبار؛ لاسيما من أتباع مذهب الإمام أحمد بن حنبل، كبني قدامة المقدسيين.

مولده:

اتفقت كتب التراجم على أنه ولد في الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، ولكنها لم تشر إلى مكان ولادته، والذي يظهر - والله أعلم - أنه ولد حيث نشأ في مدينة دمشق، فقد كانت موطن أبيه وجده.

نشأته:

نشأ ابن أبي العز في مدينة دمشق التي كانت في ذلك العصر مركزًا من مراكز العلم والمعرفة في العالم الإسلامي، ويؤمها طلاب العلم ويقصدونها من كل مكان، فقد كانت تزخر بعدد كبير من العلماء في كل فن من فنون العلم، كما كانت بها المدارس الكبيرة المتعددة والمكتبات الضخمة التي تشتمل على نفائس الكتب في شتى حقول المعرفة، فكل هذه العوامل قد أثرت في شخصية ابن أبي العز العلمية، وساعدت في نبوغه وتبوئه مكانة علمية في ذلك العصر.

ومن العوامل التي أثرت في تنشئة ابن أبي العز تنشئة علمية، الأسرة التي

ينتمي إليها، فقد كان أبوه القاضي علاء الدين علي بن أبي العز الحنفي خطيبًا بجامع الأفرم، ونائب الحكم عن القاضي عماد الدين الطرطوسي، كما درس في المدرسة المعظَّمية والقليجية والظاهرية.

وكان جده شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي العز أحد كبار العلماء في مذهب الإمام أبي حنيفة، تولى القضاء نحوًا من عشرين سنة، وكان مفتيًا وناظرًا للأوقاف في المدرسة الظاهرية.

كل هذه العوامل مع ما تميزت به شخصية ابن أبي العز من محبة للعلم وأهله قد أثرت في تنشئته تلك النشأة الطيبة.

مكانته العلمية:

درَّس ابن أبي العز رحمه الله بالمدرسة القيمازية بدمشق وهو ابن سبع عشرة سنة، وهذا يدل على تنشئة صالحة، ونبوغ مبكر، وإدراك حظ وافر من العلم لدى هذا الإمام في تلك السن المبكرة.

ومع تقدم العمر بهذا الإمام يزداد نشاطه العلمي وجهوده في الدعوة إلى الله، ونشر العلم النافع، فتراه مدرسًا في عدد من المدارس العلمية الكبرى بدمشق، كالمدرسة الركنية، والمدرسة العزِّية، والمدرسة الجوهرية، فتلقى عنه العلم الكثير من الطلاب بهذه المدارس.

كما تولى رحمه الله الخطابة بجامع الأفرم قبل وفاته بعام أي: سنة ٧٩١ هـ، وقد كان جده خطيبًا قبل ذلك في هذا الجامع، كما تولى الخطابة ببلدة «حُسْبَان» جنوب غرب عمَّان، وقد كان لهذه البلدة مكانة مرموقة في ذلك العصر.

وفي آخر سنة ٧٧٦ هـ تولى القضاء بدمشق نيابة عن ابن عمه نجم الدين، ثم ولي قضاء الحنفية بمصر نحو شهرين، ثم استعفى فأعفي، وبقي في التدريس والخطابة.

مؤلفاته:

كان للتأليف والكتابة مكان في حياة ابن أبي العز العلمية، وقد ذكر المؤرخون أنه صنف الكتب الآتية:

١ - «التنبيه على مشكلات الهداية»:

وكتاب «الهداية» من الكتب المعتمدة في المذهب الحنفي، ألفه علي بن أبي بكر المرغيناني المتوفى سنة ٥٩٣ هـ، وقد نبه الشارح على بعض المواضع المشكلة في هذا الكتاب وحررها، كما هو متبع عند العلماء، وكتابه هذا لم يعثر عليه حتى الآن.

٢ - «الاتباع»:

وهي رسالة كتبها الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ ردًّا على معاصره الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود بن أحمد الحنفي البابرتي المتوفى سنة ٧٨٦ هـ، وكان البابرتي قد كتب رسالة رجح فيها تقليد مذهب أبي حنيفة، وحضَّ على ذلك، فتصدى له ابن أبي العز، وجاء في أول رسالته: «... فإني وقفت على رسالة لبعض الحنفية رجح فيها تقليد مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ وحض على ذلك، ووجدت فيها مواضع مشكلة، فأحببت أن أنبه عليها؛ خوفًا من التفرق المنهي عنه واتباع الهوى المردي؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]».

وقد دعا في «رسالته» هذه إلى اتباع الدليل من الكتاب والسنة، ونبذ التعصب والتقليد الأعمى وعدم إثارة الفرقة بين المسلمين.

وبالجملة فهذه الرسالة عظيمة الفائدة، وهي من أحسن ما كتب في هذا الموضوع.

٣ - «النور اللامع فيما يُعمل به في الجامع».

أي: جامع بني أمية بدمشق، وهذا الكتاب مفقود، ولعل موضوعه التنبيه على بعض الأخطاء التي تقع في الجامع الأموي في ذلك العصر في أمور العبادة وغيرها.

٤ - مجموعة رسائل فقهية تتضمن الجواب عن عدد من المسائل منها: صحة الاقتداء بالمخالف، وحكم صلاة أربع ركعات بعد الجمعة، وبعض أحكام المياه.

٥ - «شرح العقيدة الطحاوية»، وهو الكتاب الذي قام الشيخ مصطفى بن العدوي بتهذيبه.

محنته ووفاته:

أولًا: محنته: إن الابتلاء والامتحان سنة ماضية في الخليقة، لا سيما أهل الإيمان، فإنهم يبتلون ويمتحنون، فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وأخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيرًا يُصِبْ منه»[(١)].

وأشد الناس بلاءً الأنبياء والمرسلون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة؛ زِيدَ له في البلاء، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

والناظر في تاريخ هذه الأمة؛ يجد الجمَّ الغفير من العلماء والعُبَّاد فضلًا عن العامة ممن ابتلوا بأنواع مختلفة من البلايا والرزايا، والله حكيم عليم بشؤون خلقه وما يصلحهم؛ فله الحمد وله الشكر على كل حال.

والإمام ابن أبي العز قد جرت عليه سنة الابتلاء في آخر عمره قبل وفاته بثمان سنوات.

وملخص هذه المحنة أن الشاعر علي بن أيبك الصفدي مدح النبي ﷺ بقصيدة على وزن «بانت سعاد»، وطلب من العلماء والفقهاء أن يقرظوها، ففعل كثير منهم، وكان من هؤلاء العلماء الذين عرض ابن أيبك عليهم القصيدة ابن أبي العز رحمه الله، فانتقد ابن أبي العز مواضع من هذه القصيدة، كطلبه الشفاعة من النبي ﷺ، وتوسله بذاته وبجاهه، وتفضيله الملائكة على صالحي البشر على وجه قد يشعر بتنقص الملائكة، وقوله لغير الله تعالى: «حسبي»، وكذلك الحلف بغير الله.

وقد ساق الحافظ ابن حجر في كتابه «إنباء الغمر بأنباء العمر» وقائع هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المحنة وما جرى للإمام ابن أبي العز، فقال: وفيها - أي: سنة ٧٨٤ - وفيها كائنة الشيخ صدر الدين علي بن العز الحنفي بدمشق، وأولها أن الأديب علي بن أيبك الصفدي عمل قصيدة لامية على وزن بانت سعاد، وعرضها على الأدباء والعلماء، فقرظوها ومنهم صدر الدين علي بن علاء الدين بن العز الحنفي، ثم انتقد فيها أشياء، فوقف عليها علي بن أيبك المذكور، فساءه ذلك، ودار بالورقة على بعض العلماء، فأنكر غالب من وقف عليها ذلك، وشاع الأمر، فالتمس ابن أيبك من ابن العز أن يعطيه شيئا ويعيد إليه الورقة، فامتنع، فدار على المخالفين وألَّبهم عليه، وشاع الأمر إلى أن انتهى إلى مصر، فقام فيه بعض المتعصبين إلى أن انتهت القضية للسلطان، فكتب مرسومًا طويلًا، منه: بلغنا أن علي بن أيبك مدح النبي ﷺ بقصيدة، وأن علي بن العز اعترض عليه وأنكر أمورًا منها التوسل بالنبي ﷺ والقدح في عصمته وغير ذلك، وأن العلماء بالديار المصرية خصوصًا أهل مذهبه من الحنفية أنكروا ذلك، فتقدم بطلبه وطلب القضاة والعلماء من أهل المذاهب ونعمل معه ما يقتضيه الشرع من تعزير وغيره، وفي المرسوم أيضًا: بلغنا أن جماعة بدمشق ينتحلون مذهب ابن حزم وداود ويدعون إليه، منهم القرشي وابن الجابي والحسباني والناسوفي، فتقدم بطلبهم، فإن ثبت عليهم منه شيء؛ عمل بمقتضاه من ضرب ونفي وقطع معلوم، ويقرر في وظائفهم غيرهم من أهل السنة والجماعة.

وفيه: وبلغنا أن جماعة من الشافعية والحنابلة والمالكية يظهرون البدع ومذهب ابن تيمية، فذكر نحو ما تقدم في الظاهرية، فطلب النائب القضاة وغيرهم، فحضر أول مرة القضاة ونوابهم وبعض المفتين، فقرأ عليهم المرسوم، وأحضر خط ابن العز؛ فوجد فيه قوله: «حسبي رسول الله»: «هذا لا يقال إلا لله»، وقوله: «اشفع لي»، قال: «لا يطلب منه الشفاعة»، ومنها: «توسلت بك»، قال: «لا يتوسل به»، وقوله: «المعصوم من الزلل»، قال: «إلا من زلة العتاب»، وقوله: «يا خير خلق الله»، «الراجح تفضيل الملائكة»، إلى غير ذلك.

فسئل، فاعترف، ثم قال: رجعت عن ذلك وأنا الآن أعتقد غير ما قلت أولًا، فكتب ما قال، وانفصل المجلس، ثم طلب بقية العلماء، فحضروا المجلس الثاني وحضر القضاة أيضًا، وممن حضر: القاضي شمس الدين الصرخدي، والقاضي

شرف الدين الشريشي، والقاضي شهاب الدين الزهري، وجمع كثير، فأعيد الكلام، فقال بعضهم: يُعَزَّرُ، وقال بعضهم: ما وقع معه من الكلام أولًا كاف في تعزير مثله، وقال القاضي الحنبلي: هذا كاف عندي في تعزير مثله، وانفصلوا ثم طلبوا ثالثًا وطلب من تأخر وكُتِبَ أسماؤهم في ورقة، فحضر القاضي الشافعي، وحضر ممن لم يحضر أولًا: أمين الدين الأتقى، وبرهان الدين بن الصنهاجي، وشمس الدين بن عبيد الحنبلي وجماعة، ودار الكلام أيضًا بينهم، ثم انفصلوا ثم طلبوا، وشدد الأمر على من تأخر، فحضروا أيضًا، وممن حضر: سعد الدين النووي، وجمال الدين الكردي، وشرف الدين الغزي، وزين الدين بن رجب، وتقي الدين بن مفلح، وأخوه، وشهاب الدين بن حجي، فتواردوا على الإنكار على ابن العز في أكثر ما قاله، ثم سئلوا عن قضية الذين نسبوا إلى الظاهر وإلى ابن تيمية، فأجابوا كلهم أنهم لا يعلمون في المسمين من جهة الاعتقاد إلا خيرًا، وتوقف ابن مفلح في بعضهم، ثم حضروا خامس مرة واتفق رأيهم على أنه لا بد من تعزير ابن العز إلا الحنبلي، فسئل ابن العز عما أراد بما كتب؟ فقال: ما أردت إلا تعظيم جناب النبي ﷺ وامتثال أمره أن لا يُعْطَى فوق حقه، فأفتى القاضي شهاب الدين الزهري بأن ذلك كاف في قبول قوله وإن أساء في التعبير، وكتب خطه بذلك، وأفتى ابن الشريشي وغيره بتعزيره، فحكم القاضي الشافعي بحبسه، فحبس بالعذراوية، ثم نقل إلى القلعة، ثم حكم برفع ما سوى الحبس من التعزيرات، ونفذه بقية القضاة، ثم كتبت نسخة بصورة ما وقع، وأخذ فيها خطوط القضاة والعلماء، وأرسلت مع البريد إلى مصر، فجاء المرسوم في ذي الحجة بإخراج وظائف ابن العز، فأخذ تدريس العزية البرانية شرف الدين الهروي، والجوهرية على القليب الأكبر.

واستمر ابن العز في الاعتقال إلى شهر ربيع الأول من السنة المقبلة، وأحدث من يومئذ عقب صلاة الصبح التوسل بجاه النبي ﷺ، أمر القاضي الشافعي بذلك المؤذنين، ففعلوه(١).

---

(١) «إنباء الغمر بأنباء العمر» (١/ ٢٥٨ - ٢٦٠).

ثانيًا: وفاته:

بعد عمر حافل بالعلم والتعليم، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله؛ توفي الإمام علي بن علي بن أبي العز الحنفي بدمشق، وذلك في ذي القعدة من عام ٧٩٢هـ، ودفن بسفح قاسيون، وكان عمره آنذاك واحدًا وستين عامًا، رحم الله ابن أبي العز رحمة واسعة، وجزاه خير الجزاء عما قدمه للإسلام والمسلمين[(١)].

* * *

(١) «منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي وآراؤه في العقيدة من خلال شرحه للطحاوية» لعبد الله بن عبيد بن عباد الحافي ص (١٨ - ٤١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منهج الإمام ابن أبي العز في «شرحه للطحاوية»

قام الإمام ابن أبي العز بشرح عقيدة الإمام أبي جعفر الطحاوي، المعروفة بـ«الطحاوية»، وقد ضمن هذا الشرح أبحاثًا نفيسة، وفوائد قيمة تدل على غزارة علمه وتمكنه في علم التوحيد.

ويعتبر شرحه هذا خلاصة طيبة لمعتقد السلف، فقد افتتح شرحه هذا بمقدمة ضافية اشتملت على بيان منزلة علم أصول الدين من بين سائر العلوم، وبيان حاجة العباد إلى معرفته. وأشار فيها إلى مصدر التلقي لمسائل أصول الدين، وهو الكتاب والسنة، وبين أنهما الحاكم على قول وفعل كل أحد، فما وافقهما فهو الحق، وما خالفهما فهو الباطل، ولا يلتفت إلى قائله، كائنًا من كان.

ونبّه فيها على منزلة علماء السلف، وأنهم أهل الفهم السليم البعيد عن المؤثرات الأجنبية التي تأثرت بها الفرق الأخرى التي حدثت بعد.

ثم قام بعد ذلك بتقسيم متن «الطحاوية» إلى فقرات وجمل، كل جملة تشكل مسألة علمية أو أكثر، ويتبعها بالشرح والبيان معتمدًا في ذلك وبشكل موسع على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الثابتة عن الرسول ﷺ، وقد يتطرق إلى إيضاح معنى العبارة من جهة اللغة في بعض المسائل.

كما يتطرق في الشرح إلى ذكر المخالفين لكن على سبيل الإجمال بدون توسع في إيراد حججهم أو ذكر أسمائهم في الغالب، ذلك أنه قصد الاختصار، وكثيرًا ما يسمي كتابه هذا بـ «المختصر»، كما فعل عند تقريره إثبات الصفات.

فابن أبي العز قد وضع هذا الشرح لتقرير عقيدة السلف أصالةً وبالقصد الأول، كما نبه على ذلك في خطبة كتابه، وقد يعرض لذكر المخالفين أو لذكر الخلاف دون ذكر مَنْ خالف في الغالب، مع المناقشة والرد في كل الأحوال، وهو كثير

في هذا الشرح خصوصًا المسائل الكبار كالصفات والقدر والعقل والنقل ومصادر التلقي، وما يتفرع عن هذه المسائل.

وبناءً على ما سار عليه ابن أبي العز من تقسيم المتن إلى فقرات وجمل؛ جاء كلامه على المسألة الواحدة مفرقًا في عدة مواضع من شرحه؛ وذلك لأن الطحاوي رحمه الله لم يجمع الكلام على المسألة الواحدة في مكان واحد، وذلك كالكلام على ما يتعلق بالصفات، فهو منتشر في الكتاب.

وقد أدرك ابن أبي العز هذا الأمر واعتذر عن تكراره للحديث، وتفرقه في المسألة الواحدة أكثر من مرة بأن هذا تمشيًا مع ما يذكره صاحب المتن، قال رحمه الله: «وقد تقدمت الإشارة إلى المعنى، ولكن الشيخ - الطحاوي - لم يجمع الكلام في الصفات في المختصر في مكان واحد، وكذلك الكلام في القدر ونحو ذلك، ولم يعتن فيه بترتيب».

ثم بيَّن رحمه الله أحسن الطرق التي ينبغي أن يسلكها المؤلفون والكاتبون في أصول الدين، فقال: «وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين؛ ترتيب جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، حين سأله عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر...**» الحديث[١]. فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك، ثم بالكلام على الملائكة...».

ونخلص مما تقدم أن الشارح رحمه الله؛ كان علمًا من أعلام عصره في الأصول والفروع، وكان صاحب اجتهاد ونظر وعلم بالأدلة ومعلمًا ومربيًا وقاضيًا وخطيبًا، ومن دعاة المذهب السلفي الذي يعتمد على الكتاب والسنة[٢].

فرحم الله المؤلف رحمة واسعة.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩، ١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ومسلم (٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) «منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي وآراؤه في العقيدة من خلال شرحه للطحاوية» (٣٤ - ٣٦).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حسبي الله ونعم الوكيل

الحمد للَّه نستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا من يهده اللَّه فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيِّدنا محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد:

فإنَّه لمَّا كان علم أصول الدِّين أشرف العلوم؛ إذ شرف العلم بشرف المعلوم. وهو الفقه الأكبر بالنِّسبة إلى فقه الفروع، ولهذا سمَّى الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ ما قاله وجمعه في أوراقٍ من أصول الدِّين «الفقه الأكبر»، وحاجة العباد إليه فوق كلِّ حاجةٍ، وضرورتهم إليه فوق كلِّ ضرورةٍ؛ لأنَّه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا طمأنينة، إلَّا بأن تعرف ربَّها ومعبودها وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كلِّه أحبَّ إليها ممَّا سواه، ويكون سعيها فيما يقرِّبها إليه دون غيره من سائر خلقه.

ومن المحال أن تستقلَّ العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التَّفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرَّحيم أن بعث الرُّسل به معرِّفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشِّرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم، وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرِّسالة كلِّها من أوَّلها إلى آخرها.

ثمَّ يتبع ذلك أصلان عظيمان:

أحدهما: تعريف الطَّريق الموصِّل إليه، وهي شريعته المتضمِّنة لأمره ونهيه.

والثَّاني: تعريف السَّالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النَّعيم المقيم.

فأعرف النَّاس باللَّه ﷺ أتبعهم للطَّريق الموصِّل إليه، وأعرفهم بحال السَّالكين عند القدوم عليه، ولهذا سمَّى اللَّه ما أنزله على رسوله روحًا، لتوقُّف الحياة الحقيقيَّة عليه، ونورًا لتوقُّف الهداية عليه، فقال الله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: الآية ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، فلا روح إلَّا فيما جاء به الرَّسول، ولا نور إلَّا في الاستضاءة به، وهو الشِّفاء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۚ﴾ [فصلت: الآية ٤٤]، فهو وإن كان هدًى وشفاءً مطلقًا، لكن لمَّا كان المنتفع بذلك هم المؤمنين، خصُّوا بالذِّكر.

واللَّه تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ، فلا هدى إلَّا فيما جاء به، ولا ريب أنَّه يجب على كلِّ أحدٍ أن يؤمن بما جاء به الرَّسول إيمانًا عامًّا مجملًا، ولا ريب أنَّ معرفة ما جاء به الرَّسول على التَّفصيل فرضٌ على الكفاية، فإنَّ ذلك داخلٌ في تبليغ ما بعث اللَّه به رسوله، وداخلٌ في تدبُّر القرآن وعَقْلِهِ وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذِّكر، والدُّعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والدعاء إلى سبيل الرَّبِّ بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالَّتي هي أحسن، ونحو ذلك ممَّا أوجبه اللَّه على المؤمنين، فهو واجبٌ على الكفاية منهم.

وأمَّا ما يجب على أعيانهم، فهذا يتنوَّع بتنوُّع قدرهم وحاجاتهم ومعرفتهم، وما أمر به أعيانهم، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك.

ويجب على من سمع النُّصوص وفهمها من علم التَّفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها، ويجب على المفتي والمحدِّث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك، وينبغي أن يعرف أنَّ عامَّة من ضلَّ في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحقِّ، فإنَّما هو لتفريطه في اتِّباع ما جاء به الرَّسول، وترك النَّظر والاستدلال

الموصِّل إلى معرفته، فلمَّا أعرضوا عن كتاب اللَّه ضلُّوا، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٦].

ولا يقبل اللَّه من الأوَّلين والآخرين دينًا يدينون به، إلَّا أن يكون موافقًا لدينه الَّذي شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام، وقد نزَّه اللَّه تعالى نفسه عمَّا يصفه به العباد، إلَّا ما وصفه به المرسلون، بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢]، فنزَّه نفسه سبحانه عمَّا يصفه به الكافرون، ثمَّ سلَّم على المرسلين، لسلامة ما وصفوه به من النَّقائص والعيوب، ثمَّ حمد نفسه على تفرُّده بالأوصاف الَّتي يستحقُّ عليها كمال الحمد.

ومضى على ما كان عليه الرسول ﷺ خير القرونِ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان يوصي به الأول الآخر ويقتدي فيه اللاحق بالسابق، وهم في ذلك كلِّه بنبيِّهم محمَّدٍ ﷺ مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨].

وقد بلَّغ الرسول ﷺ البلاغ المبين وأوضح الحجة للمستبصرين وسلك سبيله خير القرون ثمَّ خلف من بعدهم خلفٌ اتَّبعوا أهواءهم، وافترقوا، فأقام اللَّه لهذه الأمَّة من يحفظ عليها أصول دينها، كما أخبر الصَّادق ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ**»[1].

وممَّن قام بهذا الحقِّ من علماء المسلمين: الإمام أبو جعفرٍ أحمد بن محمَّد بن سلامة الأزديُّ الطَّحاويُّ - تغمَّده اللَّه برحمته - بعد المائتين، فإنَّ مولده سنة تسعٍ وثلاثين ومائتين، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائةٍ.

فأخبر رحمه الله عمَّا كان عليه السَّلف، ونقل عنِ الإمام أبي حنيفة النُّعمان بن ثابتٍ

---

(١) **صحيح**: وهو بهذا اللفظ عند مسلم في «صحيحه» (حديث ١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا، وللحديث طرق عن عدة من أصحاب النبي ﷺ مرفوعًا بألفاظ متقاربة في «الصحيحين» وغيرهما. انظر: البخاريَّ (٣٦٤٠، ٧٣١١، ٧٣١٢)، وصحيح مسلم (ص١٥٢٣).

الكوفيِّ، وصاحبيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحميريِّ الأنصاريِّ، ومحمَّد ابن الحسن الشَّيبانيِّ ﵏ ما كانوا يعتقدونه من أصول الدِّين، ويدينون به ربَّ العالمين.

وكلَّما بَعُدَ العهد، ظهرت البدع، وكثر التَّحريف الَّذي سمَّاه أهله تأويلًا ليقبل، وقلَّ من يهتدي إلى الفرق بين التَّحريف والتَّأويل؛ إذ قد يسمَّى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنًى آخر يحتمله اللَّفظ في الجملة تأويلًا، وإن لم يكن ثمَّ قرينةٌ توجب ذلك، ومن هنا حصل الفساد، فإذا سمَّوه تأويلًا قُبِلَ وَرَاجَ على من لا يهتدي إلى الفرق بينهما.

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاح الأدلَّة، ودفع الشُّبه الواردة عليها، وكثر الكلام والشَّغَبُ، وسبب ذلك إصغاؤهم إلى شُبَهِ المبطلين، وخوضهم في الكلام المذموم الَّذي عابه السَّلف، ونهوا عن النَّظر فيه والاشتغال به والإصغاء إليه، امتثالًا لأمر ربِّهم؛ حيث قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ٦٨]، فإنَّ معنى الآية يشملهم.

وكلٌّ من التَّحريف والانحراف على مراتب: فقد يكون كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصيةً، وقد يكون خطأً.

فالواجب اتِّباع المرسلين، واتِّباع ما أنزل اللَّه عليهم. وقد ختمهم اللَّه بمحمَّدٍ ﷺ، فجعله آخر الأنبياء، وجعل كتابه مهيمنًا على ما بين يديه من كتب السَّماء، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وجعل دعوته عامَّةً لجميع الثَّقلين، الجنِّ والإنس، باقيةً إلى يوم القيامة، وانقطعت به حجَّة العباد على اللَّه.

وقد بيَّن اللَّه به كلَّ شيءٍ، وأكمل له ولأمَّته الدِّين خبرًا وأمرًا، وجعل طاعته طاعةً له، ومعصيته معصيةً له، وأقسم بنفسه أنَّهم لا يؤمنون حتَّى يحكِّموه فيما شَجَرَ بينهم، وأخبر أنَّ المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره، وأنَّهم إذا دعوا إلى اللَّه والرَّسول ﷺ - وهو الدُّعاء إلى كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ - صدُّوا صدودًا، وأنَّهم يزعمون أنَّهم إنَّما أرادوا إحسانًا وتوفيقًا، وكما يقوله كثيرٌ من المتكلِّمة والمتفلسفة وغيرهم: إنَّما نريد أن نحسَّ الأشياء بحقيقتها، أي: ندركها ونعرفها، ونريد التَّوفيق بين الدَّلائل الَّتي يسمُّونها «العقليَّات»، وهي في الحقيقة:

جهليَّاتٌ! وبين الدَّلائل النَّقليَّة المنقولة عن الرَّسول، أو نريد التَّوفيق بين الشَّريعة والفلسفة. وكما يقوله كثيرٌ من المبتدعة، من المتنسِّكة والمتصوِّفة: إنَّما نريد الأعمال بالعمل الحسن، والتَّوفيق بين الشَّريعة وبين ما يدَّعونه من الباطل، الَّذي يسمُّونه «حقائق» وهي جهلٌ وضلالٌ. وكما يقوله كثيرٌ من المتملِّكة والمتأمِّرة: إنَّما نريد الإحسان بالسِّياسة الحسنة، والتَّوفيق بينها وبين الشَّريعة، ونحو ذلك.

وكلُّ من طلب أن يحكِّم في شيءٍ من أمر الدِّين غير ما جاء به الرَّسول، ويظنُّ أنَّ ذلك حسنٌ، وأنَّ ذلك جمعٌ بين ما جاء به الرَّسول وبين ما يخالفه - فله نصيبٌ من ذلك، بل ما جاء به الرَّسول كافٍ كاملٌ، يدخل فيه كلُّ حقٍّ.

وإنَّما وقع التَّقصير من كثيرٍ من المنتسبين إليه، فلم يعلم ما جاء به الرَّسول في كثيرٍ من الأمور الكلاميَّة الاعتقاديَّة، ولا في كثيرٍ من الأحوال العباديَّة، ولا في كثيرٍ من الإمارة السِّياسيَّة، أو نسبوا إلى شريعة الرَّسول بظنِّهم وتقليدهم ما ليس منها، وأخرجوا عنها كثيرًا ممَّا هو منها.

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم، وبسبب عدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم، كثر النِّفاق، ودَرَسَ كثيرٌ من علم الرِّسالة.

بل البحث التَّامُّ، والنَّظر القويُّ، والاجتهاد الكامل، فيما جاء به الرَّسول، ﷺ، ليعلم ويعتقد، ويعمل به ظاهرًا وباطنًا، فيكون قد تُلي حقَّ تلاوته، وأن لا يهمل منه شيءٌ.

وإن كان العبد عاجزًا عن معرفة بعض ذلك، أو العمل به، فلا ينهى عمَّا عجز عنه ممَّا جاء به الرَّسول، بل حسبه أن يسقط عنه اللَّوم لعجزه، لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به، ويرضى بذلك، ويودَّ أن يكون قائمًا به، وأن لا يؤمن ببعضه ويترك بعضه، بل يؤمن بالكتاب كلِّه، وأن يصان عن أن يدخل فيه ما ليس منه، من روايةٍ أو رأيٍ، أو يتَّبع ما ليس من عند اللَّه، اعتقادًا أو عملًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: الآية ٤٢].

وهذه كانت طريقة السَّابقين الأوَّلين، وهي طريقة التَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة، وأوَّلهم السَّلف القديم من التَّابعين الأوَّلين، ثمَّ من بعدهم، ومن هؤلاء أئمَّة الدِّين المشهود لهم عند الأمَّة الوسط بالإمامة.

فعن أبي يوسف رحمه الله أنَّه قال لبشرٍ المريسيِّ: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرَّجل رأسًا في الكلام قيل: زنديقٌ، أو رُمي بالزَّندقة، أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحَّته، فإنَّ ذلك علمٌ نافعٌ، أو أراد به الإعراض عنه وترك الالتفات إلى اعتباره، فإنَّ ذلك يصون علم الرَّجل وعقله، فيكون علمًا بهذا الاعتبار، واللَّه أعلم.

وقال الإمام الشَّافعيُّ رحمه الله: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنِّعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة وأقبل على الكلام.

وقال أيضًا رحمه الله شعرًا:

كلُّ العلوم سوى القرآن مشغلةٌ إلَّا الحديثَ وإلَّا الفقه في الدِّين
العلم ما كان فيه قال حدَّثنا وما سوى ذاك وسواس الشَّياطين

فكيف يرام الوصول إلى علم الأصول، بغير اتِّباع ما جاء به الرَّسول؟!

ونبيُّنا ﷺ أوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلِّيَّة والعلوم الأوَّليَّة والآخريَّة على أتمِّ الوجوه، ولكن كلَّما ابتدع شخصٌ بدعةً اتَّسعوا في جوابها، فلذلك صار كلام المتأخِّرين كثيرًا، قليل البركة، بخلاف كلام المتقدِّمين، فإنَّه قليلٌ، كثير البركة، لا كما يقوله ضلَّال المتكلِّمين وجهلتهم: إنَّ طريقة القوم أسلم، وإنَّ طريقتنا أحكم وأعلم! كما يقوله من لم يقدِّرهم قَدْرهم من المنتسبين إلى الفقه: إنَّهم لم يتفرَّغوا لاستنباطه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالًا منهم بغيره! والمتأخِّرون تفرَّغوا لذلك، فهم أفقه!!

فكلُّ هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السَّلف، وعمق علومهم، وقلَّة تكلُّفهم، وكمال بصائرهم، وتاللَّه ما امتاز عنهم المتأخِّرون إلَّا بالتَّكلُّف والاشتغال بالأطراف الَّتي كانت همَّة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشدَّ معاقدها، وهممهم مشمَّرةً إلى المطالب العالية في كلِّ شيءٍ. فالمتأخِّرون في شأنٍ، والقوم في شأنٍ آخر، وقد جعل اللَّه لكلِّ شيءٍ قدرًا.

وقد شرح هذه العقيدة غير واحدٍ من العلماء، ولكن رأيت بعض الشَّارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم، واستمدَّ منهم، وتكلَّم بعباراتهم.

وقد أحببت أن أشرحها سالكًا طريق السَّلف في عباراتهم، وأنسج على منوالهم، متطفِّلًا عليهم، لعلِّي أن أُنْظَمَ في سلكهم، وأُدْخَلَ في عدادهم، وأحشر في زمرتهم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٩].

ولمَّا رأيت النُّفوس مائلةً إلى الاختصار، آثرته على التَّطويل والإسهاب. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

متن الطحاوية

قوله: «نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ»

الشرح

اعلم أنَّ التَّوحيد أوَّل دعوة الرُّسل، وأوَّل منازل الطَّريق، وأوَّل مقام يقوم فيه السَّالك إلى اللَّه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ٥٩]، وقال هودٌ عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ٦٥]، وقال صالحٌ عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ٧٣]، وقال شعيبٌ عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥].

وقال ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»**(١).

ولهذا كان الصَّحيح أنَّ أوَّل واجبٍ يجب على المكلَّف شهادة أن لا إله إلَّا اللَّه، لا النَّظر، ولا القصد إلى النَّظر، ولا الشَّكُّ، كما هي أقوالٌ لأرباب الكلام المذموم، بل أئمَّة السَّلف كلُّهم متَّفقون على أنَّ أوَّل ما يؤمر به العبد الشَّهادتان، ومتَّفقون على أنَّ من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه.

---

(١) **صحيح**: وقد أخرجه البخاري (حديث ٢٥)، ومسلم (حديث ٢٢) وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ.

فالتَّوحيد أوَّل ما يُدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدُّنيا، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[١]. وهو أوَّل واجبٍ وآخر واجبٍ، فالتَّوحيد أوَّل الأمر وآخره، أعني توحيد الإلهيَّة.

فإن التَّوحيد يتضمَّن ثلاثة أنواعٍ:

أحدها: الكلام في الصِّفات.

والثَّاني: توحيد الرُّبوبيَّة، وبيان أنَّ اللَّه وحده خالق كلِّ شيءٍ.

والثَّالث: توحيد الإلهيَّة، وهو استحقاقه ﷻ أن يعبد وحده لا شريك له.

أمَّا الأوَّل: فإنَّ نفاة الصِّفات أدخلوا نفي الصِّفات في مسمَّى التَّوحيد، كالجهم ابن صفوان ومن وافقه، فإنَّهم قالوا: إثبات الصِّفات يستلزم تعدُّد الواجب! وهذا القول معلوم الفساد بالضَّرورة، فإنَّ إثبات ذاتٍ مجرَّدةٍ عن جميع الصِّفات لا يتصوَّر لها وجودٌ في الخارج، وإنَّما الذِّهن قد يفرض المحال ويتخيَّله، وهذا غاية التَّعطيل. وهذا القول قد أفضى بقومٍ إلى القول بالحلول والاتِّحاد، وهو أقبح من كفر النَّصارى، فإنَّ النَّصارى خصُّوه بالمسيح، وهؤلاء عمُّوا جميع المخلوقات.

ومن فروع هذا التَّوحيد[٢]: أنَّ فرعون وقومه كاملو الإيمان، عارفون باللَّه على الحقيقة!

ومن فروعه: أنَّ عبَّاد الأصنام على الحقِّ والصَّواب، وأنَّهم إنَّما عبدوا اللَّه لا غيره!

ومن فروعه: أنَّه لا فرق في التَّحريم والتَّحليل بين الأمِّ والأخت والأجنبيَّة، ولا فرق بين الماء والخمر والزِّنى والنِّكاح، الكلُّ من عينٍ واحدةٍ، لا بل هو العين الواحدة.

---

(١) **صحيح لشواهده:** وهو باللفظ المشار إليه عند أبي داود (٣١١٦) وغيره من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وفي بعض رجال إسناده كلام يسير، لكن للحديث شواهد، منها ما أخرجه مسلم في «صحيحه» (مع النووي ٢/ ٩٤)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، وشواهد أُخر.

(٢) يعني: ومن لوازم هذا الاعتقاد الذي اعتقده الجهم بن صفوان ومن وافقه.

ومن فروعه: أنَّ الأنبياء ضيَّقوا على النَّاس، تعالى اللَّه عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

وأمَّا الثَّاني: وهو توحيد الرُّبوبيَّة، كالإقرار بأنَّه خالق كلِّ شيءٍ، وأنَّه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصِّفات والأفعال، وهذا التَّوحيد حقٌّ لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثيرٍ من أهل النَّظر والكلام وطائفةٍ من الصُّوفيَّة، وهذا التَّوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفةٌ معروفةٌ من بني آدم، بل القلوب مفطورةٌ على الإقرار به أعظم من كونها مفطورةً على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرُّسل عليهم السلام فيما حكى اللَّه عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠].

وأشهر من عُرِفَ تجاهله وتظاهره بإنكار الصَّانع(١): فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن، كما قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٢].

وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: الآية ١٤]. ولهذا لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]؟ على وجه الإنكار له تجاهل العارف - قال له موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٤- ٢٨].

ولم يعرف عن أحدٍ من الطَّوائف أنَّه قال: إنَّ العالم له صانعان متماثلان في الصِّفات والأفعال.

فإنَّ الثَّنويَّة من المجوس، والمانويَّة القائلين بالأصلين النُّور والظُّلمة، وأنَّ العالم صدر عنهما: متَّفقون على أنَّ النُّور خيرٌ من الظُّلمة، وهو الإله المحمود، وأنَّ الظُّلمة شرِّيرةٌ مذمومةٌ، وهم متنازعون في الظُّلمة، هل هي قديمةٌ أو محدثةٌ؟ فلم يثبتوا ربَّين متماثلين.

---

(١) كلمة الصانع هذه تتكرر كثيرًا في حق الله ﷻ، ولم أقف لها على دليل صحيح من الكتاب أو السنة، إلا أن السنة فيها: «**إن الله خلق كل صانع وصنعته**».

وأمَّا النَّصارى القائلون بالتَّثليث، فإنَّهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أربابٍ ينفصل بعضهم عن بعضٍ، بل هم متَّفقون على أنَّ صانع العالم واحدٌ، ويقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إلهٌ واحدٌ.

وقولهم في التَّثليث متناقضٌ في نفسه، وقولهم في الحلول أفسد منه. ولهذا كانوا مضطربين في فهمه، وفي التَّعبير عنه، لا يكاد واحدٌ منهم يعبِّر عنه بمعنًى معقولٍ، ولا يكاد اثنان يتَّفقان على معنًى واحدٍ، فإنَّهم يقولون: هو واحدٌ بالذَّات، ثلاثةٌ بالأقنوم! والأقانيم يفسِّرونها تارةً بالخواصِّ، وتارةً بالصِّفات، وتارةً بالأشخاص. وقد فطر اللَّه العباد على فساد هذه الأقوال بعد التَّصوُّر التَّامِّ. وفي الجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين.

والمقصود هنا: أنَّه ليس في الطَّوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين.

ودليل التَّمانع: أنَّه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما، مثل: أن يريد أحدهما تحريك جسمٍ وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما: إحياءه والآخر: إماتته، فإمَّا أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحدٍ منهما. والأوَّل ممتنعٌ؛ لأنَّه يستلزم الجمع بين الضِّدَّين، والثَّالث ممتنعٌ؛ لأنَّه يلزم خلوُّ الجسم عن الحركة والسُّكون، وهو ممتنعٌ، ويستلزم أيضًا عجز كلٍّ منهما، والعاجز لا يكون إلهًا، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هو الإله القادر، والآخر عاجزًا لا يصلح للإلهيَّة، وتمام الكلام على هذا الأصل معروفٌ في موضعه.

ولم يكن المشركون يعتقدون في الأصنام أنَّها مشاركةٌ للَّه في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والتُّرك والبربر وغيرهم، تارةً يعتقدون أنَّ هذه تماثيل قومٍ صالحين من الأنبياء والصَّالحين، ويتَّخذونهم شفعاء، ويتوسَّلون بهم إلى اللَّه، وهذا كان أصل شرك العرب، قال تعالى حكايةً عن قوم نوحٍ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: الآية ٢٣]. وقد ثبت في «صحيح البخاريِّ»، وكتب التَّفسير، وقصص الأنبياء وغيرها، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، وغيره من السَّلف، أنَّ هذه أسماء قومٍ صالحين في قوم نوحٍ، فلمَّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثمَّ صوَّروا تماثيلهم،

ثمَّ طال عليهم الأمد فعبدوهم، وأنَّ هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب، ذكرها ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما[(١)] قبيلةً قبيلةً.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي الهيَّاج الأسديِّ، قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني رسول اللَّه ﷺ؟ أمرني أن لا أدع قبرًا مشرفًا إلَّا سوَّيته، ولا تمثالًا إلَّا طمسته[(٢)].

وفي «الصحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في مرض موته: **«لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**، يحذِّر ما فعلوا، قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتَّخذ مسجدًا[(٣)].

وفي «الصحيحين» أنَّه ذُكر لَهُ في مرض موته كنيسةٌ بأرض الحبشة، وذكر له من حسنها وتصاوير فيها، فقال: **«إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[(٤)].

وفي «صحيح مسلم» عنه ﷺ أنَّه قال قبل أن يموت بخمسٍ: **«إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»**[(٥)].

ومن أسباب الشِّرك: عبادة الكواكب، واتِّخاذ الأصنام بحسب ما يظنُّ أنَّه مناسبٌ للكواكب من طباعها.

وشرك قوم إبراهيم عليه السلام كان - فيما يقال - من هذا الباب، وكذلك الشِّرك بالملائكة والجنِّ، واتِّخاذ الأصنام لهم.

---

(١) أخرجه البخاري(رقم ٤٩٢٠) وهو من المنتقد على البخاري، انظر: مقدمة «الفتح» (ص٣٧٤).

(٢) **صحيح**:أخرجه مسلم (حديث ٩٦٩) وفي رواية أخري لمسلم أيضًا: «ولا صورة إلا طمستها».

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١٣٣٠)، ومسلم (حديث ٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٥) أخرجه مسلم (حديث ٥٣٢) من حديث جُنْدَب قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوت بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: **«إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»**.

وهؤلاء كانوا مقرِّين بالصَّانع[1]، وأنَّه ليس للعالم صانعان، ولكن اتَّخذوا هذه الوسائط شفعاء، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَر: الآية ٣]. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُونس: الآية ١٨].

وكذلك كان حال الأمم السَّالفة المشركين الَّذين كذَّبوا الرُّسل، كما حكى اللَّه تعالى في قصَّة صالح عليه السلام عن التِّسعة الرَّهط الَّذين تقاسموا باللَّه، أي: تحالفوا باللَّه، لنبيِّتنَّه وأهله، فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا باللَّه على قتل نبيِّهم وأهله، وهذا يبيِّن أنَّهم كانوا مؤمنين باللَّه إيمان المشركين.

فعُلِمَ أنَّ التَّوحيد المطلوب: هو توحيد الإلهيَّة، الَّذي يتضمَّن توحيد الرُّبوبيَّة. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٠- ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠].

وقال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[2] ولا يقال: إنَّ معناه يولد ساذجًا لا يعرف توحيدًا ولا شركًا، كما قال بعضهم؛ لما تَلَوْنَا، ولقوله ﷺ فيما يروي عن ربِّه ﷻ: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ...**»[3] الحديث.

وفي الحديث المتقدِّم ما يدلُّ على ذلك، حيث قال: «**يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**» ولم يقل: ويسلمانه. وفي روايةٍ: «**يُولَدُ عَلَى الْمِلَّةِ**» وفي أخرى: «**عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ**»[4].

---

(١) الأَوْلَى اتقاء هذا اللفظ فيما يُعبر به عن الله ﷻ.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (١٣٥٩) في عدة مواضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٦٥٨).

(٣) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٨٦٥) من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ مرفوعًا.

(٤) في لفظ لمسلم (ص٢٠٤٨): «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ**»، وفي آخر عند مسلم أيضًا (٢٠٤٨): «**إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ**».

وهذا الَّذي أخبر به ﷺ هو الَّذي تشهد الأدلَّة العقليَّة بصدقه، فلو أقرَّ رجلٌ بتوحيد الرُّبوبيَّة، الَّذي يقرُّ به هؤلاء النُّظَّار، ويفنى فيه كثيرٌ من أهل التَّصوُّف، ويجعلونه غاية السَّالكين، كما ذكره صاحب «منازل السَّائرين» وغيره، وهو مع ذلك إن لم يعبد اللَّه وحده ويتبرَّأ من عبادة ما سواه كان مشركًا من جنس أمثاله من المشركين.

والقرآن مملوءٌ من تقرير هذا التَّوحيد وبيانه وضرب الأمثال له.

ومن ذلك: أنَّه يقرِّر توحيد الرُّبوبيَّة، ويبيِّن أنَّه لا خالق إلَّا اللَّه، وأنَّ ذلك مستلزمٌ أن لا يعبد إلَّا اللَّه، فيجعل الأوَّل دليلًا على الثَّاني؛ إذ كانوا يسلِّمون في الأوَّل، وينازعون في الثَّاني، فيبيِّن لهم سبحانه أنَّكم إذا كنتم تعلمون أنَّه لا خالق إلَّا اللَّه وحده، وأنَّه هو الَّذي يأتي العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرُّهم، لا شريك له في ذلك، فلم تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهةً أخرى؟! كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠] الآيات.

يقول اللَّه تعالى في آخر كلِّ آيةٍ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: الآية ٦٠] أي: أإلهٌ مع اللَّه فعل هذا؟! وهذا استفهام إنكارٍ، يتضمَّن نفي ذلك، وهم كانوا مقرِّين بأنَّه لم يفعل ذلك غير اللَّه، فاحتجَّ عليهم بذلك، وليس المعنى استفهامُ: هل مع اللَّه إلهٌ؟ كما ظنَّه بعضهم؛ لأنَّ هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام، والقوم كانوا يجعلون مع اللَّه آلهةً أخرى، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: الآية ١٩]، وكانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: الآية ٥]، لكنَّهم ما كانوا يقولون: إنَّ معه إلهًا[1]. ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: الآية ٦١]، بل هم مقرُّون بأنَّ اللَّه وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: الآية ٢١]

(١) يبدو أن الصواب خالقًا، أي: لكنهم ما كانوا يقولون: إن معه خالقًا.

وكذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: الآية ٤٦]. وأمثال ذلك.

ولمَّا كان هذا الشِّرك في الرُّبوبيَّة موجودًا في بعض النَّاس، بيَّن القرآن بطلانه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٩١].

فتأمَّل هذا البرهان الباهر، بهذا اللَّفظ الوجيز الظَّاهر، فإنَّ الإله الحقَّ لا بدَّ أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عابده النَّفع ويدفع عنه الضُّرَّ، فلو كان معه سبحانه إلهٌ آخر يشركه في ملكه، لكان له خلقٌ وفعلٌ، وحينئذٍ فلا يرضى تلك الشَّركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشَّريك وتفرُّده بالملك والإلهيَّة دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدُّنيا بعضهم عن بعضٍ بملكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلوِّ عليه، فلا بدَّ من أحد ثلاثة أمورٍ:

إمَّا أن يذهب كلُّ إلهٍ بخلقه وسلطانه.

وإمَّا أن يعلو بعضهم على بعضٍ.

وإمَّا أن يكونوا تحت قهر ملكٍ واحدٍ يتصرَّف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرَّفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كلِّ وجهٍ.

وانتظام أمر العالم كلِّه وإحكام أمره، من أدلِّ دليلٍ على أنَّ مدبِّره إلهٌ واحدٌ، وملكٌ واحدٌ، وربٌّ واحدٌ، لا إله للخلق غيره، ولا ربَّ لهم سواه، كما قد دلَّ دليل التَّمانع على أنَّ خالق العالم واحدٌ، لا ربَّ غيره فلا إله سواه، فذلك تمانعٌ في الفعل والإيجاد، وهذا تمانعٌ في العبادة والإلهيَّة، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربَّان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان.

فالعلم بأنَّ وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنعٌ لذاته، مستقرٌّ في الفطر معلومٌ بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهيَّة اثنين، فالآية الكريمة موافقةٌ لما ثبت واستقرَّ في الفِطَرِ من توحيد الرُّبوبيَّة، دالَّةٌ مثبتةٌ ملزمةٌ لتوحيد الإلهيَّة.

وقريبٌ من معنى هذه الآية، قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وقد ظنَّ طوائف أنَّ هذا دليل التَّمانع الَّذي تقدَّم ذكره، وهو أنَّه لو كان للعالم صانعان . . . إلخ، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنَّه سبحانه أخبر أنَّه لو كان فيهما آلهةٌ غيره، ولم يقل: أربابٌ.

وأيضًا: فإنَّ هذا إنَّما هو بعد وجودهما، وأنَّه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهةٌ سواه لفسدتا.

وأيضًا، فإنَّه قال: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢]، وهذا فسادٌ بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا، ودلَّت الآية على أنَّه لا يجوز أن يكون فيهما آلهةٌ متعدِّدةٌ، بل لا يكون الإله إلَّا واحدًا، وعلى أنَّه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلَّا اللَّه ﷻ، وأنَّ فساد السَّموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعدِّدةً، ومن كون الإله الواحد غير اللَّه، وأنَّه لا صلاح لهما إلَّا بأن يكون الإله فيهما هو اللَّه وحده لا غيره، فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كلُّه، فإنَّ قيامه إنَّما هو بالعدل، وبه قامت السَّموات والأرض، وأظلم الظُّلم على الإطلاق الشِّرك، وأعدل العدل التَّوحيد.

وتوحيد الإلهيَّة متضمِّنٌ لتوحيد الرُّبوبيَّة دون العكس؛ فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزًا، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهًا.

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩١]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وكذا قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٤٢].

وفيها للمتأخِّرين، قولان:

أحدهما: لاتَّخذوا سبيلًا إلى مغالبته.

والثَّاني: وهو الصَّحيح المنقول عن السَّلف، كقتادة وغيره، وهو الَّذي ذكره ابن جريرٍ ولم يذكر غيره: لاتَّخذوا سبيلًا بالتَّقرُّب إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: الآية ١٩]، وذلك أنَّه قال: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: الآية ٤٢].

وهم لم يقولوا: إنَّ العالم له صانعان، بل جعلوا معه آلهةً اتَّخذوهم شفعاء،

وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] بخلاف الآية الأولى.

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان:

توحيدٌ في الإثبات والمعرفة.

وتوحيدٌ في الطَّلب والقصد.

فالأوَّل: هو إثبات حقيقة ذات الرَّبِّ تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيءٌ في ذلك كلِّه، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ، وقد أفصح القرآن عن هذا النَّوع كلَّ الإفصاح، كما في أوَّل «الحديد» و«طه» وآخر «الحشر» وأوَّل ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ «السَّجْدة» وأوَّل «آل عمران» وسورة «الإخلاص» بكمالها، وغير ذلك.

والثَّاني: وهو توحيد الطَّلب والقصد، مثل ما تضمَّنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافِرون: الآية ١]، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٤]، وأوَّل سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأوَّل سورة يونس وأوسطها وآخرها، وأوَّل سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة «الأنعام».

وغالب سور القرآن متضمِّنةٌ لنوعي التَّوحيد، بل كلُّ سورةٍ في القرآن، فإنَّ القرآن:

إمَّا خبرٌ عن اللَّه وأسمائه وصفاته، وهو التَّوحيد العلميُّ الخبريُّ.

وإمَّا دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التَّوحيد الإراديُّ الطَّلبيُّ.

وإمَّا أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعته، فذلك من حقوق التَّوحيد ومكمِّلاته.

وإمَّا خبرٌ عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدُّنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

وإمَّا خبرٌ عن أهل الشِّرك، وما فعل بهم في الدُّنيا من النَّكال، وما فعل بهم في العقبى من العذاب؛ فهو جزاء من خرج عن حكم التَّوحيد.

فالقرآن كلُّه في التَّوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشِّرك وأهله وجزائهم.

فـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ توحيدٌ، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيدٌ، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ توحيد، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ توحيدٌ متضمِّنٌ لسؤال الهداية إلى طريق أهل التَّوحيد، الذين أنعم عليهم ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الَّذين فارقوا التَّوحيد.

وكذلك شهد اللَّه لنفسه بهذا التَّوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩]. فتضمَّنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التَّوحيد، والرَّدَّ على جميع طوائف الضَّلال، فتضمَّنت أجلَّ شهادةٍ وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلِّ شاهدٍ، بأجلِّ مشهودٍ به.

وعبارات السَّلف في ﴿شَهِدَ﴾ تدور على الحكم، والقضاء، والإعلام، والبيان، والإخبار، وهذه الأقوال كلُّها حقٌّ لا تنافي بينها؛ فإنَّ الشَّهادة تتضمَّن كلام الشَّاهد وخبره، وتتضمَّن إعلامه وإخباره وبيانه.

فلها أربع مراتب:

فأوَّل مراتبها: علمٌ ومعرفةٌ واعتقادٌ لصحَّة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلُّمه بذلك، وإن لم يُعْلِمْ به غيره، بل يتكلَّم بها مع نفسه ويتذكَّرها وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بها بما يشهد به ويخبره به ويبيِّنه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة اللَّه سبحانه لنفسه بالوحدانيَّة والقيام بالقسط تضمَّنت هذه المراتب الأربع: علمه بذلك سبحانه، وتكلُّمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

فأمَّا مرتبة العلم: فإنَّ الشَّهادة تضمنتها ضرورة، وإلَّا كان الشَّاهد شاهدًا بما لا علم له به. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٨٦].

وأمَّا مرتبة التَّكلُّم والخبر: فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: الآية ١٩]. فجعل ذلك منهم

شهادةً، وإن لم يتلفَّظوا بلفظ الشَّهادة، ولم يؤدُّوها عند غيرهم.

وأمَّا مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان:

إعلامٌ بالقول.

وإعلامٌ بالفعل.

وهذا شأن كلِّ مُعْلِمٍ لغيره بأمرٍ. تارةً يعلمه به بقولٍ، وتارةً بفعل، ولهذا كان من جعل داره مسجدًا وفتح بابها، وأبرزها بطريقها وأذن للنَّاس بالدُّخول والصَّلاة فيها: معلمًا أنَّها وقفٌ، وإن لم يتلفَّظ به.

وكذلك من وجد متقرِّبًا إلى غيره بأنواع المسارِّ، يكون معلمًا له ولغيره أنَّه يحبُّه، وإن لم يتلفَّظ بقوله، وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرَّبِّ ﷻ وبيانه وإعلامه، يكون بقوله تارةً، وبفعله أخرى. فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه.

وأمَّا بيانه وإعلامه بفعله: فكما قال ابن كيسان: شهد اللَّه بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنَّه لا إله إلَّا هو. وقال آخر:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحد

وممَّا يدلُّ على أنَّ الشَّهادة تكون بالفعل، قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: الآية ١٧] فهذه شهادةٌ منهم على أنفسهم بما يفعلونه.

والمقصود: أنَّه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالَّةً عليه، ودلالتها إنَّما هي بخلقه وجَعْلِهِ.

وأمَّا مرتبة الأمر بذلك والإلزام به، وأنَّ مجرَّد الشَّهادة لا يستلزمه، لكنَّ الشَّهادة في هذا الموضع تدلُّ عليه وتتضمَّنه، فإنَّه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر وألزم عباده به، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]، وقال اللَّه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: الآية ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: الآية ٥]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: الآية ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾

[الإسراء: الآية ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: الآية ٨٨]، والقرآن كلُّه شاهدٌ بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنَّه إذا شهد أنَّه لا إله إلَّا هو، فقد أخبر وبيَّن وأعلم وحكم وقضى أنَّ ما سواه ليس بإلهٍ، وأنَّ إلهيَّة ما سواه باطلةٌ، فلا يستحقُّ العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهيَّة لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتِّخاذه وحده إلهًا، والنَّهي عن اتِّخاذ غيره معه إلهًا. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النَّفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلًا يستفتي رجلًا أو يستشهده أو يستطبُّه وهو ليس أهلًا لذلك، ويدع مَنْ هو أهلٌ له، فتقول: هذا ليس بمفتٍ ولا شاهدٍ ولا طبيبٍ، المفتي فلانٌ، والشَّاهد فلانٌ، والطَّبيب فلانٌ، فإنَّ هذا أمرٌ منه ونهيٌ.

وأيضًا: فالآية دلَّت على أنَّه وحده المستحقُّ للعبادة، فإذا أخبر أنَّه هو وحده المستحقُّ للعبادة، تضمَّن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقُّه الرَّبُّ تعالى عليهم، وأنَّ القيام بذلك هو خالص حقِّه عليهم.

وأيضًا: فلفظ «الحكم» و«القضاء» يستعمل في الجملة الخبريَّة، ويقال للجملة الخبريَّة: قضيَّةٌ، وحكمٌ، وقد حكم فيها بكذا. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤]. فجعل هذا الإخبار المجرَّد منهم حكمًا. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. لكنَّ هذا حكمٌ لا إلزام معه.

والحكم والقضاء بأنَّه لا إله إلَّا هو متضمِّنٌ للإلزام.

ولو كان المراد مجرَّد شهادةٍ لم يتمكَّنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تَقُمْ عليهم بها الحجَّة، بل قد تضمَّنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أنَّ الشَّاهد من العباد إذا كانت عنده شهادةٌ ولم يبيِّنها بل كتمها، لم ينتفع بها أحدٌ، ولم تقم بها حجَّةٌ.

وإذا كان لا ينتفع بها إلَّا ببيانها، فهو سبحانه قد بيَّنها غاية البيان بطرقٍ ثلاثةٍ: السَّمع، والبصر، والعقل.

أمَّا السَّمع: فبسمع آياته المتلوَّة المبيِّنة لما عرَّفنا إيَّاه من صفات كماله كلِّها، الوحدانيَّة وغيرها، غاية البيان، لا كما يزعمه الجهميَّة ومن وافقهم من المعتزلة ومعطِّلة بعض الصِّفات من دعوى احتمالاتٍ تُوقِعُ في الحيرة، تنافي البيان الَّذي وصف اللَّه به كتابه العزيز ورسوله الكريم، كما قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١، ٢]، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: الآية ١]، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: الآية ١]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: الآية ١٣٨]، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: الآية ٩٢]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٤].

وكذلك السُّنَّة تأتي مبيِّنةً ومقرِّرةً لما دلَّ عليه القرآن، لم يحوجنا ربُّنا ﷻ إلى رأي فلانٍ، ولا إلى ذوق فلانٍ، وَوَجْدِهِ في أصول ديننا.

ولهذا تجد من خالف الكتاب والسُّنَّة مختلفين مضطربين، بل قد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣]. فلا يحتاج في تكميله إلى أمرٍ خارجٍ عن الكتاب والسُّنَّة.

وإلى هذا المعنى أشار الشَّيخ أبو جعفرٍ الطَّحاويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يأتي من كلامه بقوله: «لا ندخل في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهِّمين بأهوائنا، فإنَّه ما سلم في دينه إلَّا من سلَّم للَّه ﷻ، ولرسوله ﷺ».

وأمَّا آياته العيانيَّة الخلقيَّة: فالنَّظر فيها والاستدلال بها يدلُّ على ما تدلُّ عليه آياته القوليَّة والسَّمعيَّة، والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحَّة ما جاءت به الرُّسل، فتتَّفق شهادة السَّمع والبصر والعقل والفطرة.

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبَّته للعذر، وإقامة الحجَّة لم يبعث نبيًّا إلَّا ومعه آيةٌ تدلُّ على صدقه فيما أخبر به. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: الآية ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝١٨٤﴾ [آل عمران: الآية ١٨٤]،

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: الآية ١٧]، حتَّى إنَّ من أخفى آيات الرُّسل آيات هودٍ، حتَّى قال له قومه: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: الآية ٥٣]، ومع هذا فبيِّنته من أوضح البيِّنات لمن وفَّقه اللَّه لتدبُّرها، وقد أشار إليها بقوله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

فهذا من أعظم الآيات: أنَّ رجلًا واحدًا يخاطب أُمَّةً عظيمةً بهذا الخطاب، غير جزعٍ ولا فزعٍ ولا خوَّارٍ، بل هو واثقٌ بما قاله، جازمٌ به، فأشهد اللَّه أوَّلًا على براءته من دينهم وما هم عليه، إشهاد واثقٍ به معتمدٍ عليه، معلمٍ لقومه أنَّه وليُّه وناصره وغير مسلِّطٍ لهم عليه، ثمَّ أشهدهم إشهاد مجاهرٍ لهم بالمخالفة أنَّه بريءٌ من دينهم وآلهتهم الَّتي يوالون عليها ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتهم لها، ثمَّ أكَّد ذلك عليهم بالاستهانة لهم واحتقارهم وازدرائهم ولو يجتمعون كلُّهم على كيده وشفاء غيظهم منه، ثمَّ يعاجلونه ولا يمهلونه، ثمَّ قرَّر دعوتهم أحسن تقريرٍ، وبيَّن أنَّ ربَّه تعالى وربَّهم الَّذي نواصيهم بيده هو وليُّه ووكيله القائم بنصره وتأييده، وأنَّه على صراطٍ مستقيمٍ، فلا يخذل من توكَّل عليه وأقرَّ به، ولا يُشْمِتُ به أعداءه.

فأيُّ آيةٍ وبرهانٍ أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلَّتهم؟ وهي شهادةٌ من اللَّه سبحانه بيَّنها لعباده غاية البيان.

ومن أسمائه تعالى «المؤمن» وهو في أحد التَّفسيرين: المصدِّق الَّذي يصدِّق الصَّادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فإنَّه لا بدَّ أن يُرِيَ العباد من الآيات الأفقيَّة والنَّفسيَّة ما يبيِّن لهم أنَّ الوحي الَّذي بلَّغه رُسُله حقٌّ. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: الآية ٥٣]، أي: القرآن، فإنَّه المتقدِّم في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [فصلت: الآية ٥٢]، ثمَّ قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: الآية ٥٣].

فشهد سبحانه لرسوله بقوله: إنَّ ما جاء به حقٌّ، ووعد أنَّه يري العباد من آياته الفعليَّة الخلقيَّة ما يشهد بذلك أيضًا، ثمَّ ذكر ما هو أعظم من ذلك كلِّه وأجلُّ،

وهو شهادته سبحانه بأنَّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، فإنَّ من أسمائه: «الشَّهيد» الَّذي لا يغيب عنه شيءٌ، ولا يعزب عنه، بل هو مطَّلعٌ على كلِّ شيءٍ مشاهدٌ له، عليمٌ بتفاصيله.

وهذا استدلالٌ بأسمائه وصفاته، والأوَّل استدلالٌ بقوله وكلماته، واستدلاله بالآيات الأفقيَّة والنَّفسيَّة، استدلالٌ بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: كيف يستدلُّ بأسمائه وصفاته، فإنَّ الاستدلال بذلك لا يعهد في الاصطلاح؟

فالجواب: أنَّ اللَّه تعالى قد أودع في الفطرة الَّتي لم تتنجَّس بالجحود والتَّعطيل، ولا بالتَّشبيه والتَّمثيل، أنَّه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنَّه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم ممَّا عرفوه منه.

ومن كماله المقدَّس شهادته على كلِّ شيءٍ واطِّلاعه عليه بحيث لا يغيب عنه ذرَّةٌ في السَّموات ولا في الأرض باطنًا وظاهرًا، ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا غيره، ويجعلوا معه إلهًا آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقرَّ من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثمَّ ينصره على ذلك ويؤيِّده ويعلي شأنه، ويجيب دعوته ويهلك عدوَّه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذبٌ عليه مفترٍ؟!

ومعلومٌ أنَّ شهادته سبحانه على كلِّ شيءٍ وقدرته وحكمته وعزَّته وكماله المقدَّس يأبى ذلك، ومن جوَّز ذلك فهو من أبعد النَّاس عن معرفته.

والقرآن مملوءٌ من هذه الطَّريق، وهي طريق الخواصِّ، يستدلُّون باللَّه على أفعاله وما يليق به أن يفعله ولا يفعله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وسيأتي لذلك زيادة بيانٍ إن شاء اللَّه تعالى.

ويستدلُّ أيضًا بأسمائه وصفاته على وحدانيَّته وعلى بطلان الشِّرك، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: الآية ٢٣]. وأضعاف

ذلك في القرآن.

وهذه الطَّريق قليلٌ سالكها، لا يهتدي إليها إلَّا الخواصُّ. وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات المشاهدة؛ لأنَّها أسهل تناولًا وأوسع. واللَّه سبحانه يفضِّل بعض خلقه على بعضٍ.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنَّه الدَّليل والمدلول عليه، والشَّاهد والمشهود لَهُ. قال تعالى لمن طلب آيةً تدلُّ على صدق رسوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٥١].

وإذا عُرِفَ أنَّ توحيد الإلهيَّة هو التَّوحيد الَّذي أُرسلت به الرُّسل وأُنزلت به الكتب، كما تقدَّمت إليه الإشارة، فلا يلتفت إلى قول من قسَّم التَّوحيد إلى ثلاثة أنواعٍ، وجعل هذا النَّوع: توحيد العامَّة، والنَّوع الثَّاني: توحيد الخاصَّة، وهو الَّذي يثبت بالحقائق، والنَّوع الثَّالث: توحيدًا قائمًا بالقدم، وهو توحيد خاصَّة الخاصَّة!

فإنَّ أكمل النَّاس توحيدًا الأنبياء - صلوات اللَّه عليهم - والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرُّسل أكملهم توحيدًا، وهم: نوحٌ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمَّدٌ، صلَّى اللَّه عليهم أجمعين.

وأكملهم توحيدًا الخليلان: محمَّدٌ وإبراهيم - صلوات اللَّه عليهما وسلامه - فإنَّهما قاما من التَّوحيد بما لم يقم به غيرهما علمًا، ومعرفةً، وحالًا، ودعوةً للخلق وجهادًا، فلا توحيد أكمل من الَّذي قامت به الرُّسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه؛ ولهذا أمر سبحانه نبيَّه أن يقتدي بهم فيه، كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة إبراهيم قومه في بطلان الشِّرك، وصحَّة التَّوحيد وذكر الأنبياء من ذرِّيَّته: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠].

فلا أكمل من توحيد من أُمر رسولُ اللَّه ﷺ أن يقتدي بهم.

وكان ﷺ يعلِّم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ**

الْمُشْرِكِينَ»[(١)].

فملَّة إبراهيم: التَّوحيد، ودين محمَّدٍ ﷺ، ما جاء به من عند اللَّه قولًا وعملًا واعتقادًا. وكلمة الإخلاص: هي شهادة «أن لا إله إلَّا اللَّه»، وفطرة الإسلام: هي ما فطر عليه عباده من محبَّته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له عبوديَّةً وذلًّا وانقيادًا وإنابةً.

فهذا توحيد خاصَّة الخاصَّة، الَّذي من رغب عنه فهو من أسفه السُّفهاء. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

وكلُّ من له حسٌّ سليمٌ وعقلٌ يميِّز به، لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتَّة، بل ربَّما يقع بسببها في شكوكٍ وشُبَهٍ يحصل له بها الحيرة والضَّلال والرِّيبة، فإنَّ التَّوحيد إنَّما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك، وهذا هو القلب السَّليم الَّذي لا يفلح إلَّا مَنْ أتى اللَّه به.

فأين قال الرَّسول: هذا توحيد العامَّة، وهذا توحيد الخاصَّة، وهذا توحيد خاصَّة الخاصَّة؟ أو ما يقرب من هذا المعنى؟ أو أشار إليه هذه النُّقول والعقول حاضرةٌ.

فهذا كلام اللَّه المنزَّل على رسوله ﷺ، وهذه سنَّة الرَّسول، وهذا كلام خير القرون بعد الرَّسول، وسادات العارفين من الأئمَّة، هل جاء ذكر الفناء فيها، وهذا التَّقسيم عن أحدٍ منهم؟ وإنَّما حصل هذا من زيادة الغلوِّ في الدِّين، المشبه لغلوِّ الخوارج، بل لغلوِّ النَّصارى في دينهم، وقد ذمَّ اللَّه تعالى الغلوَّ في الدِّين ونهى عنه، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/٤٠٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (حديث رقم١)، وغيرهما من حديث عبد الرحمن بن أبزى، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال... فذكره، لكن ليس فيه أنه يعلِّم أصحابه. **أما رواية**: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا إذا أصبحنا...» فهي ضعيفة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ»

الشرح

اتَّفق أهل السُّنَّة على أنَّ اللَّه ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولكنَّ لفظ «التَّشبيه» قد صار في كلام النَّاس لفظًا مجملًا يراد به المعنى الصَّحيح، وهو ما نفاه القرآن ودلَّ عليه العقل، من أنَّ خصائص الرَّبِّ تعالى لا يوصف بها شيءٌ من المخلوقات، ولا يماثله شيءٌ من المخلوقات في شيءٍ من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ردٌّ على الممثِّلة المشبِّهة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ردٌّ على النُّفاة المعطِّلة. فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق، فهو المشبِّه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق، فهو نظير النَّصارى في كفرهم.

واللَّه سمَّى نفسه بأسماء، وسمَّى بعض عباده بها، وكذلك سمَّى صفاته بأسماء، وسمَّى ببعضها صفات خلقه، وليس المسمَّى كالمسمَّى، فسمَّى نفسه: حيًّا، عليمًا، قديرًا، رؤوفًا، رحيمًا، عزيزًا، حكيمًا، سميعًا، بصيرًا، ملكًا، مؤمنًا، جبَّارًا، متكبِّرًا. وقد سمَّى بعض عباده بهذه الأسماء، فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٥]، ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: الآية ١٠١]، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: الآية ٢٨]، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨]، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: الآية ٢]، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: الآية ٥١]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: الآية ٧٩]، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ [السجدة: الآية ١٨]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: الآية ٣٥]. ومعلومٌ أنَّه لا يماثل الحيُّ الحيَّ، ولا العليم العليم، ولا العزيز العزيز، وكذلك سائر الأسماء. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]، ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٦٦]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: الآية ١١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٨]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: الآية ١٥].

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ يعلِّمنا الاستخارة في الأمور كلِّها، كما يعلِّمنا السُّورة من القرآن، يقول: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ**

الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: **عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي** - أَوْ قَالَ: **عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ**». قَالَ: «**وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ**»، رواه البخاريُّ[(١)].

وفي حديث عمَّار بن ياسر الَّذي رواه النَّسائيُّ[(٢)] وغيره، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**».

فقد سمَّى اللَّه ورسوله صفات اللَّه علمًا وقدرةً وقوَّةً.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ [الروم: الآية ٥٤]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ [يوسف: الآية ٦٨]، ومعلومٌ أنَّه ليس العلم كالعلم، ولا القوَّة كالقوَّة، ونظائر هذا كثيرةٌ، وهذا لازمٌ لجميع العقلاء.

فإنَّ من نفى صفةً من صفاته الَّتي وصف اللَّه بها نفسه، كالرِّضا والغضب، والحبِّ والبغض، ونحو ذلك، وزعم أنَّ ذلك يستلزم التَّشبيه والتَّجسيم! قيل له: فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسَّمع والبصر، مع أنَّ ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما نفيته وأثبته اللَّه ورسوله مثل قولك فيما أثبتَّه؛ إذ لا فرق بينهما.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١١٦٢)، وفي غير موضع.

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي (٣/ ٥٤، ٥٥)، وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٤) وغيرهما. وعندهما: «**...أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي...**».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ»

الشرح

لكمال قدرته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: الآية ٤٥]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: الآية ٤٤]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: لا يُكرثه ولا يُثقله ولا يُعجزه، فهذا النَّفي لثبوت كمال ضدِّه، وكذلك كلُّ نفيٍ يأتي في صفات اللَّه تعالى في الكتاب والسُّنَّة إنَّما هو لثبوت كمال ضدِّه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩]، لكمال عدله، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: الآية ٣] لكمال علمه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: الآية ٣٨] لكمال قدرته، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] لكمال حياته وقيُّوميَّته، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]، لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلَّا فالنَّفي الصِّرف لا مدح فيه.

والتَّعبير عن الحقِّ بالألفاظ الشَّرعيَّة النَّبويَّة الإلهيَّة هو سبيل أهل السُّنَّة والجماعة. والمعطِّلة يعرضون عمَّا قاله الشَّارع من الأسماء والصِّفات، ولا يتدبَّرون معانيها، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الَّذي يجب اعتقاده واعتماده.

وأمَّا أهل الحقِّ والسُّنَّة والإيمان: فيجعلون ما قاله اللَّه ورسوله هو الحقَّ الَّذي يجب اعتقاده واعتماده. والَّذي قاله هؤلاء إمَّا أن يعرضوا عنه إعراضًا جمليًّا، أو يبيِّنوا حاله تفصيلًا، ويحكم عليه بالكتاب والسُّنَّة، لا يحكم به على الكتاب والسُّنَّة.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ»

الشرح

هذه كلمة التَّوحيد الَّتي دعت إليها الرُّسل كلُّهم، كما تقدَّم ذكره. وإثبات التَّوحيد بهذه الكلمة باعتبار النَّفي والإثبات المقتضي للحصر، فإنَّ الإثبات المجرَّد قد يتطرَّق إليه الاحتمال. ولهذا - واللَّه أعلم - لمَّا قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: الآية ١٦٣]، قال بعده: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: الآية ١٦٣]. فإنَّه قد يخطر ببال أحدٍ خاطرٌ شيطانيٌّ: هب أنَّ إلهنا واحدٌ، فلغيرنا إلهٌ غيره، فقال تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٣].

متن الطحاوية

قوله: «قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ»

الشرح

قال اللَّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

وقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ**»(١).

فقول الشَّيخ: قديمٌ بلا ابتداءٍ(٢)، دائمٌ بلا انتهاءٍ، هو معنى اسمه الأوَّل والآخر.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم مع النووي (١٧/ ٣٥) من طريق سُهَيْل، قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا، إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ...» فذكر الحديث وفيه: «اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ...» الحديث، قال: وكان يروي ذلك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

(٢) لقد قال الشارح منذ قليل: والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة، فليته سلك هذا المسلك، فالتعبير عن الله ﷻ بلفظ القديم لا أعلم له أصلًا في الكتاب والسنة والوارد فيما علمت: (وسلطانه القديم)، أما التعبير عن الله بالقديم، فكما ذكرت لا أعلم له أصلًا، وكان الأَوْلى أن يقول: «هو الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء»، وسيشير الشارح قريبًا إلى مزيد.

وقد أدخل المتكلِّمون في أسماء اللَّه تعالى «القديم»، وليس هو من أسماء الله تعالى الحسنى، فإنَّ القديم في لغة العرب الَّتي نزل بها القرآن: هو المتقدِّم على غيره، فيقال: هذا قديمٌ، للعتيق، وهذا حديثٌ، للجديد. ولم يستعمل هذا الاسم إلَّا في المتقدِّم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدمٌ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٩]. والعرجون القديم: الَّذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثَّاني، فإذا وجد الحديث قيل للأوَّل: قديمٌ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: الآية ١١]، أي: متقدِّمٌ في الزَّمان. وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦]، فالأقدم مبالغةٌ في القديم، ومنه: القول القديم والجديد للشَّافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: الآية ٩٨]؛ أي: يتقدَّمهم، ويستعمل منه الفعل لازمًا ومتعدِّيًا، كما يقال: أخذني ما قَدُمَ وما حَدُثَ، ويقال: هذا قَدَّمَ هذا وهو يَقْدُمُهُ. ومنه سمِّيت القدم قدمًا؛ لأنَّها تقدم بقيَّة بدن الإنسان. وأمَّا إدخال «القديم» في أسماء اللَّه تعالى، فهو مشهورٌ عند أكثر أهل الكلام. وقد أنكر ذلك كثيرٌ من السَّلف والخلف، منهم ابن حزمٍ.

ولا ريب أنَّه إذا كان مستعملًا في نفس التَّقدُّم، فإنَّ ما تَقدَّم على الحوادث كلِّها فهو أحقُّ بالتَّقدُّم من غيره، لكنَّ أسماء اللَّه تعالى هي الأسماء الحسنى الَّتي تدلُّ على خصوص ما يمدح به، والتَّقدُّم في اللُّغة مطلقٌ لا يختصُّ بالتَّقدُّم على الحوادث كلِّها، فلا يكون من الأسماء الحسنى.

وجاء الشَّرع باسمه «الأوَّل»، وهو أحسن من «القديم»؛ لأنَّه يشعر بأنَّ ما بعده آيلٌ إليه وتابعٌ له، بخلاف القديم، واللَّه تعالى له الأسماء الحسنى، لا الحسنة.

متن الطحاوية

قوله: «لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ»

الشرح

إقرارٌ بدوام بقائه سُبْحَانَهُ، قال عزَّ من قائلٍ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

والفناء والبَيْدُ متقاربان في المعنى، والجمع بينهما في الذِّكر للتَّأكيد، وهو أيضًا مقرِّرٌ ومؤكِّدٌ لقوله: «دائمٌ بلا انتهاءٍ»(١).

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ»

الشرح

هذا ردٌّ لقول القدريَّة والمعتزلة، فإنَّهم زعموا أنَّ اللَّه أراد الإيمان من النَّاس كلِّهم والكافر أراد الكفر. وقولهم فاسدٌ مردودٌ، لمخالفته الكتاب والسُّنَّة والمعقول الصَّحيح، وهي مسألة القدر المشهورة، وسيأتي لها زيادة بيانٍ إن شاء اللَّه تعالى.

وسمُّوا «قدريَّةً»: لإنكارهم القدر، وكذلك تسمَّى الجبريَّة المحتجُّون بالقدر قدريَّةً أيضًا. والتَّسمية على الطَّائفة الأولى أغلب.

وأمَّا أهل السُّنَّة فيقولون: إنَّ اللَّه وإن كان يريد المعاصي قدرًا، فهو لا يحبُّها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها. وهذا قول السَّلف قاطبةً، فيقولون: «ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن»؛ ولهذا اتَّفق الفقهاء على أنَّ الحالف لو قال: واللَّه لأفعلنَّ كذا إن شاء اللَّه لم يحنث إذا لم يفعله وإن كان واجبًا أو مستحبًّا، ولو قال: إن أحبَّ اللَّه حنث إذا كان واجبًا أو مستحبًّا.

والمحقِّقون من أهل السُّنَّة يقولون: الإرادة في كتاب اللَّه نوعان:

إرادةٌ قدريَّةٌ كونيَّةٌ خلقيَّةٌ.

وإرادةٌ دينيَّةٌ أمريَّةٌ شرعيَّةٌ.

فالإرادة الشَّرعيَّة: هي المتضمِّنة للمحبَّة والرِّضا.

والكونيَّة: هي المشيئة الشَّاملة لجميع الحوادث.

---

(١) ليته استبدل كلمة دائم بقوله: الآخر فليس بعده شيء.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥].

وقوله تعالى عن نوحٍ عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هود: الآية ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣].

وأمَّا الإرادة الدِّينيَّة الشَّرعيَّة الأمريَّة: فكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: الآية ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: الآية ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: الآية ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣].

فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول النَّاس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده اللَّه، أي: لا يحبُّه ولا يرضاه ولا يأمر به.

وأمَّا الإرادة الكونيَّة فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: «ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن».

والفرق ثابتٌ بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غيره أن يفعل. فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلًا فهذه الإرادة معلَّقةٌ بفعله، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلًا فهذه الإرادة لفعل الغير. وكلا النَّوعين معقولٌ للنَّاس، والأمر يستلزم الإرادة الثَّانية دون الأولى، فاللَّه تعالى إذا أمر العباد بأمرٍ فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك، وإن كان مريدًا منه فعله.

وتحقيق هذا ممَّا يبيِّن فصل النِّزاع في أمر اللَّه تعالى: هل هو مستلزمٌ لإرادته أم لا؟ فهو سبحانه أمر الخلق على ألسن رسله بما ينفعهم ونهاهم عمَّا يضرُّهم، ولكنَّ منهم من أراد أن يخلق فعله، فأراد سبحانه أن يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلًا له. ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله.

والمقصود: أنَّه يمكن في حقِّ المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمرٍ ولا يعينه عليه،

فالخالق أَوْلَى بإمكان ذلك في حقِّه مع حكمته، فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلَّق به خلقه وأمره إنشاءً وخلقًا ومحبَّةً، فكان مرادًا بجهة الخلق ومرادًا بجهة الأمر. ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلَّق به أمره ولم يتعلَّق به خلقه، لعدم الحكمة المقتضية لتعلُّق الخلق به، ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضدِّه. وخلق أحد الضِّدَّين ينافي خلق الضِّدِّ الآخر، فإنَّ خلق المرض الَّذي يحصل به ذُلُّ العبد لربِّه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرقُّ به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة والعدوان يضادُّ خلق الصِّحَّة الَّتي لا تحصل معها هذه المصالح. ولذلك خلق ظلم الظَّالم الَّذي يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض يضادُّ خلق عدله الَّذي لا يحصل به هذه المصالح، وإن كانت مصلحته هو في أن يعدل.

وتفصيل حكمة اللَّه في خلقه وأمره، تعجز عن معرفتها عقول البشر.

والقدريَّة دخلوا في التَّعطيل على طريقةٍ فاسدةٍ: مثَّلوا اللَّه فيها بخلقه، ولم يثبتوا حكمةً تعود إليه.

متن الطحاوية

قوله: «لَا تَبْلُغُهُ الأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ»

الشرح

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠]. قال في «الصِّحاح»: توهَّمت الشَّيء: ظننته، وفهمت الشَّيء: علمته. فمراد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه لا ينتهي إليه وهمٌ، ولا يحيط به علمٌ. قيل: الوهم ما يرجى كونه، أي: يظنُّ أنَّه على صيغة كذا، والفهم: هو ما يحصِّله العقل ويحيط به. واللَّه تعالى لا يعلم كيف هو سبحانه إلَّا هو ﷻ، وإنَّما نعرفه سبحانه بصفاته، وهو أنَّه أحدٌ، صمدٌ، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: الآيتان ٢٣، ٢٤].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا يُشْبِهُ الأَنَامَ»

الشرح

هذا ردٌّ لقول المشبِّهة، الَّذين يشبِّهون الخالق ﷻ بالمخلوق، قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]. وليس المراد نفي الصِّفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفقه الأكبر»: لا يشبه شيئًا من خلقه. ثمَّ قال بعد ذلك: وصفاته كلُّها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا. انتهى.

وقال نعيم بن حمَّادٍ: من شبَّه اللَّه بشيءٍ من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف اللَّه به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف اللَّه به نفسه ولا رسوله تشبيهٌ.

وقال إسحاق بن راهويه: من وصف اللَّه بشيء فشبَّه صفاته بصفات أحدٍ من خلق اللَّه فهو كافرٌ باللَّه العظيم، وقال: علامة جهم وأصحابه دعواهم على أهل السُّنَّة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنَّهم مشبِّهةٌ، بل هم المعطِّلة.

وكذلك قال خلقٌ كثيرٌ من أئمَّة السَّلف: علامة الجهميَّة تسميتهم أهل السُّنَّة مشبِّهةً، فإنَّه ما من أحدٍ من نفاة شيءٍ من الأسماء والصِّفات إلَّا يسمِّي المثبت لها مشبِّهًا، فمن أنكر أسماء اللَّه بالكلِّيَّة من غالية الزَّنادقة، القرامطة والفلاسفة، وقال: إنَّ اللَّه لا يقال له: عالمٌ ولا قادرٌ: يزعم أنَّ من سمَّاه بذلك فهو مشبِّهٌ؛ لأنَّ الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه، ومن أثبت الاسم وقال: هو مجازٌ، كغالية الجهميَّة، يزعم أنَّ من قال: إنَّ اللَّه عالمٌ حقيقةً؛ قادرٌ حقيقةً: فهو مشبِّهٌ، ومن أنكر الصِّفات وقال: إنَّ اللَّه ليس له علمٌ ولا قدرةٌ ولا كلامٌ ولا محبَّةٌ ولا إرادةٌ قال لمن أثبت الصِّفات: إنَّه مشبِّهٌ، وإنَّه مجسِّمٌ. ولهذا كتب نفاة الصِّفات، من الجهميَّة والمعتزلة والرَّافضة ونحوهم، كلُّها مشحونةٌ بتسمية مثبتي الصِّفات مشبِّهةً ومجسِّمةً، ويقولون في كتبهم: إنَّ من جملة المجسِّمة قومًا يقال لهم: المالكيَّة، ينسبون إلى رجلٍ يقال له: مالك بن أنسٍ، وقومًا يقال لهم: الشَّافعيَّة، ينسبون إلى رجلٍ يقال له: محمَّد بن إدريس!! حتَّى الَّذين يفسِّرون

القرآن منهم، كعبد الجبَّار، والزَّمخشريِّ، وغيرهما، يسمُّون كلَّ من أثبت شيئًا من الصِّفات وقال بالرُّؤية مشبِّهًا. وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخِّرين من غالب الطَّوائف.

ولكنَّ المشهور من استعمال هذا اللَّفظ عند علماء السُّنَّة المشهورين: أنَّهم لا يريدون بنفي التَّشبيه نفي الصِّفات، ولا يصفون به كلَّ من أثبت الصِّفات، بل مرادهم أنَّه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله، كما تقدَّم من كلام أبي حنيفة: أنَّه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]، فنفى المثل وأثبت الوصف.

وسيأتي في كلام الشَّيخ إثبات الصِّفات، تنبيهًا على أنَّه ليس نفي التَّشبيه مستلزمًا لنفي الصِّفات.

ونفي مشابهة شيءٍ من مخلوقاته له، مستلزمٌ لنفي مشابهته لشيءٍ من مخلوقاته، فلذلك اكتفى الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «ولا يشبه الأنام»، والأنام: النَّاس، وقيل: الخلق كلهم، وقيل: كلُّ ذي روحٍ، وقيل: الثَّقلان. وظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: الآية ١٠] يشهد للأوَّل أكثر من الباقي. والله أعلم.

متن الطحاوية

قوله: «حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ»

الشرح

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]. فنفي السِّنة والنَّوم دليلٌ على كمال حياته وقيُّوميَّته، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: الآية ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: الآية ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: الآية ٦٥]. وقال ﷺ: **«إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام...»**(١). الحديث.

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث رقم ١٧٩).

لمَّا نفى الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التَّشبيه أشار إلى ما تقع به التَّفرقة بينه وبين خلقه، بما يتَّصف به تعالى دون خلقه، فمن ذلك: أنَّه حيٌّ لا يموت؛ لأنَّ صفة الحياة الباقية مختصَّةٌ به تعالى دون خلقه، فإنَّهم يموتون.

ومنه: أنَّه قيُّومٌ لا ينام؛ إذ هو مختصٌّ بعدم النَّوم والسِّنة دون خلقه، فإنَّهم ينامون، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ نفي التَّشبيه ليس المراد منه نفي الصِّفات، بل هو سبحانه موصوفٌ بصفات الكمال، لكمال ذاته.

فالحيُّ بحياةٍ باقيةٍ لا يشبه الحيَّ بحياةٍ زائلةٍ، ولهذا كانت الحياة الدُّنيا متاعًا ولهوًا ولعبًا ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٤]. فالحياة الدُّنيا كالمنام، والحياة الآخرة كاليقظة، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة كاملةٌ، وهي للمخلوق: لأنَّا نقول: الحيُّ الَّذي الحياة من صفات ذاته اللَّازمة لها، هو الَّذي وهب المخلوق تلك الحياة الدَّائمة، فهي دائمةٌ بإدامة اللَّه لها، لا أنَّ الدَّوام وصفٌ لازمٌ لها لذاتها، بخلاف حياة الرَّبِّ تعالى، وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

واعلم أنَّ هذين الاسمين، أعني: «الحيَّ القيُّوم» مذكوران في القرآن معًا في ثلاث سورٍ كما تقدَّم، وهما من أعظم أسماء اللَّه الحسنى، حتَّى قيل: إنَّهما الاسم الأعظم، فإنَّهما يتضمَّنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمُّنٍ وأصدقه، ويدلُّ القيُّوم على معنى الأزليَّة والأبديَّة ما لا يدلُّ عليه لفظ «القديم».

واقترانه بالحيِّ يستلزم سائر صفات الكمال، ويدلُّ على بقائها ودوامها، وانتفاء النَّقص والعدم عنها أزلًا وأبدًا. ولهذا كان قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]، أعظم آيةٍ في القرآن، كما ثبت ذلك في الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ(١).

فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلِّها، وإليهما ترجع معانيها، فإنَّ الحياة مستلزمةٌ لجميع صفات الكمال، ولا يتخلَّف عنها صفةٌ منها إلَّا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياةٍ وأتمَّها، استلزم إثباتها إثبات كلِّ كمالٍ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في «صحيحه» (ترتيب محمد فؤاد حديث ٨١٠) من حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»** قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **«يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»** قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: **«وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»**.

يضادُّ نفيه كمال الحياة. وأمَّا «القيُّوم» فهو متضمِّنٌ كمال غناه وكمال قدرته، فإنَّه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجهٍ من الوجوه، المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلَّا بإقامته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتمَّ انتظامٍ.

متن الطحاوية

قوله: «خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بِلَا مُؤْنَةٍ»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: الآية ١٥]. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: الآية ٣٨]. ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤].

وقال ﷺ من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه: **«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِن مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»** الحديث رواه مسلمٌ(١).

وقوله: «**بلا مؤنةٍ**»: بلا ثقلٍ ولا كُلْفةٍ.

متن الطحاوية

قوله: «مُمِيتٌ بِلَا مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ»

الشرح

الموت صفةٌ وجوديَّةٌ، خلافًا للفلاسفة ومن وافقهم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢]. والعدم لا يوصف بكونه مخلوقًا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٥٧٧).

وفي الحديث أنَّه: «يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبشٍ أملح، فيذبح بين الجنَّة والنَّار»(١). وهو وإن كان عرضًا فاللَّه تعالى يقلبه عينًا، كما ورد في العمل الصَّالح أنَّه يأتي صاحبه في صورة الشَّابِّ الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورةٍ(٢)، وورد في الأعمال: أنَّها توضع في الميزان(٣)، والأعيان هي الَّتي تقبل الوزن دون الأعراض. وورد في سورة «البقرة» و«آل عمران»: أنَّهما يوم القيامة يظلَّان صاحبهما كأنَّهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طيرٍ صوافٍّ(٤).

وفي «الصَّحيح»: أنَّ أعمال العباد تصعد إلى السَّماء(٥)، وسيأتي الكلام على البعث والنُّشور، إن شاء اللَّه تعالى.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) **هذا المعنى صحيح:** وقد أخرجه أحمد بسند صحيح في «المسند» (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥، ٢٩٦) من حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: **«اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»** (مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا) ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ... فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ...»** الحديث وفيه: **«وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ** (قلت: أي في قبره) **فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ...»** الحديث وَذكرَ الْعَبْدَ الْكَافِرَ فَقَالَ: «... **وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ...»**.

(٣) **معنى صحيح:** ومن ذلك ما أخرجه البخاري (مع الفتح١٣/ ٥٣٧)، ومسلم (مع النووي ١٧/ ١٩) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»**.

وعند مسلم أيضًا (مع النووي ٣/ ٩٩) من حديث مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»**.

(٤) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٨٠٤)، من حديث أَبِي أُمَامَةَ ﷺ مرفوعًا: **«اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»**. قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ.

(٥) قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: الآية ١٠]، وأخرجه البخاري (حديث ٧٩٩) من حديث رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ، قَالَ: كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: **«سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»** قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ: **«مَنِ المُتَكَلِّمُ؟»** قَالَ: أَنَا، قَالَ: **«رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ»**، وعند النسائي (٥/ ١٤٥) في هذا الحديث: **«لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكًا أيهم يصعد بها»**.

متن الطحاوية

قوله: «مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ، لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَتِهِ، وَكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيًّا كَذَلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِيًّا»

الشرح

أي: أنَّ اللَّه ﷻ لم يزل متَّصفًا بصفات الكمال: صفات الذَّات، وصفات الفعل.

ولا يجوز أن يُعْتَقَد أنَّ اللَّه وصف بصفةٍ بعد أن لم يكن متَّصفًا بها؛ لأنَّ صفاته سبحانه صفات كمالٍ، وفقدها صفة نقصٍ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متَّصفًا بضدِّه. ولا يرد على هذا صفات الفعل والصِّفات الاختياريَّة ونحوها، كالخلق والتَّصوير، والإحياء والإماتة، والقبض والبسط والطَّيِّ، والاستواء والإتيان والمجيء والنُّزول، والغضب والرِّضا، ونحو ذلك ممَّا وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنَّا لا ندرك كُنْهَهُ وحقيقته الَّتي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهِّمين بأهوائنا، ولكنَّ أصل معناه معلومٌ لنا، كما قال الإمام مالكٌ ؓ لمَّا سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ. وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقتٍ دون وقتٍ، كما في حديث الشَّفاعة: «**إنَّ ربِّي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»(١).

لأنَّ هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنعٍ، ولا يطلق عليه أنَّه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أنَّ من تكلَّم اليوم وكان متكلِّمًا بالأمس لا يقال: إنَّه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلِّمٍ لآفةٍ كالصِّغر والخرس، ثمَّ تكلَّم يقال: حدث له الكلام.

فالسَّاكت لغير آفةٍ يسمَّى متكلِّمًا بالقوَّة، بمعنى أنَّه يتكلَّم إذا شاء، وفي حال تكلُّمه يسمَّى متكلِّمًا بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتبٌ بالفعل،

---

(١) حديث الشفاعة الطويل ورد فيه هذا عن النبي ﷺ عند البخاري (حديث ٤٧١٢)، ومسلم (حديث ١٩٤).

ولا يخرج عن كونه كاتبًا في حال عدم مباشرته للكتابة.

والشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أشار بقوله: **«ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه»** إلى آخر كلامه إلى الرَّدِّ على المعتزلة والجهميَّة ومن وافقهم من الشِّيعة؛ فإنَّهم قالوا: إنَّ الله تعالى صار قادرًا على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادرًا عليه، لكونه صار الفعل والكلام ممكنًا بعد أن كان ممتنعًا، وأنَّه انقلب من الامتناع الذَّاتيِّ إلى الإمكان الذَّاتيِّ.

قلت (الشَّارح): وأنَّ الَّذي دلَّ عليه الشَّرع والعقل أنَّ كلَّ ما سوى اللَّه تعالى محدثٌ كائنٌ بعد أن لم يكن.

أمَّا كَوْنُ الرَّبِّ تعالى لم يزل معطَّلًا عن الفعل ثمَّ فعل، فليس في الشَّرع ولا في العقل ما يثبته، بل كلاهما يدلُّ على نقيضه.

متن الطحاوية

قوله: «لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الْخَلْقِ اسْتَفَادَ اسْمَ «الْخَالِقِ»، وَلَا بِإِحْدَاثِ الْبَرِيَّةِ اسْتَفَادَ اسْمَ «الْبَارِي»

الشرح

قلت (مصطفى): أطال الشارح في هذا المقام بما لا يتعلق كثيرًا بالمتن مع وضوح المتن، فالمتن مفاده أن الله عَزَّ وَجَلَّ اسمه الخالق قبل أن يخلق، واسمه البارئ قبل أن يبرئ. والله أعلم.

متن الطحاوية

قوله: «لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ، وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ»

الشرح

يعني أنَّ اللَّه تعالى موصوفٌ بأنَّه «الرَّبُّ» قبل أن يوجد مربوبٌ، وموصوفٌ بأنَّه «خالقٌ» قبل أن يوجد مخلوقٌ.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَمَا أَحْيَا اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الْخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ»

الشرح

يعني أنَّه ﷻ موصوفٌ بأنَّه «محيي الموتى» قبل إحيائهم، فكذلك يوصف بأنَّه «خالقٌ» قبل خلقهم.

متن الطحاوية

قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]

الشرح

ذلك إشارةٌ إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه. والكلام على (كلّ) وشمولها وشمول «كلّ» في كلِّ مقامٍ بحسب ما يحتفُّ به من القرائن، يأتي في مسألة الكلام إن شاء اللَّه تعالى.

وقد حرَّفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٤].

فقالوا: إنَّه قادرٌ على كلِّ ما هو مقدورٌ له، وأمَّا نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم! وتنازعوا: هل يقدر على مثلها أم لا؟! ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال: هو عالمٌ بكلِّ ما يعلمه! وخالقٌ لكلِّ ما يخلقه!

ونحو ذلك من العبارات الَّتي لا فائدة فيها. فسلبوا صفة كمال قدرته على كلِّ شيءٍ.

وأمَّا أهل السُّنَّة: فعندهم أنَّ اللَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وكلُّ ممكنٍ فهو مندرجٌ في هذا. وأمَّا المحال لذاته، مثل كون الشَّيء الواحد موجودًا معدومًا في حالٍ

واحدةٍ، فهذا لا حقيقة له، ولا يتصوَّر وجوده، ولا يسمَّى شيئًا، باتِّفاق العقلاء. ومن هذا الباب: خلق مثل نفسه، وإعدام نفسه! وأمثال ذلك من المحال.

وهذا الأصل هو: الإيمان بربوبيَّته العامَّة التَّامَّة، فإنَّه لا يؤمن بأنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ إلَّا من آمن أنَّه قادرٌ على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيَّته وكمالها إلَّا من آمن بأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ردٌّ على المشبِّهة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ردٌّ على المعطِّلة، فهو ﷻ موصوفٌ بصفات الكمال، وليس له فيها شبيهٌ. فالمخلوق وإن كان يوصف بأنَّه سميعٌ بصيرٌ فليس سمعه وبصره كسمع الرَّبِّ وبصره، ولا يلزم من إثبات الصِّفة تشبيهٌ، إذ صفات المخلوق كما يليق به، وصفات الخالق كما يليق به.

ولا تَنْفِ عن اللَّه ما وصف به نفسه، وما وصفه به أعرف الخلق بربِّه، وما يجب له وما يمتنع عليه، وأنصحهم لأمَّته، وأفصحهم وأقدرهم على البيان. فإنَّك إن نفيت شيئًا من ذلك كنت كافرًا بما أنزل على محمَّدٍ ﷺ.

وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبِّهه بخلقه، فليس كمثله شيءٌ، فإذا شبَّهته بخلقه كنت كافرًا به. قال نعيم بن حمَّادٍ الخزاعيُّ شيخ البخاريِّ: من شبَّه اللَّه بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف اللَّه به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف اللَّه به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهًا.

متن الطحاوية

قوله: «خَلَقَ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ»

الشرح

خلق: أي: أوجد وأنشأ وأبدع. ويأتي خلق أيضًا بمعنى: قدَّر. والخلق: مصدرٌ، وهو هنا بمعنى المخلوق. وقوله: (بعلمه) في محلِّ نصبٍ على الحال، أي: خلقهم عالمًا بهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: الآية ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى

كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٥٩، ٦٠]. وفي ذلك ردٌّ على المعتزلة.

متن الطحاوية

قوله: «وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَارًا»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: الآية ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«قدَّر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنةٍ، وكان عرشه على الماء»**(١).

متن الطحاوية

قوله: «وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالًا»

الشرح

يعني أنَّ اللَّه تعالى قدَّر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون. قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: الآية ١٤٥].

وفي «صحيح مسلمٍ» عن عبد الله بن مسعودٍ قال: قالت أمُّ حبيبة زوج النَّبيِّ ﷺ ورضي الله عنها: اللَّهمَّ أمتعني بزوجي رسول اللَّه، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النَّبيُّ ﷺ: **«قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ»**(٢).

---

(١) صحيح: وقد تقدم الكلام عليه ولفظه عند مسلم: «كتب...».

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٢٦٦٣).

فالمقتول ميِّتٌ بأجله، فعلم اللَّه تعالى وقدَّر وقضى أنَّ هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بسبب الحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب. واللَّه سبحانه خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة.

وعند المعتزلة: المقتول مقطوعٌ عليه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله فكأنَّ له أجلان وهذا باطلٌ؛ لأنَّه لا يليق أن ينسب إلى اللَّه تعالى أنَّه جعل له أجلًا يعلم أنَّه لا يعيش إليه البتَّة، أو يجعل أجله أحد الأمرين، كفعل الجاهل بالعواقب، ووجوب القصاص والضَّمان على القاتل، لارتكابه المنهيَّ عنه ومباشرته السَّبب المحظور. وعلى هذا يخرج قوله ﷺ: «**صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ**»[1] أي: سبب طول العمر. وقد قدَّر اللَّه أنَّ هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السَّبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السَّبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدَّر هذا السَّبب وقضاه، وكذلك قدَّر أنَّ هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما قلنا في القتل وعدمه.

فإن قيل: هل يلزم من تأثير صلة الرَّحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدُّعاء في ذلك أم لا؟

فالجواب: أنَّ ذلك غير لازم؛ لقوله ﷺ لأمِّ حبيبة رضي الله عنها: «**قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ...**» الحديث كما تقدَّم.

فعلم أنَّ الأعمار مقدَّرةٌ، لم يشرع الدُّعاء بتغييرها[2]، بخلاف النَّجاة من عذاب

---

(١) **صحيح**: أخرج أحمد بإسناد صحيح عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «**إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ**».

وقد ذكر بعض العلماء له علةً وهي أنه روي مرةً من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم عن عائشة، ومرة من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن عائشة مباشرة (بدون ذكر القاسم)، لكن على كلٍّ فللحديث شواهد. وعند البخاري في «صحيحه» (٥٩٨٥)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» وللحديث شواهد أُخر.

(٢) قد ورد الدعاء بطول العمر كما في قول سعد بن أبي وقاص لرجل افترى عليه: اللهم أطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن.

الآخرة. فإنَّ الدُّعاء مشروعٌ له نافعٌ فيه، ألا ترى أنَّ الدُّعاء بتغيير العمر لمَّا تضمَّن النَّفع الأخرويَّ شرع كما في الدُّعاء الَّذي رواه النَّسائيُّ من حديث عمَّار بن ياسر عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي...»**(١)، إلى آخر الدُّعاء.

ويؤيِّد هذا ما رواه الحاكم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ: **«لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»**(٢).

وفي الحديث ردٌّ على من يظنُّ أنَّ النَّذر سببٌ في دفع البلاء وحصول النَّعماء، وقد ثبت في «الصحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: **«إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»**(٣).

واعلم أنَّ الدُّعاء يكون مشروعا نافعًا في بعض الأشياء دون بعضٍ، وكذلك هو. ولهذا لا يُحِبُّ اللَّه المعتدين في الدُّعاء. وكان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يُدْعَى له بطول العمر، ويقول: هذا أمرٌ قد فرغ منه.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فَاطِر: الآية ١١]، فقد قيل في الضَّمير المذكور في قوله تعالى: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فَاطِر: الآية ١١] أنَّه

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

(٢) **إسناده حسن لغيره**: وهو عند الحاكم (١/ ٤٩٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، وأخرجه أيضًا أحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠ - ٢٨٢)، وابن ماجه (حديث ٩٠) وغيرهم. وللحديث شاهد عند الترمذي (٢١٣٩)، دون قوله: **«وإن الرجل ليحرم الرزق...»** لكن في إسناده أبو مودود، واسمه فضة، ولم يوثقه معتبر.
أما قوله: **«وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»** فهذا المعنى له شواهد متعددة من كتاب الله ﷻ، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ٩٦].
أما قوله: لا يزيد في العمر إلا البر، فالبر يزيد في العمر على هذا الحديث، ولكن قد تقدم أيضًا أن صلة الرحم وحُسْنَ الجوار يزيدان في الأعمار... والله أعلم.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٦٩٢) و(٦٩٩٣) وفي غير موضع، ومسلم (حديث ١٦٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ وعن غير واحدٍ من الصحابة مرفوعًا.

بمنزلة قولهم: عندي درهمٌ ونصفه، أي: ونصف درهمٍ آخر، فيكون المعنى: ولا ينقص من عمر معمَّرٍ آخر.

وقيل: الزِّيادة والنُّقصان في الصُّحف الَّتي في أيدي الملائكة، وحمل قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٨، ٣٩]، على أنَّ المحو والإثبات من الصُّحف الَّتي في أيدي الملائكة، وأنَّ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: الآية ٣٩]. اللَّوح المحفوظ. ويدلُّ على هذا الوجه سياق الآية، وهو قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: الآية ٣٨]، ثمَّ قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: الآية ٣٩]، أي: من ذلك الكتاب، ﴿وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: الآية ٣٩]، أي: أصله، وهو اللَّوح المحفوظ.

وقيل: يمحو اللَّه ما يشاء من الشَّرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسِّياق أدلُّ على هذا الوجه من الوجه الأوَّل، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: الآية ٣٨]. فأخبر تعالى أنَّ الرَّسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه، بل من عند اللَّه، ثمَّ قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٨، ٣٩]، أي: إنَّ الشَّرائع لها أجلٌ وغايةٌ تنتهي إليها، ثمَّ تنسخ بالشَّريعة الأخرى، فينسخ اللَّه ما يشاء من الشَّرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء. وفي الآية أقوالٌ أخرى، واللَّه أعلم بالصَّواب.

متن الطحاوية

قوله: «وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ
قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ»

الشرح

فإنَّه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨] وإن كان يعلم أنَّهم لا يردُّون، ولكن أخبر أنَّهم لو ردُّوا لعادوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٣] وفي ذلك ردٌّ على الرَّافضة والقدريَّة الَّذين قالوا: إنَّه لا يعلم الشَّيء قبل أن يخلقه ويوجده. وهي من فروع

مسألة القدر، وسيأتي لها زيادة بيانٍ، إن شاء اللَّه تعالى.

متن الطحاوية

قوله: «وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ»

الشرح

ذكر الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الأمر والنَّهي، بعد ذكره الخلق والقدر، إشارةً إلى أنَّ اللَّه تعالى خلق الخلق لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢].

متن الطحاوية

قوله: «وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: الآية ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١١١] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: الآية ٩٩] وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥] وقال تعالى حكايةً عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: الآية ٣٤] وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩] إلى غير ذلك من الأدلَّة على أنَّه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن. وكيف يكون في ملكه ما لا يشاء! ومن أضلُّ سبيلًا وأكفر ممَّن يزعم أنَّ اللَّه شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة اللَّه!! تعالى اللَّه عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨]، الآية. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: الآية ٣٥]، الآية. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فقد ذمَّهم اللَّه تعالى حيث جعلوا الشِّرك كائنًا منهم بمشيئة اللَّه، وكذلك ذمَّ إبليس حيث أضاف الإغواء إلى اللَّه تعالى، إذ قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٣٩].

قيل: قد أجيب على هذا بأجوبةٍ، من أحسنها:

أنَّه أنكر عليهم ذلك؛ لأنَّهم احتجُّوا بمشيئته على رضاه ومحبَّته، وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فردَّ اللَّه عليهم ذلك.

أو أنَّه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به.

أو أنَّه أنكر عليهم معارضة شرعه وأمره الَّذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامَّة دافعةً للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التَّوحيد، وإنَّما ذكروها معارضين بها لأمره، دافعين بها لشرعه، كفعل الزَّنادقة والجهَّال إذا أُمِرُوا أو نُهُوا احتجُّوا بالقدر. وقد احتجَّ سارقٌ على عمر رضي الله عنه بالقدر، فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء اللَّه وقدره. يشهد لذلك قوله تعالى في الآية: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] فعلم أنَّ مرادهم التَّكذيب، فهو من قبل الفعل، من أين له أنَّ اللَّه لم يقدِّره؟ أطَّلع الغيب؟!

فإن قيل: فما تقولون في احتجاج آدم على موسى عليه السلام بالقدر، إذ قال له: أتلومني على أمرٍ قد كتبه اللَّه عليَّ قبل أن أخلق بأربعين عامًا؟ وشهد النَّبيُّ ﷺ أنَّ آدم حجَّ موسى، أي: غلبه بالحجَّة(١).

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٤٠٩) وفي غير موطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٦٥٢)، وفي لفظ لمسلم (ص٢٠٤٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى** عليهما السلام عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: =

قيل: نتلقَّاه بالقبول والسَّمع والطَّاعة، لصحَّته عن رسول اللَّه ﷺ، ولا نتلقَّاه بالرَّدِّ والتَّكذيب لراويه، كما فعلت القدريَّة، ولا بالتَّأويلات الباردة. بل الصَّحيح أنَّ آدم لم يحتجَّ بالقضاء والقدر على الذَّنب، وهو كان أعلم بربِّه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتجُّ بالقدر، فإنَّه باطلٌ. وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم عليه السلام على ذنبٍ قد تاب منه وتاب اللَّه عليه واجتباه وهداه، وإنَّما وقع اللَّوم على المصيبة الَّتي أخرجت أولاده من الجنَّة، فاحتجَّ آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإنَّ القدر يحتجُّ به عند المصائب، لا عند المعائب.

وهذا المعنى أحسن ما قيل في الحديث. فما قدِّر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنَّه من تمام الرِّضا باللَّه ربًّا، وأمَّا الذُّنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب. فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: الآية ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: الآية ١٢٠].

وأمَّا قول إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: الآية ٣٩]، إنَّما ذُمَّ على احتجاجه بالقدر، لا على اعترافه بالمقدَّر وإثباته له. ألم تسمع قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: الآية ٣٤].

متن الطحاوية

قوله: «يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلًا، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي عَدْلًا»

الشرح

هذا ردٌّ على المعتزلة في قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على اللَّه، وهي مسألة الهدى والضَّلال.

قالت المعتزلة: الهدى من اللَّه: بيان طريق الصَّواب، والإضلال: تسمية العبد ضالًّا، أو حكمه تعالى على العبد بالضَّلال عند خلق العبد الضَّلال في نفسه.

= ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: الآية ١٢١]، **قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟»** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»**.

وهذا مبنيٌّ على أصلهم الفاسد: أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لهم[١]. والدَّليل على ما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: الآية ٥٦] ولو كان الهدى بيان الطَّريق - لما صحَّ هذا النَّفي عن نبيِّه، لأنَّه ﷺ بيَّن الطَّريق لمن أحبَّ وأبغض. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدة: الآية ١٣] ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدَّثر: الآية ٣١] ولو كان الهدى من اللَّه البيان، وهو عامٌّ في كلِّ نفسٍ لما صحَّ التَّقييد بالمشيئة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصَّافات: الآية ٥٧] وقوله: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩].

متن الطحاوية

قوله: «وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ»

الشرح

فإنَّهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: الآية ٢] فمن هداه إلى الإيمان فبفضله، وله الحمد، ومن أضلَّه فبعدله، وله الحمد. وسيأتي لهذا المعنى زيادة إيضاحٍ، إن شاء اللَّه تعالى، فإنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يجمع الكلام في القدر في مكانٍ واحدٍ، بل فرَّقه، فأتيت به على ترتيبه.

متن الطحاوية

قوله: «وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الأَضْدَادِ وَالأَنْدَادِ»

الشرح

الضِّدُّ: المخالف، **والنِّدُّ**: المثل. فهو سبحانه لا معارض له، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا مثل له، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ٤] ويشير الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بنفي الضِّدِّ والنِّدِّ إلى الرَّدِّ على المعتزلة في زعمهم أنَّ العبد يخلق فعله.

---

(١) يَعْنُون أنهم يخلقون أفعال أنفسهم.

متن الطحاوية

قوله: «لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ»

الشرح

أي: لا يردُّ قضاء اللَّه رادٌّ، ولا يعقِّب، أي لا يؤخِّر حكمه مؤخِّرٌ، ولا يغلب أمره غالبٌ، بل هو اللَّه الواحد القهَّار.

متن الطحاوية

قوله: «آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَيْقَنَّا أَنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِهِ»

الشرح

أمَّا الإيمان فسيأتي الكلام عليه إن شاء اللَّه تعالى. والإيقان: الاستقرار، من يقن الماء في الحوض إذا استقرَّ. والتَّنوين في (كلًّا) بدل الإضافة، أي: كلُّ كائنٍ محدثٍ من عند اللَّه، أي: بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وتكوينه. وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه، إن شاء اللَّه تعالى.

متن الطحاوية

قوله: «وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى»

الشرح

الاصطفاء والاجتباء والارتضاء: متقارب المعنى. واعلم أنَّ كمال المخلوق في تحقيق عبوديَّته للَّه تعالى. وكلَّما ازداد العبد تحقيقًا للعبوديَّة ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهَّم أنَّ المخلوق يخرج عن العبوديَّة بوجهٍ من الوجوه، وأنَّ الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلِّهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٦] إلى غير ذلك من الآيات. وذكر اللَّه نبيَّه ﷺ باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ١] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: الآية ١٩] وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: الآية ١٠] وقال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: الآية ٢٣] وبذلك استحقَّ التَّقديم على النَّاس في الدُّنيا والآخرة. ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة، إذا طلبوا منه الشَّفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام: «اذهبوا إلى محمَّدٍ، عبدٌ غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»[1]. فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديَّته للَّه تعالى.

وقوله: «وإنَّ محمَّدًا» بكسر الهمزة، عطفًا على قوله: **«إنَّ اللَّه واحدٌ لا شريك له»**. لأنَّ الكلَّ معمول القول، أعني: قوله (نقول في توحيد اللَّه).

والطَّريقة المشهورة عند أهل الكلام والنَّظر تقرير نبوَّة الأنبياء بالمعجزات، لكن كثيرٌ منهم لا يعرف نبوَّة الأنبياء إلَّا بالمعجزات، وقد روي ذلك بطرقٍ مضطربةٍ، والتزم كثيرٌ منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء، حتَّى أنكروا كرامات الأولياء والسِّحر، ونحو ذلك.

ولا ريب أنَّ المعجزات دليلٌ صحيحٌ، لكنَّ الدَّليل غير محصورٍ في المعجزات، فإنَّ النُّبوَّة إنَّما يدَّعيها أصدق الصَّادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلَّا على أجهل الجاهلين. بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرِّف بهما، والتَّمييز بين الصَّادق والكاذب له طرقٌ كثيرةٌ فيما دون دعوى النُّبوَّة، فكيف بدعوى النُّبوَّة؟ وما أحسن ما قال حسَّان رضي الله عنه:

لو لم يكن فيه آياتٌ مبيِّنةٌ ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحدٍ ادَّعى النُّبوَّة من الكذَّابين إلَّا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشَّياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييزٍ. فإنَّ الرَّسول لا بدَّ أن يخبر النَّاس بأمورٍ ويأمرهم بأمورٍ، ولا بدَّ أن يفعل أمورًا يبيِّن بها صدقه. والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوهٍ كثيرةٍ. والصَّادق ضدُّه. بل كلُّ شخصين ادَّعيا أمرًا: أحدهما صادقٌ والآخر كاذبٌ لا بدَّ أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدَّةٍ، إذ الصِّدق مستلزمٌ للبرِّ، والكذب مستلزمٌ للفجور، كما في «الصحيحين»[2] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«عليكم**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في حديث الشفاعة الطويل (٤٤٧٦) وفي غير موضع من الصحيح، ومسلم (حديث ١٩٣).

(٢) **صحيح**: وهو بهذا اللفظ عند مسلم (حديث ٢٦٠٧ ص٢٠١٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا، =

بالصِّدق، فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدق ويتحرَّى الصِّدق، حتَّى يكتب عند الله صدِّيقًا، وإيَّاكم والكذب فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار، وما يزال الرَّجل يكذب ويتحرَّى الكذب، حتَّى يكتب عند الله كذَّابًا. ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٦].

فالكهَّان ونحوهم، وإن كانوا أحيانًا يخبرون بشيءٍ من الغيبيَّات ويكون صدقًا، فمعهم من الكذب والفجور ما يبيِّن أنَّ الَّذي يخبرون به ليس عن مَلَك، وليسوا بأنبياء ولهذا لمَّا قال النَّبيُّ ﷺ لابن صيَّادٍ: «**قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا**»، فقال: هو الدُّخُّ قال له النَّبيُّ ﷺ: «**اخسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**»(١) يعني: إنَّما أنت كاهنٌ. وقد قال للنَّبيِّ ﷺ: يأتيني صادقٌ وكاذبٌ. وقال: أرى عرشًا على الماء، وذلك هو عرش الشَّيطان وبيَّن أنَّ الشُّعراء يتَّبعهم الغاوون، والغاوي: الَّذي يتَّبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضرًّا له في العاقبة.

فمن عرف الرَّسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم علمًا يقينًا أنَّه ليس بشاعرٍ ولا كاهنٍ.

والنَّاس يميِّزون بين الصَّادق والكاذب بأنواعٍ من الأدلَّة، حتَّى في المدَّعي للصِّناعات والمقالات؛ كمن يدَّعي الفلاحة والنِّساجة والكتابة، أو علم النَّحو والطِّبِّ والفقه وغير ذلك.

والنُّبوَّة مشتملةٌ على علومٍ وأعمالٍ لا بدَّ أن يتَّصف الرَّسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال. فكيف يشتبه الصَّادق فيها بالكاذب؟ ولا ريب أنَّ المحقِّقين على أنَّ خبر الواحد والاثنين والثَّلاثة: قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضَّروريُّ، كما يعرف الرَّجل رضا الرَّجل وحبَّه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك ممَّا في نفسه، بأمورٍ تظهر على وجهه، قد لا يمكن التَّعبير

= وله لفظ مختصر عند البخاري (حديث ٦٠٩٤)، ومسلم (ص٢٠١٢).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (ص٢٢٤٠، ٢٢٤١) من حديث عبد الله، وهو ابن مسعود ﷺ. وله رواية عند البخاري (حديث ٣٠٥٥)، وعند مسلم (حديث ٢٩٣٠) من حديث ابن عمر ﷺ.

عنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمّد: الآية ٣٠] ثمَّ قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمّد: الآية ٣٠]. وقد قيل: ما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلَّا أظهرها اللَّه على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن، فكيف بدعوى المدَّعي أنَّه رسول اللَّه، كيف يخفى صدق هذا من كذبه؟ وكيف لا يتميَّز الصَّادق في ذلك من الكاذب بوجوهٍ من الأدلَّة؟

ولهذا لمَّا كانت خديجة ﵂ تعلم من النَّبيِّ ﷺ أنَّه الصَّادق البارُّ، قال لها لمَّا جاءه الوحي: «**إنِّي قد خشيت على نفسي**»، فقالت: كلَّا، واللَّه لا يخزيك اللَّه، إنَّك لتصل الرَّحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتقري الضَّيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحقِّ[1]. فهو لم يخف من تعمُّد الكذب، فهو يعلم من نفسه ﷺ أنَّه لم يكذب، وإنَّما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوءٍ، وهو المقام الثَّاني، فذكرت خديجة ما ينفي هذا، وهو ما كان مجبولًا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم، وقد علم من سنَّة اللَّه أنَّ من جبله على الأخلاق المحمودة ونزَّهه عن الأخلاق المذمومة فإنَّه لا يخزيه.

وكذلك قال النَّجاشيُّ لمَّا استخبرهم عمَّا يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوا عليه: «إنَّ هذا والَّذي جاء به موسى ﵇ ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ»[2].

وكذلك ورقة بن نوفلٍ، لمَّا أخبره النَّبيُّ ﷺ بما رآه، وكان ورقة قد تنصَّر، وكان يكتب الإنجيل بالعربيَّة، فقالت له خديجة: «أي عمِّ، اسمع من ابن أخيك ما يقول»، فأخبره النَّبيُّ ﷺ بما رأى فقال: «هَذَا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى»[3].

وكذلك هرقل ملك الرُّوم، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا كتب إليه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفةٍ من

(١) **صحيح:** وأخرجه البخاري في حديث طويل (حديث رقم ٣) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ١٦٠) من حديث عائشة ﵂.

(٢) **حسن:** أخرجه أحمد (١/ ٢٠٣) من حديث أم سلمة ﵂.

(٣) **صحيح:** وانظر حديث عائشة المشار إليه قريبًا.

قريشٍ في تجارةٍ إلى الشَّام، وسألهم عن أحوال النَّبيِّ ﷺ، فسأل أبا سفيان، وأمر الباقين إن كذب أن يكذِّبوه، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الإخبار.

سألهم: هل كان في آبائه من ملِكٍ؟ فقالوا: لا.

قال: هل قال هذا القول أحدٌ قبله؟ فقالوا: لا.

وسألهم: أهو ذو نسبٍ فيكم؟ فقالوا: نعم.

وسألهم: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا: لا، ما جرَّبنا عليه كذبًا.

وسألهم: هل اتَّبعه ضعفاء النَّاس أم أشرافهم؟ فذكروا أنَّ الضُّعفاء اتَّبعوه.
وسألهم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا أنَّهم يزيدون.

وسألهم: هل يرجع أحدٌ منهم عن دينه سخطةً له بعد أن يدخل فيه؟ فقالوا: لا.

وسألهم: هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم، وسألهم عن الحرب بينهم وبينه؟ فقالوا: يدال علينا مرَّةً وندال عليه أخرى.

وسألهم: هل يغدر؟ فذكروا أنَّه لا يغدر.

وسألهم: بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد اللَّه وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عمَّا كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصَّلاة والصِّدق والعفاف والصِّلة. وهذه أكثر من عشر مسائل، ثمَّ بيَّن لهم ما في هذه المسائل من الأدلَّة، فقال:

سألتكم: هل كان في آبائه من ملِكٍ؟ فقلتم: لا، قلت: لو كان في آبائه من ملِكٍ لقلت: رجلٌ يطلب ملك أبيه.

وسألتكم: هل قال هذا القول فيكم أحدٌ قبله؟ فقلتم: لا، فقلت: لو قال هذا القول أحدٌ قبله لقلت: رجلٌ ائتمَّ بقولٍ قيل قبله.

وسألتكم: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلتم: لا، فقلت: قد علمت أنَّه لم يكن ليدع الكذب على النَّاس ثمَّ يذهب فيكذب على اللَّه.

وسألتكم: أضعفاء النَّاس يتبعونه أم أشرافهم؟ فقلتم: ضعفاؤهم وهم أتباع الرُّسل، يعني في أوَّل أمرهم.

ثمَّ قال: وسألتكم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلتم: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتَّى يتمّ.

وسألتكم: هل يرتدُّ أحدٌ منهم عن دينه سخطةً له بعد أن يدخل فيه؟ فقلتم: لا، وكذلك الإيمان، إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحدٌ[1].

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث رقم ٧) وفي مواطن أخر من «صحيحه» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا لفظ الحديث خشية بعض التداخلات من كلام المصنف رحمه الله، أخرج البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ فِي المُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلَا الحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ. فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا القَوْلَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا القَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ. وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ. وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ =

وهذا من أعظم علامات الصِّدق والحقّ، فإنَّ الكذب والباطل لا بدَّ أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه، ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلَّا قليلًا ثمَّ ينكشف.

وسألتكم: كيف الحرب بينكم وبينه؟ فقلتم: إنَّها دولٌ، وكذلك الرُّسل تبتلى وتكون العاقبة لها، قال: وسألتكم هل يغدر؟ فقلتم: لا، وكذلك الرُّسل لا تغدر، وهو لما كان عنده من علمه بعادة الرُّسل وسنَّة اللَّه فيهم أنَّه تارةً ينصرهم وتارةً يبتليهم وأنَّهم لا يغدرون علم أنَّ هذه علامات الرُّسل، وأنَّ سنَّة اللَّه في الأنبياء

= أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.
ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ «**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ** ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: الآية ٦٤]».
قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ. فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلَامَ.
وَكَانَ ابْنُ النَّاطُورِ: صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ، أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ، قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا اليَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ اليَهُودِ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ، أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا؟ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ العَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا ملك هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ.
ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي العِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ.

والمؤمنين أن يبتليهم بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، لينالوا درجة الشُّكر والصَّبر، كما في «الصَّحيح» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**(١).

واللَّه تعالى قد بيَّن في القرآن ما في إدالة العدوِّ عليهم يوم أُحدٍ من الحكمة فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٣٩]، الآيات. وقال تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، الآيات [العنكبوت: ١، ٢]. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدَّالَّة على سنَّته في خلقه وحكمته الَّتي بهرت العقول.

قال: وسألتكم عمَّا يأمر به؟ فذكرتم أنَّه يأمركم أن تعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئًا، ويأمركم بالصَّلاة والزكاةِ والصِّدق والعفاف والصِّلة، وينهاكم عمَّا كان يعبد آباؤكم، وهذه صفة نبيٍّ.

وقد كنت أعلم أنَّ نبيًّا يبعث، ولم أكن أظنُّه منكم، ولوددت أنِّي أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين.

وكان المُخاطَب بذلك أبو سفيان بن حربٍ، وهو حينئذٍ كافرٌ من أشدِّ النَّاس بُغضًا وعداوةً للنَّبيِّ ﷺ.

قال أبو سفيان بن حربٍ: فقلت لأصحابي ونحن خروجٌ: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كَبْشَةَ، إنَّه ليعظِّمه ملك بني الأصفر، وما زلت موقنًا بأنَّ أمر النَّبيِّ ﷺ سيظهر، حتَّى أدخل اللَّه عليَّ الإسلام وأنا كارهٌ(٢).

وممَّا ينبغي أن يعرف: أنَّ ما يحصل في القلب بمجموع أمورٍ، قد لا يستقلُّ بعضها به، بل ما يحصل للإنسان - من شبعٍ وريٍّ وشكرٍ وفرحٍ وغمٍّ - بأمورٌ مجتمعةٌ، لا

---

(١) **صحيح بلفظ قريب:** فقد أخرجه مسلم (حديث ٢٩٩٩)، من حديث صُهَيْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**.

(٢) **صحيح:** هو جزء من الحديث قبل السابق.

يحصل ببعضها، لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر.

وكذلك العلم بخبرٍ من الأخبار، فإنَّ خبر الواحد يحصِّل للقلب نوع ظنٍّ، ثمَّ الآخر يقوِّيه، إلى أن ينتهي إلى العلم، حتَّى يتزايد ويَقْوَى، وكذلك الأدلَّة على الصِّدق والكذب ونحو ذلك.

وأيضًا: فإنَّ اللَّه سبحانه أبقى في العالم الآثار الدَّالَّة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذِّبيهم من العقوبة، كتواتر الطُّوفان، وإغراق فرعون وجنوده، ولمَّا ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيًّا بعد نبيٍّ، في سورة الشُّعراء، كقصَّة موسى وإبراهيم ونوحٍ ومن بعده، يقول في آخر كلِّ قصَّةٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٧، ٦٨].

وبالجملة: فالعلم بأنَّه كان في الأرض من يقول إنَّه رسول اللَّه، وأنَّ أقوامًا اتَّبعوهم، وأنَّ أقوامًا خالفوهم، وأنَّ اللَّه نصر الرُّسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم: هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها. ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار مَنْ مضى مِنَ الأمم مِنْ ملوك الفرس وعلماء الطِّبِّ، كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه.

الأدلة على صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

ونحن اليوم إذا علمنا بالتَّواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم - علمنا يقينًا أنَّهم كانوا صادقين على الحقِّ من وجوهٍ متعدِّدةٍ:

منها: أنَّهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم.

ومنها: ما أحدثه اللَّه لهم من نصرهم وإهلاك عدوِّهم، إذا عرف الوجه الَّذي حصل عليه - كغرق فرعون وغرق قوم نوحٍ وبقيَّة أحوالهم - عرف صدق الرُّسل.

ومنها: أنَّ من عرف ما جاءت به الرُّسل من الشَّرائع وتفاصيل أحوالها، تبيَّن له أنَّهم أعلم الخلق، وأنَّه لا يحصل مثل ذلك من كذَّابٍ جاهلٍ، وأنَّ فيما جاؤوا به من المصلحة والرَّحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرُّهم - ما يبيِّن أنَّه لا يصدر إلَّا عن راحمٍ برٍّ يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق.

ولذكر دلائل نبوَّة محمَّدٍ ﷺ من المعجزات وبسطها موضعٌ آخر، وقد أفردها النَّاس بمصنَّفاتٍ، كالبيهقيِّ وغيره.

بل إنكار رسالته ﷺ طعنٌ في الرَّبِّ تبارك وتعالى، ونسبته إلى الظُّلم والسَّفه تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا بل جحدٌ للرَّبِّ بالكلِّيَّة وإنكارٌ.

وبيان ذلك: أنَّه إذا كان محمَّدٌ عندهم ليس بنبيٍّ صادقٍ، بل ملك ظالمٌ، فقد تهيَّأ له أن يفتري على اللَّه ويتقوَّل عليه، ويستمرَّ حتَّى يحلِّل ويحرِّم، ويفرض الفرائض، ويشرِّع الشَّرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرِّقاب، ويقتل أتباع الرُّسل وهم أهل الحقِّ، ويسبي نساءهم ويغنم أموالهم وديارهم، ويتمُّ له ذلك حتَّى يفتح الأرض، وينسب ذلك كلَّه إلى أمر اللَّه له به ومحبَّته له، والرَّبُّ تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحقِّ، وهو مستمرٌّ في الافتراء عليه ثلاثًا وعشرين سنةً، وهو مع ذلك كلِّه يؤيِّده وينصره، ويُعْلي أمره، ويمكِّن له من أسباب النَّصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أنَّه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره، هذا وهو عندهم في غاية الكذب والافتراء والظُّلم، فإنَّه لا أظلم ممَّن كذب على اللَّه وأبطل شرائع أنبيائه وبدَّلها وقتل أولياءه، واستمرَّت نصرته عليهم دائمًا، واللَّه تعالى يقرُّه على ذلك، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين.

فيلزمهم أن يقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبِّر، ولو كان له مدبِّرٌ قديرٌ حكيمٌ، لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلةٍ، وجعله نكالًا للصَّالحين؛ إذ لا يليق بالملوك غير ذلك، فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين؟

ولا ريب أنَّ اللَّه تعالى قد رفع له ذكره، وأظهر دعوته والشَّهادة له بالنُّبوَّة على رؤوس الأشهاد في سائر البلاد، ونحن لا ننكر أنَّ كثيرًا من الكذَّابين قام في الوجود، وظهرت له شوكةٌ، ولكن لم يتمَّ أمره، ولم تطل مدَّته، بل سلَّط اللَّه عليه رسله وأتباعهم، فقطعوا دابره واستأصلوه، هذه سنَّة اللَّه الَّتي قد خلت من قبل، حتَّى إنَّ الكفَّار يعلمون ذلك. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور: ٣٠، ٣١] أفلا تراه يخبر أنَّ كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقرَّ من تقوَّل عليه بعض الأقاويل؟ لا بدَّ أن يجعله عبرةً لعباده كما جرت بذلك سنَّته في المتقوِّلين عليه. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ

عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ [الشورى: الآية ٢٤] وهنا انتهى جواب الشَّرط، ثمَّ أخبر خبرًا جازمًا غير معلَّقٍ: أنَّه يمحو الباطل ويحقُّ الحقَّ. وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩١] فأخبر سبحانه أنَّ من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدِّره حقَّ قدره.

الفرق بين النبي والرسول:

وقد ذكروا فروقًا بين النَّبيِّ والرَّسول، وأحسنها: أنَّ من نبَّأه اللَّه بخبر السَّماء، إن أمره أن يبلِّغ غيره، فهو نبيٌّ رسولٌ، وإن لم يأمره أن يبلِّغ غيره، فهو نبيٌّ وليس برسولٍ، فالرَّسول أخصُّ من النَّبيِّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، ولكنَّ الرِّسالة أعمُّ من جهة نفسها، فالنُّبوَّة جزءٌ من الرِّسالة؛ إذ الرِّسالة تتناول النُّبوَّة وغيرها، بخلاف الرُّسل، فإنَّهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس، فالرِّسالة أعمُّ من جهة نفسها، وأخصُّ من جهة أهلها.

وإرسال الرُّسل من أعظم نعم اللَّه على خلقه، وخصوصًا محمَّدًا ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران: الآية ١٦٤] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧].

متن الطحاوية

قوله: «وَأَنَّهُ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠] وقال ﷺ: **«مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أُحْسِنَ بُنْيَانُهُ، وَتُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ، فَطَافَ بِهِ النُّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ، إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاهَا، فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ خُتِمَ بِيَ الْبُنْيَانُ وَخُتِمَ بِيَ الرُّسُلُ»**، خرجاه في «الصحيحين»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٥٣٥)، ومسلم (حديث ٢٢٨٦) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: **«مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ، يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا بُنْيَانًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِلَّا هَذِهِ اللَّبِنَةَ، فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةَ»**. =

وقال ﷺ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ، الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ، وَالْعَاقِبُ: الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ»(١).

وفي «صحيح مسلم» عن ثوبان، قال: قال رسول اللَّه: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»(٢)، الحديث.

ولمسلم: أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»(٣).

* * *

= وعند البخاري أيضا (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ!». قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ، جِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ».

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٥٣٢)، ومسلم (حديث ٢٣٥٤) من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه مرفوعًا، وعند مسلم زيادة: «وَالْعَاقِبُ: الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ».
والذي يظهر أن لفظة: «وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ» مُدرجة من كلام بعض الرواة، وهو الزهري. انظر ما يفيد ذلك عند الحافظ في «الفتح» (٦/ ٥٥٧)، وفي «صحيح مسلم» (ص١٨٢٨).

(٢) هذه اللفظة لم أقف عليها عند مسلم من حديث ثوبان، فعند مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». وهذا الحديث عند أبي داود أيضًا (٤٢٥٢) من نفس الطريق (باستثناء شيخ مسلم) وعنده الزيادة المذكورة: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي».
وعند مسلم (حديث ١٥٧ ص ٢٢٣٩)، والبخاري (حديث ٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «... وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ».

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: وَإِمَامُ الأَتْقِيَاءِ»

الشرح

هو ﷺ الإمام الَّذي يؤتمُّ به، أي: يقتدون به، والنَّبيُّ ﷺ إنَّما بُعِثَ للاقتداء به، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١] وكلُّ من اتَّبعه واقتدى به فهو من الأتقياء.

متن الطحاوية

قوله: «وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ»

الشرح

قال ﷺ: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»**(١). رواه مسلمٌ. وفي أوَّل حديث الشَّفاعة: **«أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(٢) وروى مسلمٌ والتِّرمذيُّ عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»**(٣).

وجه الجمع بين قوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ» وقوله: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى»:

فإن قيل: يُشْكِلُ على هذا قوله ﷺ: **«لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِسَاقِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي هَلْ أَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ؟»** خرَّجاه في «الصحيحين»(٤)، فكيف يجمع بين هذا

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٣٤٠)، ومسلم (حديث ١٩٤) وفي غير موطن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧٦).

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٤٠٨)، ومسلم (ص ١٨٤٤) وفي غير موطن، بألفاظ قريبة.

وبين قوله: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**»[١].

فالجواب: أنَّ هذا كان له سببٌ، فإنَّه كان قد قال يهوديٌّ: لا والَّذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلمٌ، وقال: أتقول هذا ورسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهوديُّ فاشتكى من المسلم الَّذي لطمه، فقال النَّبيُّ ﷺ هذا؛ لأنَّ التَّفضيل إذا كان على وجه الحميَّة والعصبيَّة وهوى النَّفس كان مذمومًا، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرَّجل حميَّةً وعصبيَّةً كان مذمومًا، فإنَّ اللَّه حرَّم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: الآية ٥٥]. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣] فعلم أنَّ المذموم إنَّما هو التَّفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول، وعلى هذا يحمل أيضًا قوله ﷺ: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ**»[٢]، إن كان ثابتًا، فإنَّ هذا قد روي في نفس حديث موسى، وهو في البخاريِّ وغيره، لكنَّ بعض النَّاس يقول: إنَّ فيه عِلَّةً، بخلاف حديث موسى، فإنَّه صحيحٌ لا علَّة فيه باتِّفاقهم.

وقد أجاب بعضهم بجوابٍ آخر، وهو: أنَّ قوله ﷺ: «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى**»، وقوله: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ**» نهيٌ عن التَّفضيل الخاصِّ، أي: لا يفضَّل بعض الرُّسل على بعضٍ بعينه، بخلاف قوله: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**» فإنَّه تفضيلٌ عامٌّ

---

(١) **صحيح:** وتقدم قريبًا حديث: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، وثَمَّ شواهد أُخر بلفظ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ**»، عند أحمد (٣/ ١٤٤) من حديث أنس مرفوعًا، وآخر عند أحمد أيضًا (٣/ ٢)، من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا، وشواهد أُخر متعددة.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٤١٤)، ومسلم (حديث ٢٣٧٣) من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَةً لَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ أَوْ لَمْ يَرْضَهُ - شَكَّ عَبْدُ الْعَزِيزِ - قَالَ: لَا، وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى ﷺ عَلَى الْبَشَرِ! قَالَ: فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، قَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى ﷺ عَلَى الْبَشَرِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟! قَالَ: فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، وَقَالَ: فُلَانٌ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟**» قَالَ: قَالَ: (يَا رَسُولَ اللهِ!) وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى ﷺ عَلَى الْبَشَرِ! وَأَنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، أَوْ فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى ﷺ آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي؟ وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ﷺ**».

فلا يمنع منه. وهذا كما لو قيل: فلانٌ أفضل أهل البلد، لا يَنْصَبُّ على أفرادهم، بخلاف ما لو قيل لأحدهم: فلانٌ أفضل منك. ثمَّ إنِّي رأيت الطَّحاويَّ رَحِمَهُ اللَّهُ قد أجاب بهذا الجواب في «شرح معاني الآثار».

وأمَّا ما يروى أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»، وأنَّ بعض الشُّيوخ قال: لا يفسِّر لهم هذا الحديث حتَّى يعطى مالًا جزيلًا، فلمَّا أعطوه فسَّره بأنَّ قرب يونس من اللَّه وهو في بطن الحوت كقربي من اللَّه ليلة المعراج وعدُّوا هذا تفسيرًا عظيمًا. وهذا يدلُّ على جهلهم بكلام اللَّه وبكلام رسوله لفظًا ومعنًى، فإنَّ هذا الحديث بهذا اللَّفظ لم يروه أحدٌ من أهل الكتب الَّتي يُعتمد عليها، وإنَّما اللَّفظ الَّذي في «الصَّحيح»: «**لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»(١). وفي روايةٍ: «**مَنْ قَالَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؛ فَقَدْ كَذَبَ**»(٢). وهذا اللَّفظ يدلُّ على العموم، لا ينبغي لأحدٍ أن يفضِّل نفسه على يونس بن متَّى، ليس فيه نهي المسلمين أن يفضِّلوا محمَّدًا على يونس؛ وذلك لأنَّ اللَّه تعالى قد أخبر عنه أنَّه التقمه الحوت وهو مليمٌ، أي: فاعلٌ ما يُلَامُ عليه. وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] فقد يقع في نفس بعض النَّاس أنَّه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام؛ إذ لا يفعل ما يلام عليه. ومن ظنَّ هذا فقد كذب، بل كلُّ عبدٍ من عباد اللَّه يقول ما قال يونس: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧]، كما قال أوَّل الأنبياء وآخرهم:

فأوَّلهم: آدم، قد قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣].

وآخرهم وأفضلهم وسيِّدهم: محمَّدٌ ﷺ، قال في الحديث الصَّحيح، حديث الاستفتاح، من رواية عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، بعد قوله: «**وجَّهت وجهي**» إلى آخره: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي،**

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وأخرجه البخاري أيضًا (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»، وللحديث مصادر متعددة غير المشار إليها.

(٢) هذه الرواية عند البخاري (٤٦٠٤) وفي غير مصدر أيضًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»(١)، إلى آخر الحديث، وكذا قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: الآية ١٦].

وأيضًا: فيونس ﷺ لمَّا قيل فيه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: الآية ٤٨]، فَنُهِيَ نبيُّنا ﷺ عن التَّشبُّه به، وأمره بالتَّشبُّه بأولي العزم حيث قيل له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥]، فقد يقول من يقول: أنا خيرٌ مِنْهُ، وليس للأفضل أن يفخر على من دونه، فكيف إذا لم يكن أفضل؟! فإنَّ اللَّه لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ، وفي «صحيح مسلم» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»**(٢). فاللَّه تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين، فكيف على نبيٍّ كريمٍ؟ فلهذا قال: **«لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»**(٣). فهذا نهيٌ عامٌّ لكلِّ أحدٍ أن يتفضَّل ويفتخر على يونس.

وقوله: «مَنْ قَالَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؛ فَقَدْ كَذَبَ»(٤)، فإنَّه لو قدِّر أنَّه كان أفضل، فَبِهَذَا الكلامُ يصير أَنْقَصَ، فيكون كاذبًا، وهذا لا يقوله نبيٌّ كريمٌ، بل هو تقديرٌ مطلقٌ، أي: من قال هذا فهو كاذبٌ، وإن كان لا يقوله نبيٌّ، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥]، وإن كان ﷺ معصومًا من الشِّرك، لكنَّ الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال.

وإنَّما أخبر ﷺ أنَّه سيِّد ولد آدم؛ لأنَّا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلَّا بخبره؛ إذ لا نبيَّ بعده يخبرنا بعظيم قدره عند اللَّه، كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله - صلَّى اللَّه عليهم وسلَّم أجمعين - ولهذا أتبعه بقوله: **«ولا فخر»** كما جاء في روايةٍ. وهل

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٧٧١) من حديث عليٍّ ﷺ، وفيه عن رسول الله ﷺ؛ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: **«وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»**.

(٢) **صحيح:** وأخرجه مسلم (ص ٢١٩٩) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ مرفوعًا.

(٣) **صحيح:** وقد تقدم قريبًا.

(٤) **صحيح:** وقد تقدم قريبًا.

يقول من يؤمن باللَّه واليوم الآخر: إنَّ مقام الَّذي أسري به إلى ربِّه وهو مقرَّبٌ معظَّمٌ مكرَّمٌ كمقام الَّذي ألقي في بطن الحوت وهو مليمٌ؟! وأين المعظَّم المقرَّب من الممتحن المؤدَّب؟! فهذا في غاية التَّقريب، وهذا في غاية التَّأديب، فانظر إلى هذا الاستدلال؛ لأنَّه بهذا المعنى المحرَّف للفظٍ لم يقله الرَّسول، وهل يقاوم هذا الدَّليل على نفي علوِّ اللَّه تعالى على خلقه الأدلَّة الصَّحيحة الصَّريحة القطعيَّة على علوِّ اللَّه تعالى على خلقه، الَّتي تزيد على ألف دليلٍ، كما يأتي الإشارة إليها عند قول الشَّيخ رحمه الله: (**محيطٌ بكلِّ شيءٍ وفوقه**)، إن شاء اللَّه تعالى.

متن الطحاوية

قوله: «وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[١]

الشرح

ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبَّة، وهي الخلَّة، كما صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**»[٢]. وقال: «**ولو كنت متَّخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتَّخذت أبا بكرٍ خليلًا، ولكنَّ صاحبكم خليل الرَّحمن**»[٣]. والحديثان في «الصَّحيح» وهما يبطلان قول من قال: الخلَّة لإبراهيم، والمحبَّة لمحمَّدٍ، فإبراهيم خليل اللَّه ومحمَّدٌ حبيبه. وفي «الصَّحيح» أيضًا: «**إنِّي أَبرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ**»[٤].

والمحبَّة قد ثبتت لغيره. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٤]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٧٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢].

---

(١) الأَوْلَى أن يقال: «وهو أيضًا خليل رب العالمين».

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٥٣٢) من حديث جُنْدَب رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدِ اتَّخَذَ اللهُ عز وجل صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا**».

(٤) **صحيح**: وانظر ما تقدم.

فبطل قول: من خصَّ الخلَّة بإبراهيم والمحبَّة بمحمَّدٍ، بل الخلَّة خاصَّةٌ بهما، والمحبَّة عامَّةٌ. وحديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما الَّذي رواه التِّرمذيُّ الَّذي فيه: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ**»[1]. لم يثبت.

واعلم أنَّ وصف اللَّه تعالى بالمحبَّة والخلَّة هو كما يليق بجلال اللَّه تعالى وعظمته، كسائر صفاته تعالى، وإنَّما يوصف اللَّه تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والودِّ والمحبَّة والخلَّة، حسبما ورد النَّصُّ.

متن الطحاوية

قوله: «وَكُلُّ دَعْوَى النُّبُوَّةِ بَعْدَهُ فَغَيٌّ وَهَوًى»

الشرح

لمَّا ثبت أنَّه خاتم النَّبيِّين، علم أنَّ من ادَّعى بعده النُّبوَّة فهو كاذبٌ.

والغيُّ: ضدُّ الرَّشاد. والهوى: عبارةٌ عن شهوة النَّفس. أي: أنَّ تلك الدَّعوى بسبب هوى النَّفس، لا عن دليلٍ، فتكون باطلةً.

***

(١) **ضعيف:** أخرجه الترمذي (حديث ٣٦١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولًا، وفيه أن النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**وَعَجَبُكُمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ... لَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ...**» الحديث، قال الترمذي: «وهذا حديث غريب».

قلت: وسنده ضعيف، ففيه زمعة بن أبي صالح وهو ضعيف، وخاصة فيما يرويه عن سلمة بن وهرام، وسلمة بن وهرام أيضًا متكلم فيه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ، وَكَافَّةِ الْوَرَى، بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ»

الشرح

أمَّا كونه مبعوثًا إلى عامَّة الجنِّ، فقال تعالى حكايةً عن قول الجنِّ(١): ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ الآيةُ [الأحقاف: الآية ٣١] وكذا سورة الجنِّ تدلُّ على أنَّه أرسل إليهم أيضًا، والرُّسل من الإنس فقط، وليس من الجنِّ رسولٌ، كذا قال مجاهدٌ وغيره من السَّلف والخلف. وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: الرُّسل من بني آدم، ومن الجنِّ نذرٌ.

وظاهر قوله تعالى حكايةً عن الجنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٠] يدلُّ على أنَّ موسى مرسلٌ إليهم أيضًا، واللَّه أعلم.

وأمَّا كونه مبعوثًا إلى كافَّة الورى، فقد قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: الآية ٢٨] وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] أي: وأنذر من بلغه. وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: الآية ٧٩] وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: الآية ٢]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ١] وقد قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾

---

(١) الصواب في مثل هذا أن يقال: مؤمنو الجن، أما قولهم: (حكاية) فلم أقف عليها في شيء من الحديث، ومثل هذا متكرر من الناس، يقولون: قال الله حكاية عن فلان، وهذا فيما يبدو لي ليس له مستندٌ، والصواب أن نذكر من قاله مباشرة، كما قال ﷺ: «**فأقول كما قال العبد الصالح:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾» [المائدة: الآية ١١٧]، وفي الحديث الآخر: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال:** ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾» [البقرة: الآية ٢٦٠] ولم يقل: قال الله حكاية عن إبراهيم، وقالت عائشة أيضًا: فلا أجد لي ولكم مثلًا إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٨].

وقال ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»، أخرجاه في «**الصحيحين**»[(١)].

وقال ﷺ: «**لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ**»[(٢)]، رواه مسلمٌ، وكونه ﷺ مبعوثًا إلى النَّاس كافَّةً معلومٌ من دين الإسلام بالضَّرورة.

وأمَّا قول بعض النَّصارى: إنَّهُ رسولٌ إلى العرب خاصَّةً. فظاهر البطلان، فإنَّهم لمَّا صدَّقوا بالرِّسالة لزمهم تصديقه في كلِّ ما يخبر به، وقد قال: إنَّه رسول اللَّه إلى النَّاس عامَّةً، والرَّسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتمًا، فقد أرسل رسله وَبَثَّ كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنَّجاشيِّ والمقوقس، وسائر ملوك الأطراف، يدعو إلى الإسلام.

متن الطحاوية

قوله: «بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ»

الشرح

هذه أوصاف ما جاء به رسول اللَّه ﷺ من الدِّين والشَّرع المؤيَّد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلَّة. والضِّياء: أكمل من النُّور، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: الآية ٥].

***

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٣٥) وفي غير موطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٥٢١) وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٥٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ، فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ، وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرَ؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦]، فَلَمَّا أَوْعَدَ اللَّهُ بِـ«سَقَرَ» لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، عَلِمْنَا وَأَيْقَنَّا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ

الشرح

هذه قاعدةٌ شريفةٌ، وأصلٌ كبيرٌ من أصول الدِّين، ضلَّ فيه طوائف كثيرةٌ من النَّاس، وهذا الَّذي حكاه الطَّحاويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هو الحقُّ الَّذي دلَّت عليه الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة لمن تدبَّرهما، وشهدت به الفطرة السَّليمة الَّتي لم تغيَّر بالشُّبهات والشُّكوك والآراء الباطلة.

وقول الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **«وإنَّ القرآن كلام اللَّه»**. إنَّ بكسر الهمزة عطفٌ على قوله: **«إنَّ اللَّه واحدٌ لا شريك له»** ثمَّ قال: **«وإنَّ محمَّدًا عبده المصطفى»**. بكسر همزة إنَّ في المواضع الثَّلاثة.

وقوله: «كلام اللَّه منه بدا بلا كيفيَّةٍ قولًا» ردٌّ على المعتزلة وغيرهم، فإنَّ المعتزلة تزعم أنَّ القرآن لم يبد منه، كما تقدَّم حكاية قولهم(١)، قالوا: وإضافته إليه إضافة تشريفٍ، كبيت اللَّه، وناقة اللَّه، يحرِّفون الكلم عن مواضعه! وقولهم باطلٌ، فإنَّ المضاف إلى اللَّه تعالى معانٍ وأعيانٌ، فإضافة الأعيان إلى اللَّه للتَّشريف، وهي مخلوقةٌ له، كبيت اللَّه، وناقة اللَّه، بخلاف إضافة المعاني، كعلم اللَّه، وقدرته، وعزَّته، وجلاله، وكبريائه، وكلامه، وحياته، وعلوِّه، وقهره - فإنَّ هذا كلَّه من صفاته، لا يمكن أن يكون شيءٌ من ذلك مخلوقًا.

والوصف بالتَّكلُّم من أوصاف الكمال، وضدُّه من أوصاف النَّقص. قال تعالى:

(١) قولهم الذي ذكره هو أنهم قالوا: إنه مخلوق، خلقه الله منفصلًا عنه.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٨] فكان عبَّاد العجل - مع كفرهم - أعرف بالله من المعتزلة، فإنَّهم لم يقولوا لموسى: وربُّك لا يتكلَّم أيضًا. وقال تعالى عن العجل أيضًا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: الآية ٨٩] فعلم أنَّ نفي رجوع القول ونفي التَّكلُّم نقصٌ يستدلُّ به على عدم ألوهيَّة العجل.

وغاية شبهتهم أنَّهم يقولون: يلزم منه التَّشبيه والتَّجسيم؟ فيقال لهم: إذا قلنا: إنَّهُ تعالى يتكلَّم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم. ألا ترى أنَّه تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: الآية ٦٥] فنحن نؤمن أنَّها تتكلَّم، ولا نعلم كيف تتكلَّم. وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: الآية ٢١] وكذلك تسبيح الحصى والطَّعام، وسلام الحجر، كلُّ ذلك بلا فمٍ يخرج منه الصَّوت الصَّاعد من الرِّئة، المعتمد على مقاطع الحروف.

وإلى هذا أشار الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: **(منه بدا بلا كيفيَّةٍ قولًا)**، أي: ظهر منه ولا يُدرى كيفيَّة تكلُّمه به. وأكَّد هذا المعنى بقوله: **(قولًا)**، أتى بالمصدر المعرِّف للحقيقة، كما أكَّد الله تعالى التَّكليم بالمصدر المثبت للحقيقةِ النَّافي للمجاز في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٦٤] فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال؟!

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء أحد القرَّاء السَّبعة: أريد أن تقرأ: «وكلَّم الله موسى»، بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلِّم لا الله! فقال أبو عمرو: هَبْ أنِّي قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]؟! فبهت المعتزليُّ!

وكم في الكتاب والسُّنَّة من دليلٍ على تكليم الله تعالى لأهل الجنَّة وغيرهم. قال تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: الآية ٥٨]. ففي هذا الحديث إثبات صفة الكلام، وإثبات الرُّؤية، وإثبات العلوِّ، وكيف يصحُّ مع هذا أن يكون كلام الرَّبِّ كلُّه معنًى واحدًا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: الآية ٧٧]، فأهانهم بترك تكليمهم، والمراد أنَّه لا يكلِّمهم تكليم تكريمٍ، وهو الصَّحيح؛ إذ

قد أخبر في الآية الأخرى أنَّه يقول لهم في النَّار: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: الآية ١٠٨]، فلو كان لا يكلِّم عباده المؤمنين، لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواءً، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنَّه لا يكلِّمهم فائدةٌ أصلًا.

وقال البخاريُّ في «**صحيحه**»: باب كلام الرَّبِّ تبارك وتعالى مع أهل الجنَّة، وساق فيه عدَّة أحاديث، فأفضل نعيم أهل الجنَّة رؤية وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكارٌ لروح الجنَّة، وأعلى نعيمها وأفضله الَّذي ما طابت لأهلها إلَّا به.

وأمَّا استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: الآية ١٦]، والقرآن شيءٌ، فيكون داخلًا في عموم «كل» فيكون مخلوقًا!! فمن أعجب العجب. وذلك: أنَّ أفعال العباد كلَّها عندهم غير مخلوقةٍ للَّه تعالى، وإنَّما يخلقها العباد جميعها، لا يخلقها اللَّه فأخرجوها من عموم «كلّ»، وأدخلوا كلام اللَّه في عمومها، مع أنَّه صفةٌ من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة؛ إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] ففرَّق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقًا للزم أن يكون مخلوقًا بأمرٍ آخر، والآخر بآخر، إلى ما لا نهاية له، فيلزم التَّسلسل، وهو باطلٌ. وطرد باطلهم: أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقةً، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإنَّ علمه شيءٌ، وقدرته شيءٌ، وحياته شيءٌ، فيدخل ذلك في عموم «كلّ»، فيكون مخلوقًا بعد أن لم يكن، تعالى اللَّه عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

وكيف يصحُّ أن يكون متكلِّمًا بكلامٍ يقوم بغيره؟ ولو صحَّ ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه! وكذلك أيضًا ما خلقه في الحيوانات، لا يفرَّق حينئذٍ بين نطق وأنطق، وإنَّما قالت الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: الآية ٢١]، ولم تقل: نطق اللَّه، بل يلزم أن يكون متكلِّمًا بكلِّ كلام خلقه في غيره، زورًا كان أو كذبًا أو كفرًا أو هذيانًا!! تعالى اللَّه عن ذلك، وقد طرَّد ذلك الاتِّحاديَّة، فقال ابن عربيٍّ:

وكلُّ كلامٍ في الوجود كلامه ... سواءٌ علينا نثره ونظامه!

ولو صحَّ أن يوصف أحدٌ بصفةٍ قامت بغيره، لصحَّ أن يقال للبصير: أعمى،

وللأعمى: بصيرٌ! لأنَّ البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره! ولصحَّ أن يوصف اللَّه تعالى بالصِّفات الَّتي خلقها في غيره، من الألوان والرَّوائح والطُّعوم والطُّول والقصر ونحو ذلك.

وعموم «كلِّ» في كلِّ موضعٍ بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٥]، ومساكنهم شيءٌ، ولم تدخل في عموم كلِّ شيءٍ دمَّرته الرِّيح؟ وذلك؛ لأنَّ المراد: تدمِّر كلَّ شيءٍ يقبل التَّدمير بالرِّيح عادةً وما يستحقُّ التَّدمير، وكذا قوله تعالى حكايةً عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية ٢٣]، المراد من كلِّ شيءٍ يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام؛ إذ مراد الهدهد أنَّها ملكةٌ كاملةٌ في أمر الملك، غير محتاجةٍ إلى ما يكمل به أمر ملكها، ولهذا نظائر كثيرةٌ.

والمراد من قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: الآية ١٦]، أي: كلُّ شيءٍ مخلوقٍ، وكلُّ موجودٍ سوى اللَّه فهو مخلوقٌ، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتمًا، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره؛ لأنَّه ﷻ هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمةٌ لذاته المقدَّسة، لا يتصوَّر انفصال صفاته عنه.

وأمَّا استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: الآية ٣]، فما أفسده من استدلالٍ! فإنَّ (جعل) إذا كان بمعنى «خلق» يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠، ٣١]. وإذا تعدَّى إلى مفعولين لم يكن بمعنى «خلق»، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: الآية ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٤]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: الآية ٩١] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: الآية ١٩]. ونظائره كثيرةٌ، فكذا قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: الآية ٣].

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة: الآية ٤٠]. وهذا يدلُّ على أنَّ الرَّسول أحدثه، إمَّا جبريل أو محمَّدٌ.

قيل: ذكر الرَّسول معرَّفٌ أنَّه مبلِّغٌ عن مرسله؛ لأنَّه لم يقل: إنَّهُ قول ملكٍ أو نبيٍّ، فعلم أنَّه بلَّغه عمَّن أرسله به، لا أنَّه أنشأه من جهة نفسه.

وأيضًا: فالرَّسول في إحدى الآيتين جبريل، وفي الأخرى محمَّدٌ، فإضافته إلى كلٍّ منهما تبيِّن أنَّ الإضافة للتَّبليغ؛ إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر.

وأيضًا: فقوله: «رسولٌ أمينٌ»، دليلٌ على أنَّه لا يزيد في الكلام الَّذي أرسل بتبليغه ولا ينقص منه، بل هو أمينٌ على ما أُرْسِلَ به، يبلِّغه عن مُرْسِلِهِ.

وأيضًا: فإنَّ اللَّه قد كفَّر من جعله قول البشر، ومحمَّدٌ ﷺ بشرٌ، فمن جعله قول محمَّدٍ - بمعنى أنَّه أنشأه - فقد كفر. ولا فرق بين أن يقول: إنَّه قول بشرٍ، أو جنِّيٍّ، أو ملكٍ، والكلام كلام من قاله مبتدئًا، لا من قاله مُبلِّغًا. ومن سمع قائلًا يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل ....

قال: هذا شعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[1] قال: هذا كلام الرَّسول، وإن سمعه يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢- ٥] قال: هذا كلام اللَّه، إن كان عنده خبر ذلك، وإلَّا قال: لا أدري كلام مَنْ هذا؟ ولو أنكر عليه أحدٌ ذلك لكذَّبه. ولهذا مَنْ سمع مِنْ غيره نظمًا أو نثرًا، يقول له: هذا كلام من؟ أهذا كلامك أو كلام غيرك؟

وبالجملة: فأهل السُّنَّة كلُّهم، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السَّلف والخلف، متَّفقون على أنَّ كلام اللَّه غير مخلوقٍ، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخِّرون في أنَّ كلام اللَّه، هل هو معنًى واحدٌ قائمٌ بالذَّات، أو أنَّه حروفٌ

---

(١) حديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» صحيح متفق عليه من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا. أخرجه البخاري (حديث ١) وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ١٩٠٧) وغيرهما.

وأصواتٌ تكلَّم اللَّه بها بعد أن لم يكن متكلِّمًا، أو أنَّه لم يزل متكلِّمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وأنَّ نوع الكلام قديمٌ؟

وقد يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنَّه غير مخلوقٍ، ومرادهم أنَّه غير مختلقٍ مفترًى مكذوبٍ، بل هو حقٌّ وصدقٌ، ولا ريب أنَّ هذا المعنى منتفٍ باتِّفاق المسلمين.

والنِّزاع بين أهل القبلة إنَّما هو في كونه مخلوقًا خلقه اللَّه، أو هو كلامه الَّذي تكلَّم به وقام بذاته؟ وأهل السُّنَّة إنَّما سُئلوا عن هذا، وإلَّا فكونه مكذوبًا مفترًى ممَّا لا ينازع مسلمٌ في بطلانه، ولا شكَّ أنَّ مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع معترفون بأنَّ اعتقادهم في التَّوحيد والصِّفات والقدر لم يتلقَّوه لا عن كتابٍ ولا سنَّةٍ، ولا عن أئمَّة الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسانٍ، وإنَّما يزعمون أنَّ عقلهم دلَّهم عليه، وإنَّما يزعمون أنَّهم تلقَّوا من الأئمَّة الشَّرائع.

ولو تُرِكَ النَّاسُ عَلَى فِطَرِهِمُ السَّليمة وعقولهم المستقيمة، لم يكن بينهم نزاعٌ، ولكن ألقى الشَّيطان إلى بعض النَّاس أغلوطةً من أغاليطه، فرَّق بها بينهم. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: الآية ١٧٦].

والَّذي يدلُّ عليه كلام الطَّحاويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه تعالى لم يزل متكلِّمًا إذا شاء كيف شاء، وأنَّ نوع كلامه قديمٌ، وكذلك ظاهر كلام الإمام أبي حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في «الفقه الأكبر»، فإنَّه قال: والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوبٌ، وفي القلوب محفوظٌ، وعلى الألسن مقروءٌ، وعلى النَّبيِّ ﷺ منزَّلٌ، ولفظنا بالقرآن مخلوقٌ وكتابته لنا مخلوقةٌ، وقراءتنا له مخلوقةٌ والقرآن غير مخلوقٍ، وما ذكر اللَّه في القرآن حكايةً عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن فرعون وإبليس - فإنَّ ذلك كلام اللَّه إخبارًا عنهم، وكلام الله غيرُ مخلوق، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوقٌ، والقرآن كلام اللَّه لا كلامهم، وسمع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلام اللَّه تعالى، فلمَّا كلَّم موسى كلَّمه بكلامه الَّذي هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلُّها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويتكلَّم لا ككلامنا. انتهى.

فقوله: «ولمَّا كلَّم موسى كلَّمه بكلامه الَّذي هو من صفاته» يعلم منه أنَّه حين جاء

كلَّمه، لا أنَّه لم يزل ولا يزال أزلًا وأبدًا يقول: يا موسى.

وقوله: «الَّذي هو من صفاته لم يزل» ردٌّ على من يقول: إِنَّهُ حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلِّمًا.

وبالجملة: فكلُّ ما تحتجُّ به المعتزلة ممَّا يدلُّ على أنَّه كلامٌ متعلِّقٌ بمشيئته وقدرته، وأنَّه يتكلَّم إذا شاء، وأنَّه يتكلَّم شيئًا بعد شيءٍ، فهو حقٌّ يجب قبوله. وما يقول به من يقول: إنَّ كلام اللَّه قائمٌ بذاته، وأنَّه صفةٌ له. والصِّفة لا تقوم إلَّا بالموصوف، فهو حقٌّ يجب قبوله والقول به، فيجب الأخذ بما في قول كلٍّ من الطَّائفتين من الصَّواب، والعدول عمَّا يردُّه الشَّرع والعقل من قول كلٍّ منهما.

ولا شكَّ أنَّ الرُّسل الَّذين خاطبوا النَّاس وأخبروهم أنَّ اللَّه قال ونادى وناجى ويقول، لم يفهموهم أنَّ هذه مخلوقاتٌ منفصلةٌ عنه، بل الَّذي أفهموهم إيَّاه: أنَّ اللَّه نفسه هو الَّذي تكلَّم، والكلام قائمٌ به لا بغيره، وأنَّه هو الَّذي تكلَّم به وقاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: «ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلَّم اللَّه فيَّ بوحيٍ يُتْلَى»[١].

ولو كان المراد من ذلك كلِّه خلاف مفهومه لوجب بيانه؛ إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

ولا يعرف في لغةٍ ولا عقلٍ قائلٌ متكلِّمٌ لا يقوم به القول والكلام وإنما قام الكلام بغيرهِ وإن زعموا أنَّهم فرُّوا من ذلك حذرًا من التَّشبيه، فلا يثبتوا صفةً غيره، فإنَّهم إذا قالوا: يعلم لا كعلمنا، قلنا: ويتكلَّم لا كتكلُّمنا، وكذلك سائر الصِّفات.

وهل يعقل قادرٌ لا تقوم به القدرة، أو حيٌّ لا تقوم به الحياة؟ وقد قال ﷺ: **«أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»**[٢]، فهل يقول عاقلٌ: إِنَّهُ

---

(١) **صحيح:** عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وقد أخرجه البخاري ضمن حديث الإفك الطويل (حديث رقم ٤٧٥٠)، ومسلم (حديث ٢٧٧٠) وغيرهما.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤١٩) وغيره من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَنْبَشٍ، وَقد سَأَلَه رَجُلٌ كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ؟ قَالَ: جَاءَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَوْدِيَةِ، وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجِبَالِ، وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ، يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، =

ﷺ عاذ بمخلوقٍ؟ بل هذا كقوله: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**»(١)، وكقوله: «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وأُحَاذِرُ**»(٢). وكقوله: «**وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا**»(٣). كلُّ هذه من صفات اللَّه تعالى.

وهذه المعاني مبسوطةٌ في مواضعها، وإنَّما أشير إليها هنا إشارةً.

والحقُّ: أنَّ التَّوراة والإنجيل والزَّبور والقرآن من كلام اللَّه حقيقةً، وكلام اللَّه تعالى لا يتناهى، فإنَّه لم يزل يتكلَّم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

ولو كان ما في المصحف عبارةً عن كلام اللَّه، وليس هو كلام اللَّه، لما حرم على الجنب والمحدث مسُّه، ولو كان ما يقرؤه القارئ ليس كلام اللَّه لما حرم على الجنب قِرَاءَة الْقُرْآنِ.

بل كلام اللَّه محفوظٌ في الصُّدور، مقروءٌ بالألسن، مكتوبٌ في المصاحف، كما قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفقه الأكبر». وهو في هذه المواضع كلِّها حقيقةٌ،

= قَالَ: فَرُعِبَ - قَالَ جَعْفَرٌ: أَحْسَبُهُ قَالَ: جَعَلَ يَتَأَخَّرُ - قَالَ: وَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قُلْ مَا أَقُولُ؟ «قُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ، وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ»، فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ، وَهَزَمَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وضعفه البخاري بقوله: «وفي إسناده نظر». ولمزيد من الكلام حول هذا الحديث انظر: «الإصابة» (٢/ ٣٨٩)، و«تعجيل المنفعة» ترجمة عبد الرحمن بن خنبش.

(١) **صحيح**: وقد تقدم، وأخرجه مسلم بلفظ قريب (حديث ٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

(٢) **صحيح**: أصله في مسلم (مع النووي ١٤/ ١٨٩) بلفظ: «**أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**» أما قوله: «**أَعُوذُ بِعِزَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ**» فعند أبي داود (حديث ٣٨١٩)، والترمذي (حديث ٢٠٨٠)، وابن ماجه (حديث ٣٥٢٢) وسندها صحيح أيضًا.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥/ ٣١٤)، والنسائي في «الاستعاذة» (باب ٦٠)، وأحمد (٢/ ٢٥)، وابن ماجه (٣٨٧١) وغيرهم بلفظ: «**وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**».

وإذا قيل: المكتوب في المصحف كلام فُهم منه معنًى صحيح حقيقي وإذا قيل: فيه خطُّ فلانٍ وكتابته، فهم منه معنًى صحيحٌ حقيقيٌّ، وإذا قيل: فيه مدادٌ قد كتب به، فهم منه معنًى صحيحٌ حقيقيٌّ، وإذا قيل: المداد في المصحف، كانت الظَّرفيَّة فيه غير الظَّرفيَّة المفهومة من قول القائل: فيه السَّموات والأرض، وفيه محمَّدٌ وعيسى، ونحو ذلك. وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه خطُّ فلانٍ الكاتب، وهذه المعاني الثَّلاثة مغايرةٌ لمعنى قول القائل: فيه كلام اللَّه.

ومن لم يتنبَّه للفروق بين هذه المعاني، ضلَّ ولم يهتد للصَّواب.

وكذلك الفرق بين القراءة الَّتي هي فعل القارئ، والمقروء الَّذي هو قول الباري، من لم يهتد له فهو ضالٌّ أيضًا، ولو أنَّ إنسانًا وجد في ورقةٍ مكتوبًا:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّه باطلٌ ....

من خطِّ كاتبٍ معروفٍ. لقال: هذا من كلام لبيدٍ حقيقةً، وهذا خطُّ فلانٍ حقيقةً، وهذا كلُّ شيءٍ حقيقةً، وهذا حِبْرٌ حقيقةً، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى.

والقرآن في الأصل: مصدرٌ، فتارةً يذكر ويراد به القراءة، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨].

وقال ﷺ: **«زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»**(١).

وتارةً يذكر ويراد به المقروء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: الآية ٩٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٤].

وقال ﷺ: **«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»**(٢). إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدَّالَّة على كلٍّ من المعنيين المذكورين. فالحقائق لها وجودٌ عينيٌّ وذهنيٌّ ولفظيٌّ ورسميٌّ، ولكنَّ الأعيان تعلم، ثمَّ تذكر، ثمَّ تكتب. فكتابتها في

---

(١) **صحيح**: وأخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٣)، وأبو داود في الصلاة (٢/ ٣٥٦)، والنسائي في الصلاة (١/ ٣٤٠)، وابن ماجه (٢١٥)، وغيرهم وله طرق أُخر.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٤١٩)، ومسلم (حديث ٨١٨).

المصحف هي المرتبة الرَّابعة.

وأمَّا الكلام: فإنَّه ليس بينه وبين المصحف واسطةٌ، بل هو الَّذي يكتب بلا واسطةِ ذِهْنٍ ولا لسانٍ.

والفرق بين كونه في زبر الأوَّلين، وبين كونه في رقٍّ منشورٍ، أو كتابٍ مكنونٍ واضحٌ.

فقوله عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشُّعَراء: الآية ١٩٦]، أي ذكره ووصفه والإخبار عنه، كما أنَّ محمَّدًا مكتوبٌ عندهم. إذ القرآن أنزله اللَّه على محمَّدٍ، لم ينزله على غيره أصلًا، ولهذا قال: (في الزُّبر)، ولم يقل: في الصُّحف، ولا في الرَّقِّ، لأنَّ (الزُّبر) جمع (زبورٍ) و(الزَّبْرُ) هو: الكتابة والجمع، فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشُّعَراء: الآية ١٩٦] أي مزبور الأوَّلين، ففي نفس اللَّفظ واشتقاقه ما يبيِّن المعنى المراد، ويبيِّن كمال بيان القرآن وخلوصه من اللَّبس. وهذا مثل قوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦]، أي: ذكره، بخلاف قوله: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطُّور: الآية ٣] أو ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البُروج: الآية ٢٢] أو ﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقِعَة: الآية ٧٨]، لأنَّ العامل في الظَّرف إمَّا أن يكون من الأفعال العامَّة، مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدَّر: مكتوبٌ في كتابٍ، أو في رقٍّ.

والكتاب: تارةً يذكر ويراد به محلُّ الكتابة، وتارةً يذكر ويراد به الكلام المكتوب. ويجب التَّفريق بين كتابة الكلام في الكتاب، وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه، فإنَّ تلك إنَّما يكتب ذكرها. وكلَّما تدبَّر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

وحقيقة كلام اللَّه تعالى الخارجيَّة: هي ما يسمع منه أو من المبلِّغ عنه، فإذا سمعه السَّامع علمه وحفظه. فكلام اللَّه مسموعٌ له معلومٌ محفوظٌ، فإذا قاله السَّامع فهو مقروءٌ له متلوٌّ، فإن كتبه فهو مكتوبٌ له مرسومٌ. وهو حقيقةٌ في هذه الوجوه كلِّها لا يصحُّ نفيه. والمجاز يصحُّ نفيه، فلا يجوز أن يقال: ليس في المصحف كلام اللَّه، ولا: ما قرأ القارئ كلام اللَّه، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبَة: الآية ٦]. وهو لا يسمع كلام اللَّه من اللَّه، وإنَّما يسمعه من مبلِّغه عن اللَّه. والآية تدلُّ على فساد قول من قال: إنَّ المسموع

عبارةٌ عن كلام اللَّه وليس هو كلام اللَّه، فإنَّه تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦]، ولم يقل: حتَّى يسمع ما هو عبارةٌ عن كلام اللَّه. والأصل الحقيقة. ومن قال: إنَّ المكتوب في المصاحف عبارةٌ عن كلام اللَّه، أو حكاية كلام اللَّه، وليس فيها كلام اللَّه: فقد خالف الكتاب والسُّنَّة وسلف الأمَّة، وكفى بذلك ضلالًا.

وكلام الطَّحاويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ يردُّ قول من قال: إنَّه معنًى واحدٌ لا يتصوَّر سماعه منه، وأنَّ المسموع المنزَّل المقروء والمكتوب ليس كلام اللَّه، وإنَّما هو عبارةٌ عنه. فإنَّ الطَّحاويَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: **كلام اللَّه منه بدا.** وكذلك قال غيره من السَّلف، ويقولون: منه بدا، وإليه يعود. وإنَّما قالوا: منه بدا، لأنَّ الجهميَّة من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون: إنَّه خلق الكلام في محلٍّ، فبدأ الكلام من ذلك المحلِّ. فقال السَّلف: منه بدا أي هو المتكلِّم به، فمنه بدا، لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزُّمَر: الآية ١]. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السَّجدة: الآية ١٣]. ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: الآية ١٠٢]. ومعنى قولهم: وإليه يعود: يرفع من الصُّدور والمصاحف، فلا يبقى في الصُّدور منه آيةٌ ولا في المصاحف. كما جاء ذلك في عدَّة آثارٍ.

وقوله: «بلا كيفيَّةٍ» أي: لا تعرف كيفيَّة تكلُّمه به قولًا ليس بالمجاز، وأنزله على رسوله وحيًا، أي: أنزله إليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبريل من اللَّه، وسمعه الرَّسول ﷺ من الملك، وقرأه على النَّاس. قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٠٦]. وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٩٣-١٩٥]. وفي ذلك إثبات صفة العلوِّ للَّه تعالى.

وقد أورد على ذلك أنَّ إنزال القرآن نظير إنزال المطر، وإنزال الحديد، وإنزال ثمانية أزواجٍ من الأنعام.

والجواب: أنَّ إنزال القرآن فيه مذكورٌ أنَّه إنزالٌ من اللَّه. قال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢]. وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزُّمَر: الآية ١]. وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فُصِّلت: الآية ٢].

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٣- ٥]. وقال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: الآية ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: الآية ١١٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: الآية ١٠٢]. وإنزال المطر مقيَّدٌ بأنَّه منزَّلٌ من السَّماء. قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: الآية ٩٩]. والسَّماء: العلوُّ. وقد جاء في مكانٍ آخر: أنَّه منزَّلٌ من المزن، والمزن: السَّحاب. وفي مكانٍ آخر أنَّه منزَّلٌ من المعصرات. وإنزال الحديد والأنعام مطلقٌ، فكيف يشتبه هذا الإنزال بهذا الإنزال، وهذا الإنزال بهذا الإنزال؟! فالحديد إنَّما يكون من المعادن الَّتي في الجبال، وهي عاليةٌ على الأرض، وقد قيل: إنَّه كلَّما كان معدنه أعلى كان حديده أجود. والأنعام تخلق بالتَّوالد المستلزم إنزال الذُّكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال: «أنزل» «ولم ينزِّل» ثمَّ الأجنَّة تنزل من بطون الأمَّهات إلى وجه الأرض. ومن المعلوم أنَّ الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علوٍ إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علوٍ إلى سفلٍ. وعلى هذا فيحتمل قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦]: وجهين:

أحدهما: أن تكون (من) لبيان الجنس.

الثَّاني: أن تكون (من) لابتداء الغاية. وهذان الوجهان يحتملان في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى: الآية ١١].

وقوله: «وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقًّا» الإشارة إلى ما ذكره من التَّكلُّم به على الوجه المذكور وإنزاله، أي: هذا قول الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسانٍ، وهم السَّلف الصَّالح، وأنَّ هذا حقٌّ وصدقٌ.

وقوله: «وأيقنوا أنَّه كلام اللَّه تعالى بالحقيقة ليس بمخلوقٍ ككلام البريَّة». ردٌّ على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهرٌ. وفي قوله: «بالحقيقة» ردٌّ على من قال: إنَّه معنًى واحدٌ قام بذات اللَّه لم يسمع منه وإنَّما هو الكلام النَّفسانيُّ، لأنَّه لا يقال لمن قام به الكلام النَّفسانيُّ ولم يتكلَّم به: أنَّ هذا كلامٌ حقيقةً، وإلَّا للزم أن يكون

الأخرس متكلِّمًا، ولزم أن لا يكون الَّذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام اللَّه، ولكن عبارةً عنه ليست هي كلام اللَّه، كما لو أشار أخرس إلى شخصٍ بإشارةٍ فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشَّخص عبارته عن المعنى الَّذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشَّخص عن ذلك المعنى. وهذا المثل مطابقٌ غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان اللَّه تعالى لا يسمِّيه أحدٌ أخرس، لكن عندهم أنَّ الملك فهم منه معنًى قائمًا بنفسه، لم يسمع منه حرفًا ولا صوتًا، بل فهم معنًى مجرَّدًا، ثمَّ عبَّر عنه، فهو الَّذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربيَّ، أو أنَّ اللَّه خلق في بعض الأجسام كالهواء الَّذي هو دون الملك هذه العبارة.

ويقال لمن قال إنَّه معنًى واحدٌ: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟ فإن قال: سمعه كلَّه، فقد زعم أنَّه سمع جميع كلام اللَّه وفساد هذا ظاهرٌ. وإن قال: بعضه، فقد قال يتبعَّض. وكذلك كلُّ من كلَّمه اللَّه أو أنزل إليه شيئًا من كلامه.

ولمَّا قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية ٣٠]. ولمَّا قال لهم: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: الآية ٣٤]. وأمثال ذلك: هل هذا جميع كلامه أو بعضه؟ فإن قال: إنَّه جميعه، فهذا مكابرةٌ، وإن قال: بعضه، فقد اعترف بتعدُّده.

وقوله: «ومن سمعه، وقال: إنَّه كلام البشر، فقد كفر»: لا شكَّ في تكفير من أنكر أنَّ القرآن كلام اللَّه، بل قال: إنَّه كلام محمَّدٍ أو غيره من الخلق، ملكًا كان أو بشرًا. وأمَّا إذا أقرَّ أنَّه كلام اللَّه، ثمَّ أوَّل وحرَّف فقد وافق قول من قال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: الآية ٢٥]. في بعض ما به كفر، وأولئك الَّذين استزلَّهم الشَّيطان - وسيأتي الكلام عليه عند قول الشَّيخ: **«ولا نكفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنبٍ ما لم يستحلَّه»** إن شاء اللَّه تعالى.

وقوله: «ولا يشبه قول البشر»: يعني: أنَّه أشرف وأفصح وأصدق. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٨٧] وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ الآية [الإسراء: الآية ٨٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: الآية ١٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

فلمَّا عجزوا - وهم فصحاء العرب، مع شدَّة العداوة - عن الإتيان بسورةٍ مثله، تبيَّن صدق الرَّسول ﷺ أنَّه من عند اللَّه. وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من جهة أحدهما فقط. هذا مع أنَّه قرآنٌ عربيٌّ غير ذي عوجٍ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، أي باللغة العربيَّة. فنفي المشابهة من حيث التَّكلُّم، ومن حيث النَّظم والمعنى، لا من حيث الكلمات والحروف. وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطَّعة في أوائل السُّور، أي: أنَّه في أسلوب كلامهم وبلغتهم الَّتي يتخاطبون بها. ألا ترى أنَّه يأتي بعد الحروف المقطَّعة بذكر القرآن؟ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الآية [آل عمران: ١-٣] ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: الآية ١]. وكذلك الباقي، ينبِّههم أنَّ هذا الرَّسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه، بل خاطبكم بلسانكم.

ولكنَّ أهل المقالات الفاسدة يتذرَّعون بمثل هذا إلى نفي تكلُّم اللَّه به، وسماع جبريل منه، كما يتذرَّعون بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: الآية ١١]، إلى نفي الصِّفات. وفي الآية ما يردُّ عليهم قولهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]. كما في قوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: الآية ٣٨] ما يردُّ على من ينفي الحرف، فإنَّه قال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ [البقرة: الآية ٢٣]، ولم يقل فأتوا بحرفٍ، أو بكلمةٍ. وأقصر سورةٍ في القرآن ثلاث آياتٍ. ولهذا قال أبو يوسف ومحمَّدٌ رحمهما اللَّه: إنَّ أدنى ما يجزئ في الصَّلاة ثلاث آياتٍ قصارٍ أو آيةٌ طويلةٌ؛ لأنَّه لا يقع الإعجاز بدون ذلك. واللَّه أعلم.

* * *

متن الطحاوية

قوله: «وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّه بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ»

الشرح

لمَّا ذكر فيما تقدَّم أنَّ القرآن كلام اللَّه حقيقةً، منه بدا، نبَّه بعد ذلك على أنَّه تعالى بصفاته ليس كالبشر، نفيًا للتَّشبيه عقيب الإثبات، يعني أنَّ اللَّه تعالى وإن وصف بأنَّه متكلِّمٌ، لكن لا يوصف بمعنًى من معاني البشر الَّتي يكون الإنسان بها متكلِّمًا، فإنَّ اللَّه ليس كمثله شيءٌ وهو السَّميع البصير. وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصِّفات من غير تشبيهٍ ولا تعطيلٍ، باللَّبن الخالص السَّائغ للشَّاربين، يخرج من بين فرث التَّعطيل ودم التَّشبيه. والمعطِّل يعبد عدمًا، والمشبِّه يعبد صنمًا. ويأتي في كلام الشَّيخ، **«ومن لم يتوقَّ النَّفي والتَّشبيه، زلَّ ولم يصب التَّنزيه»**. وكذا قوله: **«وهو بين التَّشبيه والتَّعطيل»** أي: دين الإسلام، ولا شكَّ أنَّ التَّعطيل شرٌّ من التَّشبيه، لما سأذكره إن شاء اللَّه تعالى. وليس ما وصف اللَّه به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهًا، بل صفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

وقوله: «فمن أبصر هذا اعتبر». أي: من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف ونفي التَّشبيه ووعيد المشبَّه اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفَّار.

❊ ❊ ❊

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَلِمَهُ. وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ عز وجل وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ

الشرح

المخالف في الرُّؤية: الجهميَّة والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإماميَّة. وقولهم باطلٌ مردودٌ بالكتاب والسُّنَّة. وقد قال بثبوت الرُّؤية الصَّحابة والتَّابعون، وأئمَّة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدِّين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السُّنَّة والجماعة.

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدِّين وأجلِّها، وهي الغاية الَّتي شمَّر إليها المشمِّرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحُرِمَهَا الَّذين هم عن ربِّهم محجوبون، وعن بابه مطرودون.

وقد ذكر الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من الأدلَّة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وهي من أظهر الأدلَّة. وأمَّا مَنْ أَبَى إلَّا تحريفها بما يسمِّيه تأويلًا، فتأويل نصوص المعاد والجنَّة والنَّار والحساب، أسهل من تأويلها على أرباب التَّأويل. ولا يشاء مبطلٌ أن يتأوَّل النُّصوص ويحرِّفها عن مواضعها إلَّا وجد إلى ذلك من السَّبيل ما وجده متأوِّل هذه النُّصوص.

وهذا الَّذي أفسد الدُّنيا والدِّين. وهكذا فعلت اليهود والنَّصارى في نصوص التَّوراة والإنجيل، وحذَّرنا اللَّه أن نفعل مثلهم. وأَبَى المبطلون إلَّا سلوك سبيلهم، وكم جنى التَّأويل الفاسد على الدِّين وأهله من جنايةٍ. فهل قُتِل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلَّا بالتَّأويل الفاسد؟! وكذا ما جرى في يوم الجمل، وصفِّين، ومقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحرَّة؟ وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الرَّوافض،

وافترقت الأمَّة على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، إلَّا بالتَّأويل الفاسد؟! وإضافة النَّظر إلى الوجه الَّذي هو محلُّه في هذه الآية، وتعديته بأداة «إلى»[(١)] الصَّريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينةٍ تدلُّ على خلافه حقيقة موضوعة صريحة في أنَّ اللَّه أراد بذلك نظر العين الَّتي في الوجه إلى الرَّبِّ جلَّ جلاله.

فإنَّ النَّظر له عدَّة استعمالاتٍ، بحسب صِلَاتِهِ وتعدِّيه بنفسه: فإن عدِّي بنفسه فمعناه: التَّوقُّف والانتظار، ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: الآية ١٣]. وإن عدِّي بـ «في» فمعناه: التَّفكُّر والاعتبار، كقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٥]. وإن عدِّي بـ «إلى» فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: الآية ٩٩]. فكيف إذا أضيف إلى الوجه الَّذي هو محلُّ البصر؟

وقال عكرمة: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢﴾ [القيامة: الآية ٢٢]، قال: من النَّعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: الآية ٢٣]، قال: تنظر إلى ربِّها نظرًا، ثمَّ حكى عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما مثله.

وهذا قول كلِّ مفسِّرٍ من أهل السُّنَّة والحديث.

وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق: الآية ٣٥]. قال عدد من العلماء: هو النَّظر إلى وجه اللَّه عز وجل.

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: الآية ٢٦] «**فالحسنى: الجنَّة، والزِّيادة: هي النَّظر إلى وجهه الكريم**»، فسَّرها بذلك رسول اللَّه ﷺ والصَّحابة من بعده، كما روى مسلمٌ في «**صحيحه**» عن صهيبٍ، قال: قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: الآية ٢٦]، قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا وَيُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ**»، وَهِيَ الزِّيَادَةُ[(٢)].

---

(١) يعني: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٨١) من طريق حمَّاد بن سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا** =

وبهذا قال عدد من الصحابة وأهل العلم، قالوا: معناها: أنَّ الزِّيادة النَّظر إلى وجه الله ﷻ.

روى ذلك ابن جريرٍ عن جماعةٍ، منهم: أبو بكرٍ الصِّدِّيق، وحذيفة، وأبو موسى الأشعريُّ، وابن عبَّاسٍ ﷺ.

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: الآية ١٥]. احتجَّ الشَّافعيُّ رحمه الله وغيره من الأئمَّة بهذه الآية على الرُّؤية لأهل الجنَّة، ذكر ذلك الطَّبريُّ وغيره عن المزنيِّ عن الشَّافعيِّ. وقال الحاكم: حدَّثنا الأصمُّ حدَّثنا الرَّبيع ابن سليمان قال: حضرت محمَّد بن إدريس الشَّافعيَّ رحمه الله، وقد جاءته رقعةٌ من الصَّعيد فيها: ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: الآية ١٥]؟ فقال الشَّافعيُّ: لمَّا أنَّ حجب هؤلاء في السُّخط، كان في هذا دليلٌ على أنَّ أولياءه يرونه في الرِّضا.

الجواب على من استدل بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣] على نفي الرؤية:

وأمَّا استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]، وبقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]. فالآيتان دليلٌ عليهم.

أما الآية الأولى: فالاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوهٍ:

أحدها: أنَّه لا يظنُّ بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم النَّاس بربِّه في وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثَّاني: أنَّ الله لم ينكر عليه سؤاله، ولمَّا سأل نوحٌ ربَّه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: الآية ٤٦].

الثَّالث: أنَّه تعالى قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]، ولم يقل: إنِّي لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئيٍّ. والفرق بين الجوابين ظاهرٌ. ألا ترى أنَّ من كان في كمِّه حجرٌ فظنَّه رجلٌ طعامًا فقال: أطعمنيه، فالجواب الصَّحيح: إنَّه لا يؤكل،

= أَحَبَّ إِلَيهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ».

وقد أعلَّ الدارقطني رحمه الله إسناد هذا الحديث فقال: رواه حماد بن زيد عن ابن أبي ليلى. قوله. انتهى.

أمَّا إذا كان طعامًا صحَّ أن يقال: إنَّك لن تأكله. وهذا يدلُّ على أنَّه سبحانه مرئيٌّ، ولكنَّ موسى عليه السلام لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدَّار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى. يوضِّحه:

الوجه الرَّابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]. فأعلمه أنَّ الجبل مع قوَّته وصلابته لا يثبت للتَّجلِّي في هذه الدَّار، فكيف بالبشر الَّذي خلق من ضعفٍ؟

الخامس: أنَّ اللَّه سبحانه قادرٌ على أن يجعل الجبل مستقرًّا، وذلك ممكنٌ، وقد علَّق به الرُّؤية، ولو كانت محالًا لكان نظير أن يقول: إن استقرَّ الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام. والكلُّ عندهم سواءٌ.

السَّادس: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]، فإذا جاز أن يتجلَّى للجبل الَّذي هو جمادٌ لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلَّى لرسله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكنَّ اللَّه تعالى أعلم موسى عليه السلام أنَّ الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدَّار، فالبشر أضعف.

السَّابع: أنَّ اللَّه كلَّم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التَّكلُّم والتَّكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطةٍ فرؤيته أَوْلَى بالجواز؛ ولهذا لا يتمُّ إنكار رؤيته إلَّا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما. وأمَّا دعواهم تأبيد النَّفي بـ«لن» وأنَّ ذلك يدلُّ على نفي الرُّؤية في الآخرة، ففاسدٌ، فإنَّها لو قيِّدت بالتَّأبيد لا يدلُّ على دوام النَّفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: الآية ٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: الآية ٧٧]. ولأنَّها لو كانت للتَّأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ [يوسف: الآية ٨٠]. فثبت أنَّ «لن» لا تقتضي النَّفي المؤبَّد.

قال الشَّيخ جمال الدِّين بن مالكٍ رحمه الله:

ومن رأى النَّفي بلن مؤبَّدًا فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأمَّا الآية الثَّانية: فالاستدلال بها على الرُّؤية من وجهٍ حسنٍ لطيفٍ، وهو: أنَّ اللَّه تعالى إنَّما ذكرها في سياق التَّمدُّح، ومعلومٌ أنَّ المدح إنَّما يكون بالصِّفات الثُّبوتيَّة، وأمَّا العدم المحض فليس بكمالٍ فلا يمدح به، وإنَّما يمدح الرَّبُّ تعالى

بالنَّفي إذا تضمَّن أمرًا وجوديًّا، كمدحه بنفي السِّنة والنَّوم، المتضمِّن كمال القيُّوميَّة، ونفي الموت المتضمِّن كمال الحياة، ونفي اللُّغوب والإعياء، المتضمِّن كمال القدرة، ونفي الشَّريك والصَّاحبة والولد والظَّهير، المتضمِّن كمال ربوبيَّته وإلهيَّته وقهره، ونفي الأكل والشُّرب المتضمِّن كمال صمديته وغناه، ونفي الشَّفاعة عنده إلَّا بإذنه المتضمِّن كمال توحُّده وغناه عن خلقه، ونفي الظُّلم، المتضمِّن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النِّسيان وعزوب شيءٍ عن علمه، المتضمِّن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل، المتضمِّن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يتمدَّح بعدمٍ محضٍ لا يتضمَّن أمرًا ثبوتيًّا، فإنَّ المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدمِ، ولا يوصف الكامل بأمرٍ يشترك هو والمعدوم فيه، فإنَّ المعنى: أنَّه يُرَى ولا يُدْرَكُ ولا يُحَاطُ به، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]، يدلُّ على كمال عظمته، وأنَّه أكبر من كلِّ شيءٍ، وأنَّه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإنَّ الإدراك هو الإحاطة بالشَّيء، وهو قدرٌ زائدٌ على الرُّؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فلم ينف موسى عليه السلام الرُّؤية، وإنَّما نفى الإدراك، فالرُّؤية والإدراك كلٌّ منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرَّبُّ تعالى يُرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به علمًا، وهذا هو الَّذي فهمه الصَّحابة والأئمَّة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية. بل هذه الشَّمس المخلوقة لا يَتَمَكَّنُ رائيها من إدراكها على ما هي عليه.

وأمَّا الأحاديث عن النَّبيِّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، الدَّالَّة على الرُّؤية فمتواترةٌ، رواها أصحاب الصِّحاح والمسانيد والسُّنن.

فمنها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول اللَّه، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**» قالوا: لا يا رسول اللَّه، قال: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قالوا: لا، قال: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»[١]، الحديث، أخرجاه في «الصحيحين» بطوله.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٧٤٣٧)، ومسلم (حديث ١٨٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

وحديث أبي سعيدٍ الخدريِّ أيضًا في «الصحيحين»[١] نظيره.

وحديث جرير بن عبد اللَّه البجليِّ، قال: كنَّا جلوسًا مع النَّبيِّ ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: إنَّكم سترون ربَّكم عيانًا، كما ترون هذا، لا تضامُّون في رؤيته[٢]، الحديث أخرجاه في «الصحيحين».

وحديث صهيبٍ رضي الله عنه المتقدِّم، رواه مسلمٌ وغيره.

وحديث أبي موسى عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**»[٣]، أخرجاه في «الصحيحين».

ومن حديث عديِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه: «**وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ**»[٤]. الحديث أخرجه البخاريُّ في «صحيحه».

وقد روى أحاديث الرُّؤية نحو ثلاثين صحابيًّا، ومن أحاط بها معرفةً يقطع بأنَّ الرَّسول قالها، ولولا أنِّي التزمت الاختصار لَسُقْتُ ما في الباب من الأحاديث.

ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النَّبويَّة، فإنَّ فيها مع إثبات الرُّؤية أنَّه يكلِّم من شاء إذا شاء، وأنَّه يأتي للخلق لفصل القضاء يوم القيامة، وأنَّه فوق العالم، وأنَّه يناديهم بصوتٍ يسمعه مَنْ بَعُدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ، وأنَّه يتجلَّى لعباده، وأنَّه يضحك، إلى غير ذلك من الصِّفات الَّتي سماعها على الجهميَّة بمنزلة الصَّواعق.

وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب اللَّه وسنَّة رسوله؟ وكيف يفسَّر كتاب اللَّه بغير ما فسَّره به رسوله ﷺ وأصحاب رسوله، الَّذين نزل القرآن بلغتهم؟

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٤٣٩)، ومسلم (حديث ١٨٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٧٤٣٦) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٦٣٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٧٤٤٤)، ومسلم (حديث ١٨٠).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١٤١٣)، وأصله عند مسلم (حديث ١٠١٦).

وليس تشبيه رؤية اللَّه تعالى برؤية الشَّمس والقمر تشبيهًا للَّه، بل هو تشبيه الرُّؤية بالرُّؤية، لا تشبيه المرئيِّ بالمرئيِّ، ولكن فيه دليلٌ على علوِّ اللَّه على خلقه. وإلَّا فهل تعقل رؤيةٌ بلا مقابلةٍ؟ ومن قال: يرى لا في جهةٍ، فليراجع عقله!! فإمَّا أن يكون مكابرًا لعقله أو في عقله شيءٌ، وإلَّا فإذا قال: يُرى، لا أمام الرَّائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، ردَّ عليه كلُّ من سمعه بفطرته السَّليمة.

ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلوَّ بالذَّات بنفي الرُّؤية، وقالوا: كيف تعقل رؤيةٌ بغير جهةٍ؟!

وإنَّما لم نره في الدُّنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرُّؤية، فهذه الشَّمس إذا حدَّق الرَّائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها، لا لامتناعٍ في ذات المرئيِّ، بل لعجز الرَّائي، فإذا كان في الدَّار الآخرة أكمل اللَّه قُوى الآدميِّين حتَّى أطاقوا رؤيته. ولهذا لمَّا تجلَّى اللَّه للجبل، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] ، بأنَّه لا يراك حيٌّ إلَّا مات، ولا يابسٌ إلَّا تَدَهْدَهَ، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته، إلَّا من أيَّده اللَّه كما أيَّد نبيَّنا، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأنعام: الآية ٨]. قال غير واحدٍ من السَّلف: لا يطيقون أن يروا الملك في صورته، فلو أنزلنا عليهم ملكًا لجعلناه في صورة بشرٍ، وحينئذٍ يشتبه عليهم: هل هو بشرٌ أو ملكٌ؟ ومن تمام نعمة اللَّه علينا أن بعث فينا رسولًا منَّا.

وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام إلَّا لمَّا وافقوهم على أنَّه لا داخل العالم ولا خارجه. لكنَّ قول من أثبت موجودًا يرى لا في جهةٍ، أقرب إلى العقل من قول من أثبت موجودًا قائمًا بنفسه لا يُرى ولا في جهةٍ.

وكيف يتكلَّم في أصول الدِّين من لا يتلقَّاه من الكتاب والسُّنَّة، وإنَّما يتلقَّاه من قول فلانٍ؟! وإذا زعم أنَّه يأخذه من كتاب اللَّه لا يتلقَّى تفسير كتاب اللَّه من أحاديث الرَّسول ﷺ، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصَّحابة والتَّابعون لهم بإحسانٍ، المنقول إلينا عن الثِّقات النَّقلة، الَّذين تخيَّرهم النُّقَّاد، فإنَّهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده، بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلَّمون القرآن كما يتعلَّم

الصِّبيان، بل يتعلَّمونه بمعانيه.

ومن لا يسلك سبيلهم فإنَّما يتكلَّم برأيه، ومن يتكلَّم برأيه وما يظنُّه دين اللَّه ولم يتلقَّ ذلك من الكتاب والسُّنَّة فهو مأثومٌ وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسُّنَّة فهو مأجورٌ وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره.

وقوله: (والرُّؤية حقٌّ لأهل الجنَّة) تخصيص أهل الجنَّة بالذِّكر، يفهم منه نفي الرُّؤية عن غيرهم.

ولا شكَّ في رؤية أهل الجنَّة لربِّهم في الجنَّة، وكذلك يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنَّة، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» عن رسول اللَّه ﷺ(١).

ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٤].

واختلف في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوالٍ:

أحدها: أنَّه لا يراه إلَّا المؤمنون.

الثَّاني: يراه أهل الموقف، مؤمنهم وكافرهم، ثمَّ يحتجب عن الكفَّار ولا يرونه بعد ذلك.

الثَّالث: يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقيَّة الكفَّار وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف، وهل رأى النبي ﷺ ربه ﷻ.

واتَّفقت الأمَّة على أنَّه لا يراه أحدٌ في الدُّنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلَّا في نبيِّنا ﷺ خاصَّةً: منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ. وحكى القاضي عياضٌ في كتابه «الشِّفا» اختلاف الصَّحابة ﷺ ومن بعدهم في رؤيته ﷺ،

---

(١) يريد المصنف فيما يبدو لي حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه البخاري (حديث ٧٤٣٧)، ومسلم (حديث ١٨٢)، عن النبي ﷺ وفيه أن ناسًا قالوا لرسول الله ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فذكر الحديث وفيه: «**يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا**».

وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون ﷺ رأى ربَّه بعين رأسه، وأنَّها قالت لمسروقٍ حين سألها: هل رأى محمَّدٌ ربَّه؟ فقالت: لقد قفَّ شعري ممَّا قلت، ثمَّ قالت: من حدَّثك أنَّ محمَّدًا رأى ربَّه فقد كذب(١).

ثمَّ قال: وقال جماعةٌ بقول عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور عن ابن مسعودٍ(٢) وأبي هريرة(٣) واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدُّنيا جماعةٌ من المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين.

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّه ﷺ رأى ربَّه بعينه(٤).

وروى عطاءٌ عنه: أنَّه رآه بقلبه(٥). ثمَّ ذكر أقوالًا وفوائد، ثمَّ قال: وأمَّا وجوبه لنبيِّنا ﷺ والقول بأنَّه رآه بعينه فليس فيه قاطعٌ ولا نصٌّ، والمعوَّل فيه على آية النَّجم، والتَّنازع فيها مأثورٌ، والاحتمال لها ممكنٌ.

وهذا القول الَّذي قاله القاضي عياضٌ رحمه الله هو الحقُّ، فإنَّ الرُّؤية في الدُّنيا ممكنةٌ، إذ لو لم تكن ممكنةً، لما سألها موسى عليه السلام، لكن لم يرد نصٌّ بأنَّه ﷺ رأى ربَّه بعين رأسه، بل ورد ما يدلُّ على نفي الرُّؤية، وهو ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: سألت رسول اللَّه ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ فقال:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٤٨٥٥، ٧٣٨٠)، ومسلم (حديث ١٧٧) وهو عنده مطول وله روايات.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٨٥٦، ٤٨٥٧)، ومسلم (حديث ١٧٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٩، ١٠]، أنه محمد ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح.

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: الآية ١٣]، قال: رأى جبريل.

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٤٧١٦) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: الآية ٦٠] قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: الآية ٦٠]، قال: شجرة الزقوم.

(٥) هي عند مسلم (حديث ١٧٦)، وعند مسلم أيضًا من طريق أبي العالية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: الآية ١١]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: الآية ١٣]، قال: رآه بفؤاده مرتين.

«نورٌ أنّى أَرَاهُ؟»(١). وفي روايةٍ: **«رَأَيْتُ نُورًا»**(٢).

وقد روى مسلمٌ أيضًا عن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ أنَّه قال: قام فينا رسول اللَّه ﷺ بخمس كلماتٍ، فقال: **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ** - وَفِي رِوَايَةٍ: **النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»**(٣).

فيكون - واللَّه أعلم - معنى قوله لأبي ذرٍّ: **«رأيت نورًا»** أنَّه رأى الحجاب، ومعنى قوله: **«نورٌ أنّى أراه»**: النُّور الَّذي هو الحجاب يمنع من رؤيته: **«فأنّى أراه؟»** أي: فكيف أراه والنُّور حجابٌ بيني وبينه يمنعني من رؤيته؟ فهذا صريحٌ في نفي الرُّؤية، واللَّه أعلم.

وحكى عثمان بن سعيدٍ الدَّارميُّ اتِّفاق الصَّحابة على ذلك.

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منَّا إلى تقرير رؤيته لربِّه تعالى، وإن كانت رؤية الرَّبِّ تعالى أعظم وأعلى، فإنَّ النُّبوَّة لا يتوقَّف ثبوتها عليها البتَّة.

وقوله: (بغير إحاطةٍ ولا كيفيَّةٍ) هذا لكمال عظمته وبهائه ﷻ، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به، كما يعلم ولا يُحَاطُ به علمًا. قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠].

وقوله: «وتفسيره على ما أراد اللَّه وعلمه» إلى أن قال: **«لا ندخل في ذلك متأوِّلين بآرائنا ولا متوهِّمين بأهوائنا»** أي: كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسُّنَّة في الرُّؤية، وذلك تحريفٌ لكلام اللَّه وكلام رسوله عن مواضعه. فالتَّأويل الصَّحيح هو الَّذي يوافق ما جاءت به السُّنَّة، والفاسد المخالف له. فكلُّ تأويلٍ بمعنًى لم يدلَّ عليه دليلٌ من السِّياق، ولا معه قرينةٌ تقتضيه، فإنَّ هذا لا يقصده المبيِّن الهادي بكلامه؛ إذ لو قصده لحفَّ بالكلام قرائن تدلُّ على المعنى المخالف لظاهره، حتَّى لا يوقع السَّامع في اللَّبس والخطأ، فإنَّ اللَّه أنزل كلامه بيانًا

---

(١) عند مسلم (حديث ١٧٨).

(٢) عند مسلم (حديث ١٧٨).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ١٧٩).

وهدًى، فإذا أراد به خلاف ظاهره، ولم يحفَّ به قرائن تدلُّ على المعنى الَّذي يتبادر غيره إلى فهم كلِّ أحدٍ، لم يكن بيانًا ولا هدًى. فالتَّأويل إخبارٌ بمراد المتكلِّم لا إنشاءٌ، وفي هذا الموضع يغلط كثيرٌ من النَّاس، فإنَّ المقصود فهم مراد المتكلِّم بكلامه، فإذا قيل: معنى اللَّفظ كذا وكذا، كان إخبارًا بالَّذي عناه المتكلِّم، فإن لم يكن الخبر مطابقًا كان كذبًا على المتكلِّم.

ويعرف مراد المتكلِّم بطرقٍ متعدِّدةٍ:

منها: أن يصرِّح بإرادة ذلك المعنى.

ومنها: أن يستعمل اللَّفظ الَّذي له معنًى ظاهرٌ بالوضع، ولا يبيِّن بقرينةٍ تصحب الكلام أنَّه لم يرد ذلك المعنى، فكيف إذا حفَّ بكلامه ما يدلُّ على أنَّه إنَّما أراد حقيقته وما وضع له كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: الآية ١٦٤]. و«**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»(١). فهذا ممَّا يقطع به السَّامع له بمراد المتكلِّم، فإذا أخبر عن مراده بما دلَّ عليه حقيقة لفظه الَّذي وضع له مع القرائن المؤكِّدة، كان صادقًا في إخباره. وأمَّا إذا تأوَّل الكلام بما لا يدلُّ عليه ولا اقترن به ما يدلُّ عليه، فإخباره بأنَّ هذا مراده كذبٌ عليه، وهو تأويلٌ بالرَّأي، وتوهُّمٌ بالهوى.

وحقيقة الأمر: أنَّ قول القائل: نحمله على كذا، أو: نتأوَّله بكذا، إنَّما هو من باب دفع دلالة اللَّفظ عمَّا وضع له، فإنَّ منازعه لمَّا احتجَّ عليه به ولم يمكنه دفع وروده، دفع معناه وقال: أحمله على خلاف ظاهره.

متن الطحاوية

وقوله: «فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ»

الشرح

أي: سلَّم لنصوص الكتاب والسُّنَّة، ولم يعترض عليها بالشُّكوك والشُّبه

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم قريبًا من حديث أبي هريرة وأبي سعيد مرفوعًا، وانظر أيضًا: حديث جرير عند البخاري (٧٤٣٥).

والتَّأويلات الفاسدة، أو يقول: العقل يشهد بضدِّ ما دلَّ عليه النَّقل، والعقل أصل النَّقل فإذا عارضه قدَّمنا العقل وهذا لا يكون قطُّ. لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك، فإن كان النَّقل صحيحًا فذلك الَّذي يدَّعي أنَّه معقولٌ إنَّما هو مجهولٌ، ولو حقَّق النَّظر لظهر ذلك. وإن كان النَّقل غير صحيحٍ فلا يصلح للمعارضة، فلا يتصوَّر أن يتعارض عقلٌ صريحٌ ونقلٌ صحيحٌ أبدًا.

فالواجب كمال التَّسليم للرَّسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقِّي خبره بالقبول والتَّصديق، دون أن يعارضه بخيالٍ باطلٍ يسمِّيه معقولًا، أو نحمِّله شبهةً أو شكًّا، أو يقدِّم عليه آراء الرِّجال وزبالة أذهانهم، فيوحِّده بالتَّحكيم والتَّسليم والانقياد والإذعان، كما وحَّد المرسل بالعبادة والخضوع والذُّلِّ والإنابة والتَّوكُّل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب اللَّه إلَّا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرَّسول.

فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظِّمه، فإن أذنوا له نفَّذه وقبل خبره، وإلَّا فإن طلب السَّلامة فوَّضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره، وإلَّا حرَّفه عن مواضعه، وسمَّى تحريفه تأويلًا وحملًا، فقال: نؤوِّله ونحمله. فلأن يلقى العبد ربَّه بكلِّ ذنبٍ - ما خلا الإشراك باللَّه - خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال.

بل إذا بلغه الحديث الصَّحيح يعدُّ نفسه كأنَّه سمعه من رسول اللَّه ﷺ، فهل يسوغ أن يؤخِّر قبوله والعمل به حتَّى يعرضه على رأي فلانٍ وكلامه ومذهبه؟ بل كان الفرض المبادرة إلى امتثاله، من غير التفاتٍ إلى سواه، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلانٍ، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصُّه بقياسٍ، بل تهدر الأقيسة وتلغى لنصوصه، ولا يحرَّف كلامه عن حقيقته، لخيالٍ يسمِّيه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهولٌ، وعن الصَّواب معزولٌ، ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلانٍ دون فلانٍ، كائنًا من كان.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أنس بن عياضٍ، حدَّثنا أبو حازمٍ، عن عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جدِّه، قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أحبُّ أنَّ لي به

حُمْرَ النَّعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخةٌ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ جلوسٌ عند بابٍ من أبوابه، فكرهنا أن نفرِّق بينهم، فجلسنا حَجْرَةً، إذ ذكروا آيةً من القرآن، فتماروا فيها، حتَّى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول اللَّه ﷺ مغضبًا، قد احمرَّ وجهه يرميهم بالتُّراب، ويقول: «**مهلًا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعضٍ، إنَّ القرآن لم ينزل يكذِّب بعضه بعضًا، وإنما نزل يُصَدِّق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه**»(١).

ولا شكَّ أنَّ اللَّه قد حرَّم القول عليه بغير علمٍ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦].

فعلى العبد أن يجعل ما بعث اللَّه به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الَّذي يجب اتِّباعه، فيصدِّق بأنَّه حقٌّ وصدقٌ، وما سواه من كلام سائر النَّاس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حقٌّ، وإن خالفه فهو باطلٌ، وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه لكون ذلك الكلام مجملًا لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرَّسول بتصديقه أو بتكذيبه - فإنَّه يمسك عنه، ولا يتكلَّم إلَّا بعلمٍ، والعلم ما قام عليه الدَّليل، والنَّافع منه ما جاء به الرَّسول.

وقد يكون علمٌ عن غير الرَّسول، لكن في الأمور الدُّنيويَّة، مثل الطِّبِّ والحساب والفلاحة، وأمَّا الأمور الإلهيَّة والمعارف الدِّينيَّة، فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرَّسول لا غير.

❊ ❊ ❊

(١) **إسناده حسن**: وأخرجه أحمد (في المسند ٢/ ١٨١) وفي مواطن أُخر.

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِسْلَامِ»

الشرح

هذا من باب الاستعارة؛ إذ القدم الحسِّيُّ لا تثبت إلَّا على ظهر شيءٍ. أي لا يثبت إسلام من لم يسلِّم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه. روى البخاريُّ عن الإمام محمَّد بن شهابٍ الزُّهريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: مِنَ اللَّه الرِّسالة، ومِنَ الرَّسول البلاغ، وعلينا التَّسليم(١). وهذا كلامٌ جامعٌ نافعٌ.

متن الطحاوية

قوله: «فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ، حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ، وَصَافِي الْمَعْرِفَةِ، وَصَحِيحِ الْإِيمَانِ»

الشرح

هذا تقريرٌ للكلام الأوَّل، وزيادة تحذيرٍ أن يتكلَّم في أصول الدِّين - بل وفي غيرها - بغير علم، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٣، ٤] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج: ٨، ٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: الآية ٥٠] وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: الآية ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات الدَّالَّة على هذا المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في «كتاب التوحيد»، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: الآية ٦٧]، قال الزهري: مِنَ الله ﷻ الرسالة وعلى رسول الله البلاغ وعلينا التسليم. (البخاري مع الفتح ط. دار المعرفة ٣/ ٥٠٣) قبيل حديث (٧٥٣٠).

وعن أبي أمامة الباهليِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما ضلَّ قومٌ بعد هدًى كانوا عليه إلَّا أوتوا الجدل»** ثمَّ تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: الآية ٥٨][(١)]. رواه التِّرمذيُّ، وقال: حديثٌ حسنٌ.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»**[(٢)]. خرَّجاه في «الصحيحين».

ولا شكَّ أنَّ من لم يسلِّم للرَّسول نقص توحيده، فإنَّه يقول برأيه وهواه، أو يقلِّد ذا رأيٍ وهوًى بغير هدًى من اللَّه، فينقص من توحيده بقدر خروجه عمَّا جاء به الرَّسول، فإنَّه قد اتَّخذه في ذلك إلهًا غير اللَّه. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣] أي: عَبَدَ ما تهواه نفسه. وإنَّما دخل الفساد في العالم من ثلاث فِرَقٍ، كما قال عبد اللَّه بن المبارك رحمة اللَّه عليه:

رَأَيْتُ الذُّنوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وقَـدْ يُـورِثُ الـذُّلَّ إِدْمانُـهَـا
وتَرْكُ الذُّنوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وخَـيْـرٌ لِـنَـفْـسِـكَ عِـصْـيـانُـهَـا
وهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الملوكُ ... وأَحْـبَـارُ سُـوءٍ وَرُهْـبَـانُـهَـا

فالملوك الجائرة يعترضون على الشَّريعة بالسِّياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدِّمونها على حكم اللَّه ورسوله.

وأحبار السُّوء، وهم العلماء الخارجون عن الشَّريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، المتضمِّنة تحليل ما حرَّم اللَّه ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيَّده، وتقييد ما أطلقه، ونحو ذلك.

والرُّهبان وهم جُهَّالُ المتصوِّفة، المعترضون على حقائق الإيمان والشَّرع، بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشَّيطانيَّة، المتضمِّنة شرع دينٍ لم يأذن به اللَّه، وإبطال دينه الَّذي شرعه على لسان نبيِّه ﷺ، والتَّعوُّض عن حقائق الإيمان بخدع الشَّيطان وحظوظ النَّفس.

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي رحمه الله (حديث ٣٢٥٣)، والحديث أيضًا أخرجه (٥/ ٢٥٦)، وابن ماجه (حديث ٤٨) وغيرهما.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٤٥٧)، وفي غير موضع، ومسلم (٢٦٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

فقال الأوَّلون: إذا تعارضت السِّياسة والشَّرع قدَّمنا السِّياسة!

وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنَّقل قدَّمنا العقل!

وقال أصحاب الذَّوق: إذا تعارض الذَّوق والكشف وظاهر الشَّرع قدَّمنا الذَّوق والكشف.

كلام لأبي حامد الغزالي في علم الكلام وبيانه بطلان هذا العلم:

ومن كلام أبي حامدٍ الغزاليِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الَّذي سمَّاه «إحياء علوم الدِّين» وهو من أجلِّ كتبه، أو أجلِّها: فإن قلت: فعلم الجدل والكلام مذمومٌ كعلم النُّجوم أو هو مباحٌ أو مندوبٌ إليه. فاعلم أنَّ للنَّاس في هذا غلوًّا وإسرافًا في أطرافٍ. فمن قائلٍ: إنَّه بدعةٌ وحرامٌ، وإنَّ العبد أن يلقى اللَّه بكلِّ ذنبٍ سوى الشِّرك خيرٌ له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائلٍ: إنَّه فرضٌ، إمَّا على الكفاية، وإمَّا على الأعيان، وإنَّه أفضل الأعمال وأعلى القربات، فإنَّه تحقيقٌ لعلم التَّوحيد ونضالٌ عن دين اللَّه.

قال: وإلى التَّحريم ذهب الشَّافعيُّ ومالكٌ وأحمد بن حنبلٍ وسفيان وجميع أئمَّة الحديث من السَّلف وساق الألفاظ عن هؤلاء.

قال: وقد اتَّفق أهل الحديث من السَّلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التَّشديدات فيه، وقالوا: ما سكت عنه الصَّحابة - مع أنَّهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلَّا لما يتولَّد منه من الشَّرِّ؛ ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»[١]. أي: المتعمِّقون في البحث والاستقصاء.

واحتجُّوا أيضًا بأنَّ ذلك لو كان من الدِّين لكان أهمَّ ما يأمر به رسول اللَّه ﷺ ويعلم طريقه ويثني على أربابه. ثمَّ ذكر بقيَّة استدلالهم، ثمَّ ذكر استدلال الفريق الآخر.

ثم قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: والسَّلف لم يكرهوه لمجرَّد كونه اصطلاحًا جديدًا على معانٍ صحيحةٍ، كالاصطلاح على ألفاظٍ لعلومٍ صحيحةٍ، ولا كرهوا أيضًا الدَّلالة

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٦٧٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

على الحقِّ والمحاجَّة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمورٍ كاذبةٍ مخالفةٍ للحقِّ. ومن ذلك: مخالفتها للكتاب والسُّنَّة وما فيه من علومٍ صحيحةٍ، فقد وعَّروا الطَّريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلَّة نفعها، فهي لحم جملٍ غثٍّ على رأس جبلٍ وعرٍ، لا سهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ فينتقل وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصحُّ تقريرًا، وأحسن تفسيرًا، فليس عندهم إلَّا التَّكلُّف والتَّطويل والتَّعقيد. كما قيل:

لَولا التَّنافُسُ في الدُّنيا لَمَا وُضِعَتْ كُتُبُ التَّناظُرِ لا المُغْنِي ولا العمدُ
يُحلِّلُون بِزَعْمِ مِنْهُمُ عُقَدًا وبالَّذي وَضَعُوه زَادَتِ العُقَدُ

فهم يزعمون أنَّهم يدفعون بالَّذي وضعوه الشُّبه والشُّكوك، والفاضل الذَّكيُّ الَّذي يعلم أنَّ الشُّبه والشُّكوك زادت بذلك.

ومن المحال أن لا يحصل الشِّفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب اللَّه وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيِّرين، بل الواجب أن يجعل ما قاله اللَّه ورسوله هو الأصل، ويتدبَّر معناه ويعقله، ويعرف برهانه ودليله إمَّا العقليُّ وإمَّا الخبريُّ السَّمعيُّ، ويعرف دلالته على هذا وهذا، ويجعل أقوال النَّاس الَّتي توافقه وتخالفه متشابهةً مجملةً، فيقال لأصحابها: هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرَّسول قُبِل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رُدَّ.

وهذا مثل لفظ المركَّب والجسم والمتحيِّز والجوهر والجهة والحيِّز والعرض، ونحو ذلك، فإنَّ هذه الألفاظ لم تأت في الكتاب والسُّنَّة بالمعنى الَّذي يريده أهل هذا الاصطلاح، بل ولا في اللُّغة، بل هم يختصُّون بالتَّعبير بها عن معانٍ لم يعبِّر غيرهم عنها بها، فتفسَّر تلك المعاني بعباراتٍ أخر، وينظر ما دلَّ عليه القرآن من الأدلَّة العقليَّة والسَّمعيَّة، وإذا وقع الاستفسار والتَّفصيل تبيَّن الحقُّ من الباطل.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكم زال بالاستفسار والتَّفصيل كثيرٌ من الأضاليل والأباطيل.

وسبب الإضلال الإعراض عن تدبُّر كلام اللَّه وكلام رسوله، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة.

وإنَّما سمِّي هؤلاء: «أهل الكلام»، لأنَّهم لم يفيدوا علمًا لم يكن معروفًا، وإنَّما أتوا بزيادة كلامٍ قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم

بالحسِّ، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضعٍ آخر، ومع من ينكر الحسَّ. وكلُّ من قال برأيه أو ذوقه أو سياسته - مع وجود النَّصِّ، أو عارض النَّصَّ بالمعقول - فقد ضاهى إبليس، حيث لم يُسَلِّم لأمر ربِّه، بل قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: الآية ٨٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: الآية ٣١] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ٦٥] أقسم سبحانه بنفسه أنَّهم لا يؤمنون حتَّى يحكِّموا نبيَّه ويرضوا بحكمه ويسلِّموا تسليمًا.

متن الطحاوية

قوله: «فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ، مُوَسْوَسًا تَائِهًا، شَاكًّا، زَائِغًا، لَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَلَا جَاحِدًا مُكَذِّبًا»

الشرح

يتذبذب: يضطرب ويتردَّد. وهذه الحالة الَّتي وصفها الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حال كلِّ من عدل عن الكتاب والسُّنَّة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسُّنَّة، وعند التَّعارض يتأوَّل النَّصَّ ويردُّه إلى الرَّأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضَّلال والشَّكِّ، كما قال ابن رشدٍ الحفيد - وهو من أعلم النَّاس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم - في كتابه «تهافت التَّهافت»: «ومن الَّذي قال في الإلهيَّات شيئًا يعتدُّ به؟». وكذلك الآمديُّ، أفضل أهل زمانه، واقفٌ في المسائل الكبار حائرٌ. وكذلك الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلاميَّة، ثمَّ أعرض عن تلك الطُّرق وأقبل على أحاديث الرَّسول ﷺ، فمات وصحيح الإمام البخاريِّ على صدره. وكذلك أبو عبد الله محمَّد بن عمر الرَّازيُّ، قال في كتابه الَّذي صنَّفه في أقسام اللَّذَّات:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوى أَنْ جَمَعْنَا فِيه قِيلَ وَقَالُوا
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ ... فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرفَاتِهَا رِجَالٌ فَزَالُوا وَالْجِبَالُ جِبَالُ

لقد تأمَّلت الطُّرق الكلاميَّة، والمناهج الفلسفيَّة، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطُّرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: الآية ١٠] وأقرأ في النَّفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠] ثمَّ قال: «ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

وكذلك قال الشَّيخ أبو عبد اللَّه محمَّد بن عبد الكريم الشَّهرستانيُّ أنَّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلِّمين إلَّا الحيرة والنَّدم، حيث قال:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وكذلك قال أبو المعالي الجوينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنَّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضمَّ، وخلَّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الَّذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربِّي برحمته فالويل لابن الجوينيِّ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمِّي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور.

وقال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنِّعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة وأقبل على الكلام.

وقال: لقد اطَّلعت من أهل الكلام على شيءٍ ما ظننت مسلمًا يقوله، ولأن يبتلى العبد بكلِّ ما نهى اللَّه عنه - ما خلا الشِّرك باللَّه - خيرٌ له من أن يبتلى بالكلام. انتهى.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقرُّ بما أقرُّوا به ويعرض عن تلك الدَّقائق المخالفة لذلك، الَّتي كان يقطع بها، ثمَّ تبيَّن له فسادها، أو لم يتبيَّن له صحَّتها، فيكونون في نهاياتهم - إذا سلموا من العذاب - بمنزلة أتباع أهل العلم من الصِّبيان والنِّساء والأعراب.

والدَّواء النَّافع لمثل هذا المرض، ما كان صلوات اللَّه وسلامه عليه يقوله إذا قام من اللَّيل يفتتح صلاته: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ**

وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1]. خرَّجه مسلمٌ.

توسَّل ﷺ إلى ربِّه بربوبيَّة جبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه؛ إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكَّل اللَّه سبحانه هؤلاء الثَّلاثة بالحياة؛ فجبريل موكَّلٌ بالوحي الَّذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الَّذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنَّفخ في الصُّور الَّذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها. فالتَّوسُّل إلى اللَّه سبحانه بربوبيَّة هذه الأرواح العظيمة الموكَّلة بالحياة، له تأثيرٌ عظيمٌ في حصول المطلوب. واللَّه المستعان.

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ، إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ بِتَرْكِ التَّأْوِيلِ وَلُزُومِ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ. وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ»

الشرح

يشير الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الرَّدِّ على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرُّؤية، وعلى من يشبِّه اللَّه بشيءٍ من مخلوقاته. فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ...»**[2] الحديث، أدخل «كاف» التَّشبيه على «ما» المصدريَّة الموصولة بـ «ترون» الَّتي تنحلُّ إلى المصدر الَّذي هو «الرُّؤية»، فيكون التَّشبيه في الرُّؤية لا في المرئيِّ. وهذا بيِّنٌ واضحٌ في أنَّ المراد إثبات الرُّؤية وتحقيقها، ودفع الاحتمالات عنها، وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح؟! فإذا سلِّط التَّأويل على مثل هذا النَّصِّ، كيف يستدلُّ بنصٍّ من النُّصوص؟! وهل يحتمل هذا النَّصُّ

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم لكونه من رواية عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير، فرواية عكرمة عن يحيى فيها كلام، ذكر ذلك أبو الفضل الهروي في كتابه «علل أحاديث في كتاب الصحيح لمسلم بن الحجاج».

(٢) **صحيح**: وقد تقدم مرارًا.

أن يكون معناه: إنَّكم تعلمون ربَّكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟! ويستشهد لهذا التَّأويل الفاسد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: الآية ١] ونحو ذلك ممَّا استعمل فيه «رأى» الَّتي من أفعال القلوب. ولا شكَّ أنَّ «رأى» تارةً تكون بصريَّةً، وتارةً تكون قلبيَّةً، وتارةً تكون من رؤيا الحلم، وغير ذلك، ولكن ما يخلو الكلام من قرينةٍ تخلِّص أحد معانيه من الباقي، وإلَّا لو أخلى المتكلِّم كلامه من القرينة المخلِّصة لأحد المعاني لكان مجملًا ملغزًا، لا مبيِّنًا موضِّحًا، وأيُّ بيانٍ وقرينةٍ فوق قوله: «**ترون ربَّكم كما ترون الشَّمس في الظَّهيرة ليس دونها سحابٌ**»؟ فهل مثل هذا ممَّا يتعلَّق برؤية البصر، أو برؤية القلب؟ وهل يخفى مثل هذا إلَّا على من أعمى اللَّه قلبه؟

وقوله: «لمن اعتبرها منهم بوهمٍ»، أي توهَّم أنَّ اللَّه تعالى يرى على صفة كذا، فيتوهَّم تشبيهًا، ثمَّ بعد هذا التَّوهُّم - إن أثبت ما توهَّمه من الوصف - فهو مشبِّهٌ، وإن نفى الرُّؤية من أصلها لأجل ذلك التَّوهُّم فهو جاحدٌ معطِّلٌ، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده، ولا يعمُّ بنفيه الحقَّ والباطل، فينفيهما ردًّا على من أثبت الباطل، بل الواجب ردُّ الباطل وإثبات الحقِّ.

وإلى هذا المعنى أشار الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «**ومن لم يتوقَّ النَّفي والتَّشبيه زلَّ ولم يصب التَّنزيه**»، فإنَّ هؤلاء المعتزلة يزعمون أنَّهم ينزِّهون اللَّه بهذا النَّفي. وهل يكون التَّنزيه بنفي صفة الكمال؟ فإنَّ نفي الرُّؤية ليس بصفة كمالٍ، إذ المعدوم لا يرى، وإنَّما الكمال في إثبات الرُّؤية ونفي إدراك الرَّائي له إدراك إحاطةٍ، كما في العلم، فإنَّ نفي العلم به ليس بكمالٍ، وإنَّما الكمال في إثبات العلم ونفي الإحاطة به علمًا، فهو سبحانه لا يحاط به رؤيةً، كما لا يحاط به علمًا.

وقوله: «أو تأوَّلها بفهمٍ» أي ادَّعى أنَّه فهم لها تأويلًا يخالف ظاهرها، وما يفهمه كلُّ عربيٍّ من معناها، فإنَّه قد صار اصطلاح المتأخِّرين في معنى التَّأويل أنَّه صرف اللَّفظ عن ظاهره، وبهذا تسلَّط المحرِّفون على النُّصوص، وقالوا: نحن نؤوِّل ما يخالف قولنا، فسمَّوا التَّحريف تأويلًا؛ تزيينًا له وزخرفةً ليقبل، وقد ذمَّ اللَّه الَّذين زخرفوا الباطل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٢] والعبرة للمعاني لا للألفاظ؛ فكم من باطلٍ قد أقيم عليه دليلٌ مزخرفٌ عورض به دليل الحقِّ.

وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدَّم: «**لا ندخل في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهِّمين بأهوائنا**». ثمَّ أكَّد هذا المعنى بقوله: «**إذ كان تأويل الرُّؤية وتأويل كلِّ معنًى يضاف إلى الرُّبوبيَّة ترك التَّأويل، ولزوم التَّسليم، وعليه دين المسلمين**». ومراده ترك التَّأويل الَّذي يسمُّونه تأويلًا، وهو تحريفٌ؛ ولكنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تأدَّب وجادل بالَّتي هي أحسن، كما أمر اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] وليس مراده ترك كلِّ ما يسمَّى تأويلًا، ولا ترك شيءٍ من الظَّواهر لبعض النَّاس لدليلٍ راجحٍ من الكتاب والسُّنَّة، وإنَّما مراده ترك التَّأويلات الفاسدة المبتدعة، المخالفة لمذهب السَّلف، الَّتي يدلُّ الكتاب والسُّنَّة على فسادها، وترك القول على اللَّه بلا علمٍ.

فمن التَّأويلات الفاسدة: تأويل أدلَّة الرُّؤية، وأدلَّة العلوِّ، وأنَّه لم يكلِّم موسى تكليمًا، ولم يتَّخذ إبراهيم خليلًا! ثمَّ قد صار لفظ التَّأويل مستعملًا في غير معناه الأصليِّ.

فالتَّأويل في كتاب اللَّه وسنَّة رسوله هو الحقيقة الَّتي يؤول إليها الكلام. فتأويل الخبر هو عين المخبر به، وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به؛ كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول اللَّه ﷺ يقول في ركوعه: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يتأوَّل القرآن. وقال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ٥٣]. ومنه تأويل الرُّؤيا، وتأويل العمل، كقوله: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: الآية ١٠٠]. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: الآية ٦]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: الآية ٥٩]. وقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٨]، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: الآية ٨٢]. فمن ينكر وقوع مثل هذا التَّأويل، والعلم بما تعلَّق بالأمر والنَّهي منه؟

وأمَّا ما كان خبرًا، كالإخبار عن اللَّه واليوم الآخر، فهذا قد لا يعلم تأويله، الَّذي هو حقيقته، إذ كانت لا تعلم بمجرَّد الإخبار، فإنَّ المخبر إن لم يكن قد تصوَّر المخبر به، أو ما يعرفه قبل ذلك، لم يعرف حقيقته، الَّتي هي تأويله، بمجرَّد الإخبار؛ وهذا هو التَّأويل الَّذي لا يعلمه إلَّا اللَّه؛ لكن لا يلزم من نفي العلم بالتَّأويل نفي العلم بالمعنى الَّذي قصد المخاطب إفهام المخاطب إيَّاه، فما

في القرآن آيةٌ إلَّا وقد أمر اللَّه بتدبُّرها، وما أنزل آيةً إلَّا وهو يحبُّ أن يعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلَّا اللَّه؛ فهذا معنى التَّأويل في الكتاب والسُّنَّة وكلام السَّلف، وسواءٌ كان هذا التَّأويل موافقًا للظَّاهر أو مخالفًا له.

والتَّأويل في كلام كثيرٍ من المفسِّرين، كابن جريرٍ ونحوه، يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه، سواءٌ وافق ظاهره أو خالف، وهذا اصطلاحٌ معروفٌ؛ وهذا التَّأويل كالتَّفسير يحمد حقُّه، ويردُّ باطله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عِمران: الآية ٧]، فيها قراءتان: قراءة من يقف على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حقٌّ؛ ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الَّذي استأثر اللَّه بعلم تأويله؛ ويراد بالثَّانية المتشابه الإضافيُّ الَّذي يعرف الرَّاسخون تفسيره، وهو تأويله.

ولا يريد من وقف على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أن يكون التَّأويل بمعنى التَّفسير للمعنى، فإنَّ لازم هذا أن يكون اللَّه أنزل على رسوله كلامًا لا يعلم معناه جميع الأمَّة ولا الرَّسول، ويكون الرَّاسخون في العلم لا حظَّ لهم في معرفة معناها سوى قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عِمران: الآية ٧].

وهذا القدر يقوله غير الرَّاسخ في العلم من المؤمنين، والرَّاسخون في العلم يجب امتيازهم عن عوامِّ المؤمنين في ذلك؛ وقد قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنا من الرَّاسخين في العلم الَّذين يعلمون تأويله. ولقد صدق رضي الله عنه، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا له وقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1].

وقول الأصحاب رحمهم اللَّه في الأصول: إنَّ المتشابه الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور، ويروى هذا عن ابن عبَّاسٍ. مع أنَّ هذه الحروف قد تكلَّم في معناها أكثر النَّاس، فإن كان معناها معروفًا، فقد عرف معنى المتشابه، وإن لم يكن

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥)، وفي «فضائل الصحابة» أيضًا (١٨٥٨، ١٨٨٢)، وابن أبي شيبة «المصنف» (١٢٢٧٣)، وغيرهم.

أما البخاري فلم يخرج الحديث بهذا اللفظ، ولكنه أخرجه مختصرًا: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» عند البخاري (١٤٣)، وعند مسلم: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ**»، وعند البخاري أيضًا (٣٧٥٦) بلفظ: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ**»، وفي رواية عند البخاري أيضًا: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ**».

معروفًا، وهي المتشابه، كان ما سواها معلوم المعنى، وهذا المطلوب.

وأيضًا فإنَّ اللَّه قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]. وهذه الحروف ليست آياتٍ عند جمهور العادِّين.

والتَّأويل في كلام المتأخِّرين من الفقهاء والمتكلِّمين: هو صرف اللَّفظ عن الاحتمال الرَّاجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالةٍ توجب ذلك؛ وهذا هو التَّأويل الَّذي يتنازع النَّاس فيه في كثيرٍ من الأمور الخبريَّة والطَّلبيَّة؛ فالتَّأويل الصَّحيح منه: الَّذي يوافق ما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسُّنَّة، وما خالف ذلك فهو التَّأويل الفاسد، وهذا مبسوطٌ في موضعه.

متن الطحاوية

قوله: «وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ»

الشرح

النَّفي والتَّشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإنَّ أمراض القلوب نوعان:

مرض شبهةٍ، ومرض شهوةٍ.

وكلاهما مذكورٌ في القرآن، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢]. فهذا مرض الشَّهوة، وقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٥]. فهذا مرض الشُّبهة، وهو أردأ من مرض الشَّهوة؛ إذ مرض الشَّهوة يرجى له الشِّفاء بقضاء الشَّهوة، ومرض الشُّبهة لا شفاء له إن لم يتداركه اللَّه برحمته.

والشُّبهة الَّتي في مسألة الصِّفات نفيها وتشبيهها، وشبهة النَّفي أردأ من شبهة التَّشبيه، فإنَّ شبهة النَّفي ردٌّ وتكذيبٌ لما جاء به الرَّسول ﷺ، وشبهة التَّشبيه غلوٌّ ومجاوزةٌ للحدِّ فيما جاء به الرَّسول ﷺ؛ وتشبيه اللَّه بخلقه كفرٌ، فإنَّ اللَّه تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ونفي الصِّفات كفرٌ، فإنَّ اللَّه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

وهذا أحد نوعي التَّشبيه، فإنَّ التَّشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا

الَّذي يتعب أهل الكلام في ردِّه وإبطاله، وأهله في النَّاس أقلُّ من النَّوع الثَّاني، الَّذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق، كعبَّاد المسيح، وعزيرٍ، والشَّمس والقمر، والأصنام، والملائكة، والنَّار، والماء، والعجل، والقبور، والجنِّ، وغير ذلك. وهؤلاء هم الَّذين أرسلت إليهم الرُّسل يدعونهم إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له.

متن الطحاوية

قوله: «فَإِنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ»

الشرح

يشير الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى تنزيه الرَّبِّ تعالى بالَّذي هو وصفه كما وصف نفسه نفيًا وإثباتًا، وكلام الشَّيخ مأخوذٌ من معنى سورة الإخلاص.

فقوله: «موصوفٌ بصفات الوحدانيَّة» مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ١]. وقوله: «منعوتٌ بنعوت الفردانيَّة»، من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾. وقوله: «ليس في معناه أحدٌ من البريَّة» من قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: الآية ٤]. وهو أيضًا مؤكِّدٌ لما تقدَّم من إثبات الصِّفات ونفي التَّشبيه، والوصف والنَّعت مترادفان، وقيل: متقاربان. فالوصف للذَّات، والنَّعت للفعل، وكذلك الوحدانيَّة والفردانيَّة. وقيل في الفرق بينهما: إنَّ الوحدانيَّة للذَّات، والفردانيَّة للصِّفات، فهو تعالى متوحِّدٌ في ذاته، متفرِّدٌ بصفاته؛ وهذا المعنى حقٌّ ولم ينازع فيه أحدٌ، ولكن في اللَّفظ نوع تكرير. وللشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ نظير هذا التَّكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتَّسجيع بالخطب أليق. و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] أكمل في التَّنزيه[1] من قوله: «ليس في معناه أحدٌ من البريَّة».

* * *

(١) أحسن الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ، فما وصف الله به نفسه أولى وأحق وأكمل مما وصفه به غيره.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ وَالأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ»(١)

الشرح

أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مقدِّمةً، وهي: أنَّ للنَّاس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوالٍ:

فطائفةٌ تنفيها، وطائفةٌ تثبتها، وطائفةٌ تفصِّل، وهم المتَّبعون للسَّلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلَّا إذا بُيِّنَ ما أثبت بها فهو ثابتٌ، وما نفي بها فهو منفيٌّ؛ لأنَّ المتأخِّرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمالٌ وإبهامٌ، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحيَّة، فليس كلُّهم يستعملها في نفس معناها اللُّغويِّ؛ ولهذا كان النُّفاة ينفون بها حقًّا وباطلًا، ويذكرون عن مثبتيها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يُدخل فيها معنًى باطلًا، مخالفًا لقول السَّلف، ولما دلَّ عليه الكتاب والميزان؛ ولم يرد نصٌّ من الكتاب ولا من السُّنَّة بنفيها ولا إثباتها، وليس لنا أن نصف اللَّه تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفيًا ولا إثباتًا، وإنَّما نحن متَّبعون لا مبتدعون.

فالواجب أن ينظر في هذا الباب، أعني باب الصِّفات، فما أثبته اللَّه ورسوله أثبتناه، وما نفاه اللَّه ورسوله نفيناه. والألفاظ الَّتي ورد بها النَّصُّ يعتصم بها في الإثبات والنَّفي، فنثبت ما أثبته اللَّه ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني.

وأمَّا الألفاظ الَّتي لم يرد نفيها ولا إثباتها لا تطلق حتَّى ينظر في مقصود قائلها،

---

(١) في هذا الكلام خلل عظيم وإرباك للقارئ وإيهام، فإن كان ينفي أن الله في السماء وأنه على العرش استوى فهذا ضلال عظيم، وإن كان يقصد غير ذلك فقد أساء في اللفظ والتعبير. أما الشارح فقد أحسن الظن بالمؤلف ودافع، وأيضًا أشار إلى بعض وجوه الخلل.

وأقول: ليت المؤلف عبَّر عن صريح مراده بتعبير ينفي به الاتهام عن نفسه، وإلا فالاتهام ما زال قائمًا وكلامه ما زال غامضًا، ولخصومه أن ينتقدوه من جملة وجوه.

فإن كان معنًى صحيحًا قُبِلَ، لكن ينبغي التَّعبير عنه بألفاظ النُّصوص، دون الألفاظ المجملة، إلَّا عند الحاجة، مع قرائن تبيِّن المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتمُّ المقصود معه إن لم يخاطب بها، ونحو ذلك.

والشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد الرَّدَّ بهذا الكلام على المشبِّهة، كداود الجواربيِّ وأمثاله القائلين: إنَّ اللَّه جسمٌ، وإنَّه جثَّةٌ وأعضاءٌ وغير ذلك، تعالى اللَّه عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

فالمعنى الَّذي أراده الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من النَّفي الَّذي ذكره هنا حقٌّ، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقًّا وباطلًا، فيحتاج إلى بيان ذلك؛ وهو: أنَّ السَّلف متَّفقون على أنَّ البشر لا يعلمون للَّه حدًّا، وأنَّهم لا يحدُّون شيئًا من صفاته.

قال أبو داود الطَّيالسيُّ: كان سفيان وشعبة وحمَّاد بن زيدٍ وحمَّاد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحدُّون ولا يشبِّهون ولا يمثِّلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر.

وسيأتي في كلام الشَّيخ: «**وقد أعجز عن الإحاطة خلقه**». فعلم أنَّ مراده أنَّ اللَّه يتعالى عن أن يحيط أحدٌ بحدِّه، لا أنَّ المعنى أنَّه غير متميِّز عن خلقه منفصلٌ عنهم مباينٌ لهم. سئل عبد اللَّه بن المبارك: بم نعرف ربَّنا؟ قال: بأنَّه على العرش، بائنٌ من خلقه، قيل: بحدٍّ؟ قال: بحدٍّ، انتهى.

ومن المعلوم أنَّ الحدَّ يقال على ما ينفصل به الشَّيء ويتميَّز به عن غيره، واللَّه تعالى غير حالٍّ في خلقه، ولا قائمٍ بهم، بل هو القيُّوم القائم بنفسه، المقيم لما سواه. فالحدُّ بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعةٌ في نفس الأمر أصلًا، فإنَّه ليس وراء نفيه إلَّا نفي وجود الرَّبِّ ونفي حقيقته.

وأمَّا لفظ الأركان والأعضاء والأدوات فيتسلط بها النُّفاة على نفي بعض الصِّفات الثَّابتة بالأدلَّة القطعيَّة، كاليد والوجه. قال أبو حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في «الفقه الأكبر»: له يدٌ ووجهٌ ونفسٌ، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنَّفس، فهو له صفةٌ بلا كيفٍ، ولا يقال: إنَّ يده قدرته ونعمته، لأنَّ فيه إبطال الصِّفة، انتهى. وهذا الَّذي قاله الإمام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثابتٌ بالأدلَّة القاطعة، قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]. ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: الآية ٦٧]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: الآية ٨٨]. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٧]. وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: الآية ١١٦]. وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: الآية ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨].

وقال ﷺ في حديث الشَّفاعة: لمَّا يأتي النَّاس آدم فيقولون له: «**خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ**»(١) الحديث.

ولا يصحُّ تأويل من قال: إنَّ المراد باليد القدرة، فإنَّ قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]. لا يصحُّ أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد، ولو صحَّ ذلك لقال إبليس: وأنا أيضًا خلقتني بقدرتك، فلا فضل له عليَّ بذلك. فإبليس - مع كفره - كان أعرف بربِّه من الجهميَّة؛ ولا دليل لهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس: الآية ٧١]؛ لأنَّه تعالى جمع الأيدي لمَّا أضافها إلى ضمير الجمع، ليتناسب الجمعان، فاللَّفظان للدَّلالة على الملك والعظمة؛ ولم يقل: «أيديَّ» مضافًا إلى ضمير المفرد، ولا «يدينا» بتثنية اليد مضافًا إلى ضمير الجمع؛ فلم يكن قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: الآية ٧١] نظير قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]. وقال النَّبيُّ ﷺ عن ربِّه ﷻ: «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(٢).

ولكن لا يقال لهذه الصِّفات: إنَّها أعضاءٌ، أو جوارح، أو أدواتٌ، أو أركانٌ، لأنَّ الرُّكن جزء الماهيَّة، واللَّه تعالى هو الأحد الصَّمد، لا يتجزَّأ ﷻ، والأعضاء فيها معنى التَّفريق والتَّعضية، تعالى اللَّه عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: الآية ٩١].

والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع. وكذلك الأدوات هي الآلات الَّتي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرَّة. وكلُّ هذه المعاني منتفيةٌ عن اللَّه

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٧٥١٦) وفي غير موطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ١٩٣) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا.

(٢) **صحيح:** وقد تقدم قريبًا.

تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات اللَّه تعالى. فالألفاظ الشَّرعيَّة صحيحة المعاني، سالمةٌ من الاحتمالات الفاسدة، فلذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشَّرعيَّة نفيًا ولا إثباتًا، لئلَّا يثبت معنًى فاسدٌ، أو ينفى معنًى صحيحٌ. وكلُّ هذه الألفاظ المجملة عرضةٌ للمحقِّ والمبطل.

وأمَّا لفظ الجهة، فقد يراد به ما هو موجودٌ، وقد يراد به ما هو معدومٌ، ومن المعلوم أنَّه لا موجود إلَّا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمرٌ موجودٌ غير اللَّه تعالى كان مخلوقًا، واللَّه تعالى لا يحصره شيءٌ، ولا يحيط به شيءٌ من المخلوقات، تعالى اللَّه عن ذلك. وإن أريد بالجهة أمرٌ عدميٌّ، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلَّا اللَّه وحده. فإذا قيل: «إنَّه في جهةٍ» بهذا الاعتبار، فهو صحيحٌ، ومعناه: أنَّه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع، عالٍ عليه.

ونفاة لفظ «الجهة» الَّذين يريدون بذلك نفي العلوِّ، يذكرون من أدلَّتهم[1]: أنَّ الجهات كلَّها مخلوقةٌ، وأنَّه كان قبل الجهات، وأنَّ من قال: إنَّه في جهةٍ يلزمه القول بقدم شيءٍ من العالم، أو أنَّه كان مستغنيًا عن الجهة ثمَّ صار فيها. وهذه الألفاظ ونحوها إنَّما تدلُّ على أنَّه ليس في شيءٍ من المخلوقات، سواءٌ سمِّي جهةً أو لم يسمَّ، وهذا حقٌّ. ولكنَّ الجهة ليست أمرًا وجوديًّا، بل أمرٌ اعتباريٌّ، ولا شكَّ أنَّ الجهات لا نهاية لها، وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجودٍ.

وقول الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **«لا تحويه الجهات السِّتُّ كسائر المبتدعات»** هو حقٌّ، باعتبار أنَّه لا يحيط به شيءٌ من مخلوقاته، بل هو محيطٌ بكلِّ شيءٍ وفوقه. وهذا المعنى هو الَّذي أراده الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، لما يأتي في كلامه: «أنَّه تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ وفوقه». فإذا جمع بين كلاميه، وهو قوله: «لا تحويه الجهات السِّتُّ كسائر المبتدعات» وبين قوله: «محيطٌ بكلِّ شيءٍ وفوقه» علم أنَّ مراده أنَّ اللَّه تعالى لا يحويه شيءٌ، ولا يحيط به شيءٌ، كما يكون لغيره من المخلوقات، وأنَّه تعالى هو المحيط بكلِّ

(١) لسنا في حاجة إلى كلِّ هذا الكلام ولا في حاجة إلى معرفة الأقوال بهذه الطرائق من طرائق السياق، بل يلزمنا معرفة معتقدنا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، أما التعقيدات والتخبطات والأقوال والردود والدفاع المتكلف فلسنا في حاجةٍ إليه، ولسنا بمتعبدين به.

شيءٍ، العالي عن كلِّ شيءٍ.

لكن بقي من كلامه شيئان:

أحدهما: أنَّ إطلاق مثل هذا اللَّفظ - مع ما فيه من الإجمال والاحتمال - كان تركه أَوْلَى، وإلَّا تسلَّط عليه، وألزم بالتَّناقض في إثبات الإحاطة والفوقيَّة ونفي جهة العلوِّ، وإن أجيب عنه بما تقدَّم، من أنَّه نفى أن يحويه شيءٌ من مخلوقاته، فالاعتصام بالألفاظ الشَّرعيَّة أَوْلَى.

الثَّاني: أنَّ قوله: «كسائر المبتدعات» يفهم منه أنَّه ما من مبتدعٍ إلَّا وهو محويٌّ وفي هذا نظرٌ. فإنَّه إن أراد أنَّه محويٌّ بأمرٍ وجوديٍّ، فممنوعٌ، فإنَّ العالم ليس في عالمٍ آخر، وإلَّا لزم التَّسلسل، وإن أراد أمرًا عدميًّا، فليس كلُّ مبتدعٍ في العدم، بل منها ما هو داخلٌ في غيره، كالسَّموات والأرض في الكرسيِّ، ونحو ذلك، ومنها ما هو منتهى المخلوقات، كالعرش. فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات، قطعًا للتَّسلسل، كما تقدَّم.

ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال: بأنَّ «سائر» بمعنى البقيَّة، لا بمعنى الجميع، وهذا أصل معناها، ومنه «السُّؤر»، وهو ما يبقيه الشَّارب في الإناء. فيكون مراده: غالب المخلوقات، لا جميعها، إذ «السَّائر» على الغالب أدلُّ منه على الجميع، فيكون المعنى: أنَّ اللَّه تعالى غير محويٍّ - كما يكون أكثر المخلوقات محويًّا، بل هو غير محويٍّ بشيءٍ، تعالى اللَّه عن ذلك. ولا يظنّ بالشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه ممَّن يقول: إنَّ اللَّه تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفي التعينيين، كما ظنَّه بعض الشَّارحين، بل مراده: أنَّ اللَّه تعالى منزَّهٌ عن أن يحيط به شيءٌ من مخلوقاته، وأن يكون مفتقرًا إلى شيءٍ منها، العرش أو غيره.

وفي ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نظرٌ، فإنَّ أضداده قد شنَّعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه به، وقد نقل أبو مطيعٍ البلخيُّ عنه إثبات العلوِّ، كما سيأتي ذكره إن شاء اللَّه تعالى. وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه، ولم يرد بمثله كتابٌ ولا سنَّةٌ، فلذلك قلت: إنَّ في ثبوته عن الإمام نظرًا، وإنَّ الأولى التَّوقُّف في إطلاقه، فإنَّ الكلام بمثله

خطرٌ، بخلاف الكلام بما ورد عن الشَّارع[١]، كالاستواء والنُّزول ونحو ذلك. ومن ظنَّ من الجهَّال أنَّه إذا نزل إلى سماء الدُّنيا[٢] كما أخبر الصَّادق ﷺ يكون العرش فوقه، ويكون محصورًا بين طبقتين من العالم. فقوله مخالفٌ لإجماع السَّلف، مخالفٌ للكتاب والسُّنَّة.

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرَّحمن الصَّابونيُّ: سمعت الأستاذ أبا منصور بن حمشاذ - بعد روايته حديث النُّزول - يقول: سئل أبو حنيفة رضي الله عنه فقال: ينزل بلا كيفٍ. انتهى.

وإنَّما توقَّف من توقَّف في نفي ذلك، لضعف علمه بمعاني الكتاب والسُّنَّة وأقوال السَّلف، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش، بل يقول: لا مباين، ولا محايث، لا داخل العالم ولا خارجه، فيصفونه بصفة العدم والممتنع، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلوِّ والاستواء على العرش، ويقول بعضهم بحلوله في كلِّ موجودٍ، أو يقول: هو وجود كلِّ موجودٍ ونحو ذلك، تعالى اللَّه عمَّا يقول الظَّالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

وسيأتي لإثبات صفة العلوِّ للَّه تعالى زيادة بيانٍ، عند الكلام على قول الشَّيخ رحمه الله: «محيطٌ بكلِّ شيءٍ وفوقه» إن شاء اللَّه تعالى.

❊ ❊ ❊

---

(١) لم أقف في الكتاب ولا في السنة على إطلاق لفظة «الشارع» على الله عز وجل.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري في عدة مواطن من «صحيحه»، منها (حديث ٧٤٩٤)، ومسلم (حديث ٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أَسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقَظَةِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعُلَا، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]. فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى»

الشرح

«المعراج»: مفعالٌ، من العروج، أي الآلة الَّتي يعرج فيها، أي يصعد، وهو بمنزلة السُّلَّم، لكن لا يعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيَّبات، نؤمن به ولا نشتغل بكيفيَّته.

وقوله: «وقد أسري بالنَّبيِّ ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة» اختلف النَّاس في الإسراء.

فقيل: كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده، نقله ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما، ونقل عن الحسن البصريِّ نحوه.

لكن ينبغي أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء منامًا، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرقٌ عظيمٌ. فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا: كان منامًا، وإنَّما قالا: أسري بروحه ولم يفقد جسده، وفرقٌ ما بين الأمرين، إذ ما يراه النَّائم قد يكون أمثالًا مضروبةً للمعلوم في الصُّورة المحسوسة، فيرى كأنَّه قد عرج به إلى السَّماء، وذهب به إلى مكَّة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنَّما ملك الرُّؤيا ضرب له المثال. فما أرادا أنَّ الإسراء كان منامًا، وإنَّما أرادا أنَّ الرُّوح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد ثمَّ عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإنَّ غيره لا تنال ذات روحه الصُّعود الكامل إلى السَّماء إلَّا بعد الموت.

وقيل: كان الإسراء مرَّتين، مرَّةً يقظةً، ومرَّةً منامًا. وأصحاب هذا القول كأنَّهم أرادوا الجمع بين حديث شريكٍ وقوله: «**ثمَّ استيقظت**» وبين سائر الرِّوايات.

وكذلك منهم من قال: بل كان مرَّتين، مرَّةً قبل الوحي، ومرَّةً بعده. ومنهم من قال: بل ثلاث مرَّاتٍ، مرَّةً قبل الوحي، ومرَّتين بعده. وكلَّما اشتبه عليهم لفظٌ زادوا مرَّةً، للتَّوفيق! وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلَّا فالَّذي عليه أئمَّة النَّقل: أنَّ الإسراء كان مرَّةً واحدةً بمكَّة، بعد البعثة، قبل الهجرة بسنةٍ، وقيل: بسنةٍ وشهرين، ذكره ابن عبد البرِّ.

قال شمس الدِّين بن القيِّم: يا عجبًا لهؤلاء الَّذين زعموا أنَّه كان مرارًا! كيف ساغ لهم أن يظنُّوا أنَّه في كلِّ مرَّةٍ تفرض عليهم الصَّلوات خمسين، ثمَّ يتردَّد بين ربِّه وبين موسى حتَّى تصير خمسًا، فيقول: «**أمضيت فريضتي وخفَّفت عن عبادي**»، ثمَّ يعيدها في المرَّة الثَّانية إلى خمسين، ثمَّ يحطُّها إلى خمسٍ؟!

وقد غلَّط الحفَّاظ شريكًا في ألفاظٍ من حديث الإسراء، ومسلمٌ أورد المسند منه، ثمَّ قال: فقدَّم وأخَّر وزاد ونقص. ولم يسرد الحديث. فأجاد رَحِمَهُ اللَّهُ. انتهى كلام الشَّيخ شمس الدِّين رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان من حديث الإسراء: أنَّه ﷺ أسري بجسده في اليقظة، على الصَّحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، راكبًا على البراق، صحبة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنزل هناك، وصلَّى بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد. وقد قيل: إنَّه نزل بيت لحم وصلَّى فيه، ولا يصحُّ عنه ذلك البتَّة. ثمَّ عرج به من بيت المقدس تلك اللَّيلة إلى السَّماء الدُّنيا، فاستفتح له جبريل، ففتح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر، فسلَّم عليه، فرحَّب به وردَّ عليه السَّلام، وأقرَّ بنبوَّته، ثمَّ عرج به إلى السَّماء الثَّانية. فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريَّا وعيسى ابن مريم، فلقيهما، فسلَّم عليهما، فردَّا عليه السَّلام، ورحَّبا به، وأقرَّا بنبوَّته ثمَّ عرج به إلى السَّماء الثَّالثة، فرأى فيها يوسف، فسلَّم عليه فردَّ عليه السَّلام ورحَّب به وأقرَّ بنبوَّته، ثمَّ عرج به إلى السَّماء الرَّابعة، فرأى فيها إدريس، فسلَّم عليه ورحَّب به وأقرَّ بنبوَّته، ثمَّ عرج به إلى السَّماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلَّم عليه ورحَّب به وأقرَّ بنبوَّته، ثمَّ عرج به إلى السَّماء السَّادسة، فلقي فيها موسى فسلَّم عليه ورحَّب به وأقرَّ بنبوَّته، فلمَّا جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنَّ غلامًا بعث بعدي يدخل الجنَّة من أمَّته أكثر ممَّا يدخلها من أمَّتي، ثمَّ عرج به إلى السَّماء السَّابعة، فلقي فيها إبراهيم، فسلَّم عليه ورحَّب به

وأقرَّ بنبوَّته، ثمَّ رفع إلى سدرة المنتهى، ثمَّ رفع له البيت المعمور، ثمَّ عرج به إلى الجبَّار، جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه، فدنا منه حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاةً، فرجع حتَّى مرَّ على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال بخمسين صلاةً، قال: إنَّ أمَّتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربِّك فاسأله التَّخفيف لأمَّتك، فالتفت إلى جبرائيل كأنَّه يستشيره في ذلك، فأشار أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتَّى أتى به إلى الجبَّار تبارك وتعالى وهو في مكانه - هذا لفظ البخاريِّ في «صحيحه» وفي بعض الطُّرق - فوضع عنه عشرًا، ثمَّ نزل حتَّى مرَّ بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربِّك فاسأله التَّخفيف، فلم يزل يتردَّد بين موسى وبين اللَّه تبارك وتعالى، حتَّى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرُّجوع وسؤال التَّخفيف، فقال: **«قد استحييت من ربِّي، ولكن أرضى وأسلِّم»**، فلمَّا نفذ، نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي وخفَّفت عن عبادي(١).

وقد تقدَّم ذكر اختلاف الصَّحابة في رؤيته ﷺ ربَّه ﷻ بعين رأسه، وأنَّ الصَّحيح أنَّه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: الآية ١١]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم: الآية ١٣]، صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ هذا المرئيَّ جبريل، رآه مرَّتين على صورته الَّتي خلق عليها.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الإسراء بجسده في اليقظة، قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: الآية ١]. والعبد عبارةٌ عن مجموع الجسد والرُّوح، كما أنَّ الإنسان اسمٌ لمجموع الجسد والرُّوح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصَّحيح. فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلًا، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدِّي إلى إنكار النُّبوَّة وهو كفرٌ.

فإن قيل: فما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أوَّلًا؟

فالجواب - واللَّه أعلم: أنَّه كان ذلك إظهارًا لصدق دعوى الرَّسول ﷺ المعراج حين سألته قريشٌ عن نعت بيت المقدس فنعته لهم وأخبرهم عن عيرهم الَّتي مرَّ عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السَّماء من مكَّة لما حصل ذلك، إذ لا

---

(١) انظر: البخاريَّ (حديث ٣٢٠٧)، وحديث (٣٨٨٧)، ومسلمًا (حديث ١٦٤) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا.

يمكن اطِّلاعهم على ما في السَّماء لو أخبرهم عنه، وقد اطَّلعوا على بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

وفي حديث المعراج دليلٌ على ثبوت صفة العلوِّ للَّه تعالى من وجوهٍ، لمن تدبَّره، وباللَّه التَّوفيق.

متن الطحاوية

قوله: «وَالْحَوْضُ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ غِيَاثًا لِأُمَّتِهِ حَقٌّ»

الشرح

الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حدَّ التَّواتر، رواها من الصَّحابة بضعٌ وثلاثون صحابيًّا ﵃، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشَّيخ عماد الدِّين بن كثيرٍ، تغمَّده اللَّه برحمته، في آخر تاريخه الكبير، المسمَّى بـ «البداية والنِّهاية».

فمنها: ما رواه البخاريُّ ﵀، عن أنس بن مالكٍ ﵁، أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ**»(١).

وعنه أيضًا عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمُ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»(٢). رواه مسلمٌ.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالكٍ ﵁، قال: أغفى رسول اللَّه ﷺ إغفاة، فرفع رأسه مبتسما، إمَّا قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ**»، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: الآية ١]»، حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي ﷻ فِي الْجَنَّةِ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ الْكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»(٣).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٥٨٠)، ومسلم (حديث ٢٣٠٣) من حديث أنس ﵁ مرفوعًا.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٣٠٤) من حديث أنس ﵁ مرفوعًا بنحوه.

(٣) **صحيح**: وأخرجه مسلم (حديث ٤٠٠) بلفظ قريب.

ورواه مسلمٌ، ولفظه: «**هُوَ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، والباقي مثله.

ومعنى ذلك: أنَّه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض، والحوض في العرصات قبل الصِّراط، لأنَّه يختلج عنه، ويمنع منه أقوامٌ قد ارتدُّوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصِّراط.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن جندب بن عبد الله البجليِّ ﵁، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ**»[1].

والفرط: الَّذي يسبق إلى الماء.

وروى البخاريُّ[2] عن سهل بن سعدٍ الأنصاريِّ ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ**». قال أبو حازمٍ: فسمعني النُّعمان بن أبي عيَّاشٍ وأنا أحدِّثهم هذا فقال: هكذا سمعت من سهلٍ؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيدٍ الخدريِّ لسمعته وهو يزيد فيها: «**فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّتِي فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**». فَقَالَ: «**سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي**». سحقًا: أي بُعْدًا.

والَّذي يتلخَّص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنَّه حوضٌ عظيمٌ، وموردٌ كريمٌ، يمدُّ من شراب الجنَّة، من نهر الكوثر، الَّذي هو أشدُّ بياضًا من اللَّبن، وأبرد من الثَّلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتِّساع.

فَقَاتَلَ اللَّهُ المنكرين لوجود الحوض، وأَخْلِقْ بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٦٥٨٩)، ومسلم (حديث ٢٢٨٩).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٧٠٥٠، ٧٠٥١)، ومسلم (حديث ٢٢٩٠، ٢٢٩١)، ولفظ مسلم من طريق أبي حازم قال: سمعت سهلًا يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ**».

متن الطحاوية

قوله: «وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَقٌّ، كَمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ»

الشرح

الشَّفاعة أنواعٌ: منها ما هو متَّفقٌ عليه بين الأمَّة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النَّوع الأوَّل: الشَّفاعة الأولى، وهي العظمى الخاصَّة بنبيِّنا ﷺ من بين سائر إخوانه(١) من الأنبياء والمرسلين، صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

في «الصحيحين» وغيرهما عن جماعةٍ من الصَّحابة ﷺ، أحاديث الشَّفاعة:

منها: عن أبي هريرة ﷺ، قال: أتي رسول اللَّه ﷺ بلحم، فدفع إليه منها الذِّراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسةً، ثمَّ قال: **«أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ لِمَ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ،**

---

(١) وهي الشفاعة في أن يأتي الله ﷻ لفصل القضاء.

نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى: فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، قَالَ: هَكَذَا هُوَ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ، مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَقُومُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»(١).

أخرجاه في «الصحيحين» بمعناه، واللَّفظ للإمام أحمد.

النَّوع الثَّاني والثَّالث من الشَّفاعة: شفاعته ﷺ في أقوامٍ قد تساوت حسناتهم وسيِّئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنَّة، وفي أقوامٍ آخرينَ قد أمر بهم إلى النَّار أن لا يدخلوها.

النَّوع الرَّابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنَّة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم. وقد وافقت المعتزلة على هذه الشَّفاعة خاصَّةً، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها.

النَّوع الخامس: الشَّفاعة في أقوامٍ أن يدخلوا الجنَّة بغير حسابٍ(٢)، ويحسن أن

(١) انظر: البخاريَّ (حديث ٤٧١٢)، ومسلمًا (حديث ١٩٤) فقد أخرجاه هنالك بلفظ قريب، وانظر أيضًا: مسند الإمام أحمد (٢/ ٤٣٥، ٤٣٦).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٥٨١١) وفي غير موضع، ومسلم (حديث ٢١٦)، وغيرهما من =

يستشهد لهذا النَّوع بحديث عُكَّاشَةَ بن محصنٍ، حين دعا له رسول اللَّه ﷺ أن يجعله من السَّبعين ألفًا الَّذين يدخلون الجنَّة بغير حسابٍ، والحديث مخرَّجٌ في «الصحيحين».

النَّوع السَّادس: الشَّفاعة في تخفيف العذاب عمَّن يستحقُّه، كشفاعته في عمِّه أبي طالبٍ أن يخفَّف عنه عذابه(١).

ثمَّ قال القرطبيُّ في «التَّذكرة» بعد ذكر هذا النَّوع: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: الآية ٤٨]. قيل له: لا تنفعه في الخروج من النَّار، كما تنفع عصاة الموحِّدين، الَّذين يخرجون منها ويدخلون الجنَّة.

النَّوع السَّابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنَّة، كما تقدَّم. وفي صحيح مسلمٍ عن أنسٍ ﷺ، أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ**»(٢).

النَّوع الثَّامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمَّته، ممَّن دخل النَّار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النَّوع الأحاديث. وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك؛ جهلًا منهم بصحَّة الأحاديث؛ وعنادًا ممَّن علم ذلك واستمرَّ على بدعته، وهذه الشَّفاعة تشاركه فيها الملائكة والنَّبيُّون والمؤمنون أيضًا، وهذه الشَّفاعة تتكرَّر منه ﷺ أربع مرَّاتٍ.

ومن أحاديث هذا النَّوع: حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»(٣). رواه الإمام أحمد رحمه الله.

= حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «**يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «**اللهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**»، ثُمَّ قَامَ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٦٢٠٨)، ومسلم (حديث ٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**».

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ١٦٩) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) **صحيح بمجموع طرقه:** فله عن رسول الله ﷺ طرق، منها: حديث أنس رضي الله عنه أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، وأبو داود (حديث ٤٧٣٩) وله طرق أخرى عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا وله أيضًا طرق أخرى عن =

وروى البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «التَّوحيد»: حدَّثنا سليمان بن حربٍ، حدَّثنا حمَّاد بن زيدٍ، حدَّثنا معبد بن هلالٍ العنزيُّ، قال: اجتمعنا وناسٌ من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالكٍ، وذهبنا معنا بثابتٍ البُنانيِّ إليه، يسأله لنا عن حديث الشَّفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلِّي الضُّحى، فاستأذنَّا، فأذن لنا وهو قاعدٌ على فراشه، فقلنا لثابتٍ: لا تسأله عن شيءٍ أوَّل من حديث الشَّفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاؤوك يسألونك عن حديث الشَّفاعة، فقال: حدَّثنا محمَّدٌ ﷺ، قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، لَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى، فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا، لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ**».

قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ، قُلْتُ: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ وَهُوَ جَمِيعٌ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيهْ؟ فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ، فَأَتَينا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيهْ؟ فَقُلْنَا: لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَمَا أَدْرِي، أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا؟ فَقُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ

= غير أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ كجابر بن عبد الله وغيره من الصحابة.

حَدِيثِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ، قَالَ: «ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»(١). وهكذا رواه مسلمٌ.

وفي «الصَّحيح» من حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه مرفوعًا، قال: فيقول اللَّه تعالى: **«شفعت الملائكة، وشفع النَّبيُّون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلَّا أرحم الرَّاحمين، فيقبض قبضةً من النَّار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قطُّ...»**(٢)، الحديث.

ثمَّ إنَّ النَّاس في الشَّفاعة على ثلاثة أقوالٍ:

فالمشركون والنَّصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم: يجعلون شفاعة من يعظِّمونه عند اللَّه كالشَّفاعة المعروفة في الدُّنيا.

والمعتزلة والخوارج: أنكروا شفاعة نبيِّنا ﷺ وغيره في أهل الكبائر.

وأمَّا أهل السُّنَّة والجماعة: فيقرُّون بشفاعة نبيِّنا ﷺ في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحدٌ حتَّى يأذن اللَّه له ويحدَّ له حدًّا، كما في الحديث الصَّحيح، حديث الشَّفاعة: **«إِنَّهُمْ يَأْتُونَ آدَمَ، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى** عليه السلام**: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنَّهُ عَبْدٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَذْهَبُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيَّ، لَا أُحْسِنُهَا الْآنَ، فَيَقُولُ: أَيْ مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّي أُمَّتِي، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ فَأَسْجُدُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا»**(٣) ذكر هذا ثلاث مرَّاتٍ.

وأمَّا الاستشفاع بالنَّبيِّ ﷺ وغيره في الدُّنيا إلى اللَّه تعالى في الدُّعاء، ففيه تفصيلٌ: فإنَّ الدَّاعي تارةً يقول: بحقِّ نبيِّك أو بحقِّ فلانٍ، يقسم على اللَّه بأحدٍ من مخلوقاته، فهذا محذورٌ من وجهين:

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٧٥١٠)، ومسلم (ص١٨٢ عقب حديث ١٩٣).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ١٨٣ ص١٧٠).

(٣) **صحيح:** وقد تقدم.

أحدهما: أنَّه أقسم بغير اللَّه.

والثَّاني: اعتقاده أنَّ لأحدٍ على اللَّه حقًّا. ولا يجوز الحلف بغير اللَّه، وليس لأحدٍ على اللَّه حقٌّ إلَّا ما أحقَّه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧]. وكذلك ما ثبت في «الصحيحين» من قوله ﷺ لمعاذٍ رضي الله عنه، وهو رديفه: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟**» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟**» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ**»(١).

فهذا حقٌّ وجب بكلماته التَّامَّة ووعده الصَّادق، لا أنَّ العبد نفسه مستحقٌّ على اللَّه شيئًا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإنَّ اللَّه هو المنعم على العباد بكلِّ خيرٍ، وحقُّهم الواجب بوعده هو أن لا يعذِّبهم(٢)، وترك تعذيبهم معنًى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يسأل بسببه ويتوسَّل به؛ لأنَّ السَّبب هو ما نصبه اللَّه سببًا. وكذلك الحديث الَّذي في «المسند» من حديث أبي سعيدٍ عن النَّبيِّ ﷺ، في قول الماشي إلى الصَّلاة: «**أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ**»(٣)، فهذا حقُّ السَّائلين، هو أوجبه على نفسه، فهو الَّذي أحقَّ للسَّائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن القائل:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِب ... كلَّا ولا سعيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أو نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

فإن قيل: فأيُّ فرقٍ بين قول الدَّاعي: «بحقِّ السَّائلين عليك» وبين قوله: «بحقِّ نبيِّك» أو نحو ذلك؟ فالجواب: أنَّ معنى قوله: بحقِّ السَّائلين عليك أنَّك وعدت

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٢٨٥٦)، ومسلم (حديث ٣٠) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ**».

(٢) وينبغي أن يستحضر قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ١٦].

(٣) **سنده ضعيف:** أخرجه ابن ماجه (حديث ٧٧٨)، وأحمد (٣/ ٢١)، وغيرهما وفي سنده ضعفٌ.

السَّائلين بالإجابة، وأنا من جملة السَّائلين، فأجب دعائي، بخلاف قوله: بحقِّ فلانٍ، فإنَّ فلانًا وإن كان له حقٌّ على اللَّه بوعده الصَّادق، فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السَّائل، فكأنَّه يقول: لكون فلانٍ من عبادك الصَّالحين أجب دعائي، وأيُّ مناسبةٍ في هذا وأيُّ ملازمةٍ؟ وإنَّما هذا من الاعتداء في الدُّعاء، وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٥]. وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، ولم ينقل عن النَّبيِّ ﷺ، ولا عن الصَّحابة، ولا عن التَّابعين، ولا عن أحدٍ من الأئمَّة رضي الله عنهم، وإنَّما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل الَّتي يكتبها الجهَّال والطُّرقيَّة.

والدُّعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السُّنَّة والاتِّباع، لا على الهوى والابتداع، وإن كان مراده الإقسام على اللَّه بحقِّ فلانٍ، فذلك محذورٌ أيضًا؛ لأنَّ الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق؟ وقد قال ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**»(١). ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم: يكره أن يقول الدَّاعي: أسألك بحقِّ فلانٍ، أو بحقِّ أنبيائك ورسلك، وبحقِّ البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك.

وتارةً يقول: بجاه فلانٍ عندك، أو يقول: نتوسَّل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك، ومراده لِأَنَّ فلانًا عندك ذو وجاهةٍ وشرفٍ ومنزلةٍ فأجب دعاءنا. وهذا أيضًا محذورٌ، فإنَّه لو كان هذا هو التَّوسُّل الَّذي كان الصَّحابة يفعلونه في حياة النَّبيِّ ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنَّما كانوا يتوسَّلون في حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمِّنون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره. فلمَّا مات ﷺ قال

---

(١) **صحيح لشواهده:** أخرجه الترمذي (٥/ ١٣٥) مع «تحفة الأحوذي»، وأبو داود (٣٢٥٧)، والنسائي (٧/ ١٩)، وابن ماجه (٢٠٩٨)، وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**» وهو حديث يصح بشواهده، وفي سنده علة، لكن له شاهد عند ابن ماجه (٢١١٨)، وأحمد (٢٨٤، ٢٩٨)، وغيرهما من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعًا.

وله شاهد آخر عند النسائي (٣٧٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٧١)، وغيرهما من حديث قُتَيْلَةَ - امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ - أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتَ».

عمر ﷺ لمَّا خرجوا يستسقون: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا»[١]. معناه بدعائه هو ربَّه وشفاعته وسؤاله ليس المراد أنَّا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك؛ إذ لو كان ذلك مرادًا لكان جاه النَّبيِّ ﷺ أعظم وأعظم من جاه العبَّاس.

وتارةً يقول: باتِّباعي لرسولك، ومحبَّتي له، وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم، ونحو ذلك. فهذا من أحسن ما يكون في الدُّعاء والتَّوسُّل والاستشفاع، فلفظ التَّوسُّل بالشَّخص والتَّوجُّه به فيه إجمالٌ، غلط بسببه من لم يفهم معناه، فإن أريد به التَّسبُّب به لكونه داعيًا وشافعًا، وهذا في حياته يكون، أو لكون الدَّاعي محبًّا له، مطيعًا لأمره، مقتديًا به، وذلك أهلٌ للمحبَّة والطَّاعة والاقتداء، فيكون التَّوسُّل إمَّا بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإمَّا بمحبَّة السَّائل واتِّباعه، أو يراد به الإقسام به والتَّوسُّل بذاته، فهذا الثَّاني هو الَّذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السُّؤال بالشَّيء، قد يراد به التَّسبُّب به؛ لكونه سببًا في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأوَّل: حديث الثَّلاثة الَّذين أووا إلى الغار، وهو حديثٌ مشهورٌ في «الصحيحين»[٢] وغيرهما، فإنَّ الصَّخرة انطبقت عليهم، فتوسَّلوا إلى اللَّه بذكر أعمالهم الصَّالحة الخالصة، وكلُّ واحدٍ منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنَّا ما نحن فيه، فانفرجت الصَّخرة فخرجوا يمشون.

فهؤلاء دعوا اللَّه بصالح الأعمال؛ لأنَّ الأعمال الصَّالحة هي أعظم ما يتوسَّل به العبد إلى اللَّه، ويتوجَّه به إليه، ويسأله به؛ لأنَّه وعد أن يستجيب للَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات ويزيدهم من فضله.

فالحاصل أنَّ الشَّفاعة عند اللَّه ليست كالشَّفاعة عند البشر، فإنَّ الشَّفيع عند البشر

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ١٠١٠) من حديث أَنَسٍ ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٢٢١٥) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٧٤٣) من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعًا.

كما أنَّه شافعٌ للطَّالب شفَّعه في الطَّلب، بمعنى أنَّه صار به شفعًا فيه بعد أن كان وترًا، فهو أيضًا قد شفع المشفوع إليه، وبشفاعته صار فاعلًا للمطلوب، فقد شفَّع الطَّالب والمطلوب منه، واللَّه تعالى وترٌ، لا يشفعه أحدٌ، فلا يشفع عنده أحدٌ إلَّا بإذنه، فالأمر كلُّه إليه، فلا شريك له بوجهٍ، فسيِّد الشُّفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد اللَّه تعالى، فقال له اللَّه: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**[١]، **فَيَحُدُّ لَهُ حَدًّا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ**»، فالأمر كلُّه للَّه. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

فإذا كان لا يشفع عنده أحدٌ إلَّا بإذنه لمن يشاء، ولكن يكرم الشَّفيع بقبول شفاعته، كما قال ﷺ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا يَشَاءُ**»[٢].

وفي «الصَّحيح» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيءٍ، يَا صَفِيَّةُ يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**»[٣].

وفي «الصَّحيح» أيضًا: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ شَاةٌ لَهَا يُعَارٌ، أَوْ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: أَغِثْنِي أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**»[٤].

فإذا كان سيِّد الخلق وأفضل الشُّفعاء يقول لأخصِّ النَّاس به: «**لا أملك لكم من اللَّه من شيءٍ**» فما الظَّنُّ بغيره؟ وإذا دعاه الدَّاعي، وشفع عنده الشَّفيع، فسمع الدُّعاء، وقبل الشَّفاعة، لم يكن هذا هو المؤثِّر فيه كما يؤثِّر المخلوق في المخلوق، فإنَّه ﷻ هو الَّذي جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد،

---

(١) **صحيح**: وهو في «الصحيحين»، وقد تقدم.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١٤٣٢) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٦٢٧)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٧٥٣) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بألفاظ قريبة.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٠٧٣)، ومسلم (حديث ١٨٣١) من حديث أبي هريرة مرفوعًا مطولًا وفيه نحو مما ذكر.

فهو الَّذي وفَّق العبد للتَّوبة ثمَّ قبلها، وهو الَّذي وفَّقه للعمل ثمَّ أثابه، وهو الَّذي وفَّقه للدُّعاء ثمَّ أجابه، وهذا مستقيمٌ على أصول أهل السُّنَّة المؤمنين بالقدر، وأنَّ اللَّه خالق كلِّ شيءٍ.

متن الطحاوية

قوله: «وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]. يخبر سبحانه أنَّه استخرج ذرِّيَّة بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أنَّ اللَّه ربُّهم ومليكهم، وأنَّه لا إله إلَّا هو، وقد وردت أحاديث في أخذ الذُّرِّيَّة من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشِّمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأنَّ اللَّه ربُّهم.

فمنها: ما رواه الإمام أحمد عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ** عليه السلام **بِنَعْمَانَ** - يعني يَوْمَ عَرَفَةَ - **فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا، قَالَ:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٣]»(١).

ورواه النَّسائيُّ أيضًا، وابن جريرٍ، وابن أبي حاتمٍ، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضًا عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: أنَّه سئل عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ سئل عنها، فقال: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ** عليه السلام، **ثُمَّ مَسَحَ**

---

(١) **معلول بالوقف على ابن عباس** رضي الله عنهما: فالصواب أنه من قوله والحديث أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٧٢)، والنسائي في التفسير «السنن الكبرى» (٦/ ٣٤٧ - أثر ١١١٩١/ ٢)، والطبري (١٣/ ٢٢٢ط. الشيخ أحمد شاكر رحمه الله)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٨٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» حديث (٤٤١)، والحاكم (٢/ ٥٤٤)، وغيرهم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ. ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ»**(١). ورواه أبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن أبي حاتمٍ، وابن جريرٍ، وابن حبَّان في «صحيحه».

وروى التِّرمذيُّ عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، قَالَ: رَبِّ، كَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ، قَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ، فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ»**(٢).

ثُمَّ قال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. ورواه الحاكم وقال: صحيحٌ على شرط مسلمٍ ولم يخرِّجاه.

وروى الإمام أحمد أيضًا عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: **«يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ**

---

(١) **إسناده ضعيف**: وذلك للانقطاع أو للجهالة وقد أخرجه أحمد (١/ ٤٤، ٤٥) من طريق مسلم بن يسار عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا، وأخرجه النسائي «السنن الكبرى» (٦/ ٣٤٧)، والحاكم (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥)، وأخرجه أيضًا أبو داود (حديث ٤٧٠٣)، والترمذي (حديث ٣٠٧٥)، وغيرهم جم غفير. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقال الترمذي: وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم وبين عمر رجلًا مجهولًا.

(٢) **حسن وله شواهد يصح بها**: وأخرجه الترمذي (٣٠٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وانظر أيضًا: «مستدرك الحاكم» (١/ ٦٤).

عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا»[(١)]. وأخرجاه في «الصحيحين» أيضًا، وفي ذلك أحاديث أخر أيضًا، كلُّها دالَّةٌ على أنَّ اللَّه استخرج ذرِّيَّة آدم من صلبه، وميَّز بين أهل النَّار وأهل الجنَّة.

فالآثار المرويَّة في ذلك إنَّما تدلُّ على القدر السَّابق، وبعضها يدلُّ على أنَّه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميَّز أهل السَّعادة من أهل الشَّقاوة.

وأمَّا الإشهاد عليهم هناك، فإنَّما هو في حديثين موقوفين على ابن عبَّاسٍ وابن عمر رضي الله عنهم. ومن ثمَّ قال قائلون من السَّلف والخلف: إنَّ المراد بهذا الإشهاد إنَّما هو فطرتهم على التَّوحيد، كما تقدَّم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومعنى قوله ﴿شَهِدْنَآ﴾: أي قالوا: بلى شهدنا أنَّك ربُّنا. وهذا قول ابن عبَّاسٍ وأُبيٍّ بن كعبٍ، واعلم أنَّ من المفسِّرين من لم يذكر سوى القول بأنَّ اللَّه استخرج ذرِّيَّة آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثمَّ أعادهم، كالثَّعلبيِّ والبغويِّ وغيرهما. ومنهم من لم يذكره، بل ذكر أنَّه نصب لهم الأدلَّة على ربوبيَّته ووحدانيَّته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم الَّتي ركَّبها اللَّه فيهم، كالزَّمخشريِّ وغيره، ومنهم من ذكر القولين كالواحديِّ والرَّازيِّ والقرطبيِّ وغيرهم، لكن نسب الرَّازيُّ القول الأوَّل إلى أهل السُّنَّة، والثَّاني إلى المعتزلة.

ولا ريب أنَّ الآية لا تدلُّ على القول الأوَّل، أعني أنَّ الأخذ كان من ظهر آدم، وإنَّما فيها أنَّ الأخذ من ظهور بني آدم، وإنَّما ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث، وفي بعضها الأخذ والقضاء بأنَّ بعضهم إلى الجنَّة وبعضهم إلى النَّار، كما في حديث عمر رضي الله عنه، وفي بعضها الأخذ وإراءة آدم إيَّاهم من غير قضاءٍ ولا إشهادٍ، كما في حديث أبي هريرة. والَّذي فيه الإشهاد - على الصِّفة الَّتي قالها أهل القول الأوَّل - موقوفٌ على ابن عبَّاسٍ وعمر، وتكلَّم فيه أهل الحديث، ولم يخرِّجه أحدٌ من أهل الصَّحيح غير الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» والحاكم معروفٌ تساهله رحمه الله.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٣٣٤) وفي عدة مواضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٨٠٥)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١٢٧)، واللفظ لأحمد في «المسند».

والَّذي فيه القضاء بأنَّ بعضهم إلى الجنَّة وبعضهم إلى النَّار دليلٌ على مسألة القدر. وذلك شواهده كثيرةٌ، ولا نزاع فيه بين أهل السُّنَّة، وإنَّما يخالف فيه القدريَّة المبطلون المبتدعون.

وأمَّا الأوَّل: فالنِّزاع فيه بين أهل السُّنَّة من السَّلف والخلف، ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة في ذلك، وما قيل من الكلام عليها، وما ذكر فيها من المعاني المعقولة ودلالة ألفاظ الآية الكريمة.

قال القرطبيُّ: وهذه الآية مشكلةٌ، وقد تكلَّم العلماء في تأويلها، فنذكر ما ذكروه من ذلك، حسب ما وقفنا عليه. فقال قومٌ: معنى الآية: أنَّ اللَّه أخرج من ظهر بني آدم بعضهم من بعضٍ، قالوا: ومعنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]: دلَّهم بخلقه على توحيده؛ لأنَّ كلَّ بالغٍ يعلم ضرورةً أنَّ له ربًّا واحدًا. ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] أي: قال فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، كما قال تعالى في السَّموات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: الآية ١١]، ذهب إلى هذا القفَّال وأطنب، وقيل: إنَّه ﷻ أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وإنَّه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها. ثمَّ ذكر القرطبيُّ بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك، إلى آخر كلامه.

وأقوى ما يشهد لصحَّة القول الأوَّل: حديث أنسٍ المخرَّج في «الصحيحين» الَّذي فيه: **«قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»**. ولكن قد روي من طريقٍ أخرى: **«قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ»**. وليس فيه: **«فِي ظَهْرِ آدَمَ»**(١). وليس في الرِّواية الأولى إخراجهم من ظهر آدم على الصِّفة الَّتي ذكرها أصحاب القول الأوَّل.

---

(١) وما معنى هذا الكلام من الشارح رحمه الله؟ إن كان يقصد تضعيف الرواية، فليس له ذلك، فالرواية ثابتة صحيحة ويلزمه توجيهها، ثم هب أن الآثار موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، فليس من السهل اليسير طرح كلام ابن عباس وغيره من سلف الأمَّةِ وراء الظهور، فالشارح وإن أجاب على الآية إلا أنه لم يجب بما يشفي عن الحديث والأثر، ثم ما المانع أن يكون الميثاق أخذ عليهم وهم في صلب آدم عليه السلام، وأخذ عليهم وقد استخرجهم الله من صلب آدم عليه السلام، وأخذ عليهم وهم في أصلاب الآباء كذلك - والله أعلم - وبذلك تعمل الأدلة ولا تُهمل.

بل القول الأَوَّل متضمِّنٌ لأمرين عجيبين:

أحدهما: كون النَّاس تكلَّموا حينئذٍ وأقرُّوا بالإيمان وأنَّه بهذا تقوم الحجَّة عليهم يوم القيامة.

والثَّاني: أنَّ الآية دلَّت على ذلك، والآية لا تدلُّ عليه لوجوهٍ:

أحدها: أنَّه قال: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: من آدم.

الثَّاني: أنَّه قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: من ظهره، وهذا بدل بعضٍ، أو بدل اشتمالٍ، وهو أحسن.

الثَّالث: أنَّه قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل: ذرِّيَّته.

الرَّابع: أنَّه قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: جعلهم شاهدين على أنفسهم ولا بدَّ أن يكون الشَّاهد ذاكرًا لما شهد به، وهو إنَّما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدَّار - كما تأتي الإشارة إلى ذلك - لا يذكر شهادةً قبله.

الخامس: أنَّه سبحانه أخبر أنَّ حكمة هذا الإشهاد إقامة الحجَّة عليهم؛ لئلَّا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، والحجَّة إنَّما قامت عليهم بالرُّسل والفطرة الَّتي فطروا عليها، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٥].

السَّادس: تذكيرهم بذلك، لئلَّا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، ومعلومٌ أنَّهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلِّهم وإشهادهم جميعًا ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحدٌ منهم.

السَّابع: قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٣]، فذكر حكمتين في هذا الأخذ والإشهاد؛ لئلَّا يدَّعوا الغفلة، أو يدَّعوا التَّقليد، فالغافل لا شعور له، والمقلِّد متَّبعٌ في تقليده لغيره. ولا تترتَّب هاتان الحكمتان إلَّا على ما قامت به الحجَّة من الرُّسل والفطرة.

الثَّامن: قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٣]، أي: لو عذَّبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك، وهو سبحانه إنَّما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم، فلو أهلكهم بتقليد آبائهم في شركهم من غير إقامة الحجة عليهم

بالرسل، لأهلكهم بما فعل المبطلون أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه، وقد أخبر سبحانه أنَّه لم يكن ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها غافلون، وإنَّما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرُّسل.

التَّاسع: أنَّه سبحانه أشهد كلَّ واحدٍ على نفسه أنَّه ربُّه وخالقه، واحتجَّ عليه بهذا الإشهاد في غير موضعٍ من كتابه، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨]، فهذه هي الحجَّة الَّتي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها، وذكَّرتهم بها رسله، بقولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠].

العاشر: أنَّه جعل هذا آيةً، وهي الدَّلالة الواضحة البيِّنة المستلزمة لمدلولها بحيث لا يتخلَّف عنها المدلول وهذا شأن آيات الرَّبِّ تعالى، فإنَّها أدلَّةٌ معينةٌ على مطلوبٍ معيَّنٍ مستلزمةٌ للعلم به، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤]، وإنَّما ذلك بالفطرة الَّتي فطر النَّاس عليها لا تبديل لخلق اللَّه، فما من مولودٍ إلَّا يولد على الفطرة، لا يولد مولودٌ على غير هذه الفطرة، هذا أمرٌ مفروغٌ منه، لا يتبدَّل ولا يتغيَّر. وقد تقدَّمت الإشارة إلى هذا، واللَّه أعلم.

وقد تفطَّن لهذا ابن عطيَّة وغيره، ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الأحاديث الَّتي فيها التَّصريح بأنَّ اللَّه أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثمَّ أعادهم، وكذلك حكى القولين الشَّيخ أبو منصور الماتريديُّ في «شرح التَّأويلات» ورجَّح القول الثَّاني، وتكلَّم عليه ومَالَ إليه.

ولا شكَّ أنَّ الإقرار بالرُّبوبيَّة أمرٌ فطريٌّ، والشِّرك حادثٌ طارئٌ، والأبناء تقلَّدوه عن الآباء، فإذا احتجُّوا يوم القيامة بأنَّ الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم، كما يجري النَّاس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن، يقال لهم: أنتم كنتم معترفين بالصَّانع، مقرِّين بأنَّ اللَّه ربُّكم لا شريك له، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم، فإنَّ شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشَّيء ليس إلَّا، قال اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٣٥]. وليس المراد أن يقول: أشهد على نفسي بكذا، بل من أقرَّ بشيءٍ فقد شهد على نفسه به، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الَّذي شهدتم به على أنفسكم إلى الشِّرك؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقَّن إلى ما لا يعلم له

حقيقةٌ؛ تقليدًا لمن لا حجَّة معه، بخلاف اتِّباعهم في العادات الدُّنيويَّة، فإنَّ تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها، وفيه مصلحةٌ لكم، بخلاف الشِّرك، فإنَّه كان عندكم من المعرفة والشَّهادة على أنفسكم ما يبيِّن فساده وعدولكم فيه عن الصَّواب.

فإنَّ الدِّين الَّذي يأخذه الصَّبيُّ عن أبويه هو دين التَّربية والعادة، وهو لأجل مصلحة الدُّنيا، فإنَّ الطِّفل لا بدَّ له من كافلٍ، وأحقُّ النَّاس به أبواه، ولهذا جاءت الشَّريعة بأنَّ الطِّفل مع أبويه على دينهما في أحكام الدُّنيا الظَّاهرة، وهذا الدِّين لا يعاقبه اللَّه عليه - على الصَّحيح - حتَّى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجَّة، وحينئذٍ فعليه أن يتَّبع دين العلم والعقل، وهو الَّذي يعلم بعقله هو أنَّه دينٌ صحيحٌ.

فإن كان آباؤه مهتدين، كيوسف الصِّدِّيق مع آبائه، قال: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [يوسف: الآية ٣٨]، وقال ليعقوبَ بَنُوه: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: الآية ١٣٣]، وإن كان الآباء مخالفين للرُّسل، كان عليه أن يتَّبع الرُّسل، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ الآية [العنكبوت: الآية ٨].

فمنِ اتَّبع دين آبائه بغير بصيرةٍ وعلمٍ، بل يعدل عن الحقِّ المعلوم إليه، فهذا اتَّبع هواه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: الآية ١٧٠].

وهذه حال كثيرٍ من النَّاس من الَّذين ولدوا على الإسلام، يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقادٍ ومذهبٍ، وإن كان خطأً ليس هو فيه على بصيرةٍ، بل هو من مسلمة الدَّار، لا مسلمة الاختيار، وهذا إذا قيل له في قبره: من ربُّك؟ قال؟ هاه هاه، لا أدري، سمعت النَّاس يقولون شيئًا فقلته.

فليتأمَّل اللَّبيب هذا المحلَّ، ولينصح نفسه، وليقم لله، ولينظر من أيِّ الفريقين هو؟ واللَّه الموفِّق.

فإنَّ توحيد الرُّبوبيَّة لا يحتاج إلى دليلٍ، فإنَّه مركوزٌ في الفطر. وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لمَّا كان نطفةً، وقد خرج من بين الصُّلب والتَّرائب، والتَّرائب: عظام الصَّدر، ثمَّ صارت تلك النُّطفة في قرارٍ مكينٍ، في ظلماتٍ

ثلاثٍ، وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعةً على لوحٍ أو طبقٍ، واجتمع حكماء العالم على أن يصوِّروا منها شيئًا لم يقدروا.

ومحالٌ توهُّم عملِ الطَّبائع فيها؛ لأنَّها مواتٌ عاجزةٌ، ولا توصف بحياةٍ، ولن يتأتَّى من الموات فعلٌ وتدبيرٌ، فإذا تفكَّر في ذلك وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال، علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا علم بالعقل أن له ربًّا أوجده، كيف يليق به أن يعبد غيره؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقينا وتوحيدًا، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه.

متن الطحاوية

قوله: «وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا لَمْ يَزَلْ عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَا يُزَادُ فِي ذَلِكَ الْعَدَدُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ. وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ»

الشرح

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠]. فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيءٍ عليم، أزَلًا وأبدًا، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. وعن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه ينكت بمخصرته، ثم قال: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا قَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً»**، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: **«مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»**. ثم قال: **«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»** ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠] خرجاه في «الصحيحين»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ١٣٦٢) وفي غير موطن من «صحيحه»، ومسلم (٢٦٤٧) بنحوه.

متن الطحاوية

قوله: «وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَالأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ»

الشرح

تقدم من حديث علي رضي الله عنه وقوله ﷺ فيه: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله، بَيِّنْ لنا ديننا كأنَّا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**»، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال؟ فقال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**»(١).

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(٢)، خرجاه في «الصحيحين»، وزاد البخاري: «**وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**».

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٦٤٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٨٩٨)، وأخرجه مسلم (حديث ١١٢)، ولفظ مسلم: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالُوا: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

ولفظة: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**» عند البخاري (٦٦٠٧).

وفي «الصحيحين» أيضا عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا**»(١). والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكذلك الآثار عن السلف.

قال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد»: قد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق.

❊ ❊ ❊

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٢٠٨)، وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٦٤٣) وغيرهما.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

وقوله: «وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

الشرح

«**أصل القدر سر الله في خلقه**»، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى. قال علي ﷺ: القدر سر الله فلا تكشفه.

والنزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور، والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: الآية ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٢]. وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كونًا، ولا يرضاه دينًا.

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا: أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فروا إلى هذا؛ لئلا يقولوا: شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار. فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه؛ فإنه يلزمهم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه - على قولهم - والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل، ووقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد، فقال: يا هؤلاء، إن ناقتي سرقت فادعوا الله أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه! فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك! قال:

ولم؟ قال: أخاف كما أراد أن لا تسرق فسرقت أن يريد ردها فلا ترد.

وأما الأدلة من الكتاب والسنة: فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: الآية ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: الآية ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥].

ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوبًا مرضيًّا، وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة.

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب، فقد تقدم ذكر بعضها، وأما نصوص المحبة والرضا، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٥]. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: الآية ٧]، وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: الآية ٣٨].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»(١).

وفي «المسند»: «**إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته**»(٢).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١٤٧٧) وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٥٩٣/ ص ١٣٤١) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ مرفوعًا.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ١٠٨) بسنده إلى ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**» **وإسناده صحيح**.

وكان من دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»(١).

فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة.

فالأول: للصفة.

والثاني: لأثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده، لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتي مما أكره ومنعه أن يحل بي، هي بمشيئتك أيضًا، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذي بك منك، وعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك. ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل هو منك. فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته.

فإن قيل: كيف يريد الله أمرا ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكوّنه؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكراهته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فِرَقًا، وتباينت طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكون مقصودًا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

يتنافيان، لاختلاف متعلقهما. وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف بمن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سببا إلى أمر هو أحب إليه من فوته.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه. ومع هذا فهو وسيلة إلى محابّ كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات، التي هي أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبرائيل، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا. كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والداء والدواء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والخير والشر. وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وجعلها مجال تصرفه وتدبيره، فَخُلُوٌّ الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع الحساب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء؛ لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِر**

لَهُمْ»(١).

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك. فلو قدر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر، لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه. ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله ﷻ والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها.

وقوله: «**وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ**» إلى آخره.

التعمق: هو المبالغة في طلب الشيء. والمعنى: أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان.

الذريعة: الوسيلة، والذريعة والدرجة والسلم متقاربة المعنى، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقارب المعنى أيضا، لكن الخذلان في مقابلة النصر، والحرمان في مقابلة الظفر، والطغيان في مقابلة الاستقامة.

وقوله: «**فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً**».

عن أبي هريرة ﷺ، قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رسول الله

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا بنحوه.

ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**»[١]. رواه مسلم.

الإشارة بقوله: «**ذاك صريح الإيمان**» إلى تعاظمهم أن يتكلموا به[٢].

ولمسلم أيضًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة؟ فقال: «**تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ**»[٣].

وهو بمعنى حديث أبي هريرة، فإن وسوسة النفس ومدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان.

هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم - والتابعين لهم بإحسان - ثم خلف من بعدهم خلف سودوا الأوراق بتلك الوساوس، التي هي شكوك وشبه، بل وسودوا القلوب، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق؛ ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه.

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**»[٤]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبي هند، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: فَكَأَنَّمَا تَفَقَّأَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ، قال: فقال لهم: «**مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ بِهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**» قَالَ: فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ أَشْهَدْهُ، بِمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ، أَنِّي لَمْ أَشْهَدْهُ[٥]. ورواه ابن ماجه أيضًا.

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في «صحيحه» (حديث رقم ١٣٢).

(٢) المراد أن كتمانهم الحديث وعدم بث ما يجدونه في صدورهم من الوساوس ذاك كله صريح الإيمان.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ١٣٣).

(٤) **صحيح**: وقد تقدم.

(٥) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (حديث ٨٥)، وأحمد (٢/ ١٧٨) وغيرهما.

وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: الآية ٦٩].

الخلاق: النصيب، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] أي: استمتعتم بنصيبكم من الدنيا كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم.

وخضتم كالذي خاضوا أي: كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا.

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض؛ لأن فساد الدين إما في العمل وإما في الاعتقاد.

فالأول من جهة الشهوات.

والثاني من جهة الشبهات.

وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَآخِذَ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**»، قالوا: فارس والروم؟ قال: «**فَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟**»(١).

عن عبد الله بن عمرو ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثِنْتَيْنِ وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة**». قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»(٢). رواه الترمذي.

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (حديث ٧٣١٩)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «**وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟!**» وعند البخاري (حديث ٧٣٢٠) ومسلم (حديث ٢٦٦٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**».

(٢) **سنده ضعيف**: أخرجه الترمذي (حديث ٢٦٤١)، وقال: هذا حديث مُفسَّرٌ غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قلت (مصطفى): وفي سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي وهو ضعيف، ولبعض فقرات هذا الحديث شواهد.

وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأئمة مسألة القدر. وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

وقوله: «**فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**».

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع؛ ولهذا لم يَحْكِ الله سبحانه عن أمة نبيٍّ صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به، ونهاها عنه، وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما في الإنجيل: «يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا»؛ ولهذا كان سلف هذه الأمة. التي هي أكمل الأمم عقولًا ومعارف وعلومًا لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم.

فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورًا به، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته، فإن ظهرت له فعله وإلا عطّله، فإن هذا ينافي الانقياد، ويقدح في الامتثال.

قال القرطبي ناقلًا عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهمًا راغبًا في العلم ونفي الجهل عن نفسه باحثًا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه، فلا بأس به، فشفاء العيّ السؤال. ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره.

قال ابن العربي: الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة، وإيضاح سبل

النظر، وتحصيل مقدمات الاجتهاد، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد. قال: فإن عرضت لك نازلة، أتيت من بابها، ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها. انتهى.

ولا شك في تكفير من رد حكم الكتاب، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له، بُيِّن له الصواب ليرجع إليه، والله ﷻ لا يسأل عما يفعل؛ لكمال حكمته ورحمته وعدله، لا بمجرد قهره وقدرته، كما يقول جَهْمٌ وأتباعه. وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ: «**ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله**».

متن الطحاوية

قوله: «فَهَذَا جُمْلَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الْخَلْقِ مَوْجُودٌ، وَعِلْمٌ فِي الْخَلْقِ مَفْقُودٌ، فَإِنْكَارُ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ كُفْرٌ، وَادِّعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ، وَلَا يَثْبُتُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ»

الشرح

الإشارة بقوله: «**فهذا**» إلى ما تقدم ذكره، مما يجب اعتقاده والعمل به، مما جاءت به الشريعة.

وقوله: «وهي درجة الراسخين في العلم» أي: علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلًا، نفيًا وإثباتًا.

ويعني بالعلم المفقود: علم القدر الذي طواه الله عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، ويعني بالعلم الموجود، علم الشريعة، أصولها وفروعها، فمن أنكر شيئًا مما جاء به الرسول كان من الكافرين، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين. قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الآية [الجن: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: الآية ٣٤]. ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا

انتفاء حكمته؛ ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات، التي لا يعلم منها إلا المضرة لم ينف أن يكون الله تعالى خالقا لها، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا؛ لأن عدم العلم لا يكون علما بالمعدوم.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمَ»

الشرح

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

اللوح المذكور: هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله، وكتب به في اللوح المذكور المقادير، كما في «سنن أبي داود»، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»**(١).

واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات، أو العرش؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمذاني، أصحهما: أن العرش قبل القلم، لما ثبت في «الصحيح» من حديث عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: **«قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»**(٢).

فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، بحديث عبادة هذا. ولا يخلو قوله: **«أول ما خلق الله القلم...»** إلخ إما أن يكون جملة أو جملتين. فإن كان جملة، وهو الصحيح، كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: «اكتب». كما في اللفظ: **«أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ»**.

---

(١) **صحيح بمجموع طرقه:** أخرجه أبو داود (حديث ٤٧٠٠)، والترمذي (حديث ٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (ص ٤٨، ٤٩/ ١)، وغيرهم.

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا.

بنصب «أول» و «القلم». وإن كان جملتين، وهو مروي برفع «أول» و «القلم»، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق الحديثان؛ إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم. وفي اللفظ الآخر: **«لما خلق الله القلم قال له: اكتب»**.

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلّها. وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ ﴿١﴾ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١، ٢].

والقلم الثاني: قلم الوحي: وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكّام على العالم. والأقلام كلها خدم لأقلامهم. وقد رفع النبي ﷺ ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «فَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كَائِنٌ؛ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّه غَيرُ كَائِنٍ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»

الشرح

تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ، قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال: «**لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا، فقال: «**يَا غُلَامُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»(٢). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي: «**احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**».

وقد جاءت «الأقلام» في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلامًا غير القلم الأول، الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

(٢) **صحيح لشواهده**: أخرجه الترمذي (حديث ٢٥١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (١/ ٣٠٣، ٣٠٤)، وغيرهما وهو صحيح بمجموع طرقه.

والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة - وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره:

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح.

القلم الثاني: حين خلق آدم عليه السلام، وهو قلم عام أيضًا، لكن لبني آدم، ورد في هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم، عقيب خلق أبيهم.

القلم الثالث: حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد[1] كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة.

وإذا علم العبد أن كلًّا من عند الله، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤١]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: الآية ٥٢]، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: الآية ٥٦].

ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة. ولا بد لكل عبد أن يتقي أشياء، فإنه لا يعيش وحده، ولو كان ملكًا مطاعًا فلا بد أن يتقي أشياء يراعي بها رعيته. فحينئذٍ فلا بد لكل إنسان أن يتقي، فإن لم يَتَّقِ الله اتقى المخلوق، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم، بل الذي يريده هذا يبغضه هذا، فلا يمكن إرضاؤهم كلهم، كما قال الشافعي رضي الله عنه: رضا الناس غاية لا تدرك، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه، ودع ما سواه فلا تُعَانِه. فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور، وإرضاء الخالق مقدور ومأمور.

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

وأيضًا فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئا، فإذا اتقى العبد ربه، كفاه مؤونة الناس. كما كتبت عائشة إلى معاوية رضي الله عنهما، روي مرفوعا، وروي موقوفا عليها: من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله، عاد حامده من الناس ذامًّا(١).

فمن أرضى الله كفاه مؤونة الناس ورضي عنه، ثم فيما بعد يرضون؛ إذ العاقبة للتقوى، ويحبه الله فيحبه الناس، كما في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: **«إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى يا جِبْرِيلُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثم يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ»**(٢)، وقال في البغض مثل ذلك.

فقد بين أنه لابد لكل مخلوق من أن يتقي: إما المخلوق، وإما الخالق. وتقوى المخلوق ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة، وتقوى الله هي التي يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة، فهو سبحانه أهل للتقوى، وهو أيضا أهل للمغفرة، فإنه هو الذي يغفر الذنوب، لا يقدر مخلوق على أن يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره، وهو الذي يجير ولا يُجَار عليه.

قال بعض السلف: ما احتاج تقيٌّ قط؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللًا، فليستغفر الله وليتب إليه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: الآية ٣]، أي: فهو كافيه، لا يحوجه إلى غيره.

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب وهذا فاسد، فإن الاكتساب منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، كما قد عرف في موضعه.

---

(١) **إسناده صحيح:** أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» بتحقيقي (حديث ١٥٢٢)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مرفوعًا بلفظ: **«مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَسْخَطَ اللَّهَ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»**، وانظره في المصدر المشار إليه، وقد ذكر له بعض العلماء علة، لكن معناه صحيح.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٦٠٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا وله سياق أتم عند مسلم (٢٦٣٧).

وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لَأْمَةَ الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: الآية ٧]. ولهذا تجد كثيرًا ممن يرى أَنَّ الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم، إما صدقة، وإما هدية، وقد يكون ذلك من مَكَّاسٍ، أو والي شرطة، أو نحو ذلك، وهذا مبسوط في موضعه، لا يسعه هذا المختصر.

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الأقوال التي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: الآية ٣٩].

متن الطحاوية

قوله: «وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ»

الشرح

هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا محالة، ولقد أحسن القائل حيث يقول:

مَا قَضَى اللَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَهْ ... وَالشَّقِيُّ الْجَهُول مَنْ لَامَ حَالَهْ

والقائل الآخر:

اقْنَعْ بِمَا تُرْزَقُ يَا ذَا الْفَتَى ... فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَهْ
إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قَائِمًا ... وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا نَمْ لَهْ

متن الطحاوية

قوله: «وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا، لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ وَلَا مُعَقِّبٌ، وَلَا مُزِيلٌ وَلَا مُغَيِّرٌ وَلَا مُحَوِّلٌ وَلَا نَاقِصٌ وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ»

الشرح

هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات، وأنه قدر مقاديرها قبل خلقها، كما قال ﷺ: **«قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ**

وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سنة، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[١]. فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها، على ما اقتضته حكمته البالغة، فكانت كما علم. فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور إيجادها إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: الآية ١٤].

وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالمًا في الأزل، وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خُصِمُوا، وإن أنكروا كفروا. فالله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه. فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة، وقد علم الله ذلك منه، ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه.

متن الطحاوية

قوله: «وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ، وَأُصُولِ الْمَعْرِفَةِ، وَالِاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]»

الشرح

الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها. قال ﷺ في جواب السائل عن الإيمان: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**. وقال ﷺ في آخر الحديث: **«يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟»** قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **«فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»**. رواه مسلم[٢].

وقوله: «والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته»، أي: لا يتم التوحيد والاعتراف بالربوبية

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث رقم ٨).

إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقًا غير الله فقد أشرك، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله؟!

وكل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة. وإنما يصح الموقوف منها: فعن ابن عباس ﷺ أنه قال: «القدر نظام التوحيد، فمن وحّد الله وكذّب بالقدر نقض تكذيبُهُ توحيدَهُ»، وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم وما أظهر من علمه الذي لا يُحَاطُ به وكتابة مقادير الخلائق. وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم، ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر.

وأما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد، فأخرجوها عن قدرته وخلقه.

والقدر - الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه، وأن الذي جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع - هو ما قدره الله من مقادير العباد. وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية، يعني به هؤلاء، كقول ابن عمر ﷺ، لما قيل له: يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنُفٌ: أخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء.

والقدر - الذي هو التقدير المطابق للعلم - يتضمن أصولًا عظيمة:

أحدها: أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها، فيثبت علمه القديم، وفي ذلك الرد على من ينكر علمه القديم.

الثاني: أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها، فإن الله قد جعل لكل شيء قدرًا، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٢].

فالخلق يتضمن التقدير، تقدير الشيء في نفسه، بأن يُجعل له قدر، وتقديره قبل وجوده. فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كميته وكيفيته، كان ذلك أبلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة، خلافًا لمن أنكر ذلك وقال: إنه يعلم الكليات دون الجزئيات! فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات.

الثالث: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخبارًا مفصلًا، فيقتضي أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علمًا مفصلًا، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أَوْلَى بهذا العلم، فإنه إذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو؟!!

الرابع: أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله، مُحْدِثٌ له بمشيئته وإرادته، ليس لازمًا لذاته.

الخامس: أنه يدل على حدوث هذا المقدور، وأنه كان بعد أن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه.

متن الطحاوية

قوله: «فَوَيْلٌ لِمَنْ صَاعَ لَهُ فِي الْقَدَرِ قَلْبًا سَقِيمًا - وَفِي نُسْخة: فَوَيْل لِمَن صَارَ قَلبه فِي القدر قَلْبًا سقيمًا - لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا، وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكًا أَثِيمًا»

الشرح

القلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢] أي: كان ميتًا بالكفر فأحييناه بالإيمان. فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر».

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك، بحسب قوة المرض وضعفه.

ومرض القلب نوعان، كما تقدم: مرض شهوة، ومرض شبهة، وأردؤهما مرض الشبهة، وأردأ الشبه ما كان من أمر القدر. وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه

جهله بالحق وعقائده الباطلة. فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، و:

.... ما لجرح بميت إيلام

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس له أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه، لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول: أين ذهب الناس فلي أسوة بهم؟ وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم. فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: الآية ٦٩].

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب «الحوادث والبدع»: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلًا والمخالف له كثيرًا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: «السنة - والذي لا إله إلا هو - بين الغالي والجافي. فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا».

وعلامة مرض القلب: عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة، إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع، إلى دوائه الضار.

فها هنا أربعة أشياء: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك.

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء، فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضل الضالين، فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: الآية ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٢]، و﴿مِنَ﴾ [الإسراء: الآية ٨٢] في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: الآية ٨٢] لبيان الجنس، لا للتبعيض.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: الآية ٥٧].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل للاستشفاء به. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه، لم يقاوم الداء أبدًا. وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله فهمًا في كتابه.

وقوله: «**لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا**».

أي: طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرًّا مكتومًا، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، إلى آخر السورة.

وقوله: «وعاد بما قال فيه»، أي في القدر: «**أفاكا**»: كذابا، «**أثيما**»: أي مأثوما.

متن الطحاوية

قوله: «وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ حَقٌّ»

الشرح

كما بين تعالى في كتابه، قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾، ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: الآية ١٥]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤]، في غير ما آية من القرآن، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٦]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: الآية ٢٦]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: الآية ٧]، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: الآية ١٧]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: الآية ٧٥].

وفي دعاء الكرب المروي في الصحيح: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا إِلَه إِلَّا اللَّه رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**»(١).

وفي «صحيح البخاري» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجنة، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهَا أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ**»(٢).

يروى و«فوقه» بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه: الفلك الأطلس، والفلك التاسع! وهذا ليس بصحيح؛ لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: «**فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (مع الفتح ٦/ ١١)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعًا.

قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»(١).

والعرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: الآية ٢٣]. وليس هو فلكًا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات.

وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ ﷻ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ أُذُنِيهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**». ورواه ابن أبي حاتم ولفظه: «**مخفق الطير سبعمائة عام**»(٢).

وأما من حرف كلام الله، وجعل العرش عبارة عن الملك، كيف يصنع بقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: الآية ١٧]؟ وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: الآية ٧]. أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟ وكان ملكه على الماء؟ ويكون موسى عليه السلام آخذًا بقائمة من قوائم الملك هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول؟!

وأما الكرسي فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥].

وقد قيل: هو العرش، والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. روى ابن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش»، والحاكم في «مستدركه»، وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] أنه قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى. وقد روي مرفوعًا، والصواب أنه موقوف على ابن عباس(٣).

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

(٢) **إسناده صحيح:** أخرجه أبو داود (حديث ٤٧٢٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (حديث ٨٤٦)، وغيرهما، وللحديث شواهد أيضًا، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الحاكم (٤/ ٢٩٧)، وانظر أيضًا: «مسند أبي يعلى» (٦٦١٩)، وغير ذلك.

(٣) **صحيح موقوفٌ على ابن عباس رضي الله عنهما:** أخرجه الطبري (٥٧٩٢)، والحاكم (٢/ ٢٨٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٠٤)، وغيرهم، أما الرواية المرفوعة فهي ضعيفة.

وقيل: كرسيه: علمه، وينسب إلى ابن عباس. والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة، كما تقدم، ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن، والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم، كما قيل في العرش. وإنما هو - كما قال غير واحد من السلف: بين يدي العرش كالمرقاة إليه.

متن الطحاوية

قوله: «وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقَهُ

الشرح

أما قوله: «وهو مستغن عن العرش وما دونه». فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: الآية ١٥]. وإنما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكلام هنا؛ لأنه لما ذكر العرش والكرسي، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش، ليبين أن خلقه للعرش واستواءه عليه، ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل، لا يلزم أن يكون السافل حاويًا للعالي، محيطًا به، حاملًا له، و لا أن يكون الأعلى مفتقرًا إليه.

فانظر إلى السماء، كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأنًا وأجلُّ من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته ﷻ به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش، وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له. وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

ونفاة العلوّ، أهل التعطيل، لو فصلوا بهذا التفصيل؛ لهُدُوا إلى سواء السبيل، وعلموا مطابقة العقل للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل، فَضَلُّوا عن سواء السبيل. والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] كيف استوى؟ فقال: الاستواء

معلوم والكيف مجهول[١]. ويروى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفًا ومرفوعًا إلى النبي ﷺ.

وأما قوله: «محيط بكل شيء وفوقه»، وفي بعض النسخ «محيط بكل شيء فوقه» بغير واو من قوله: «فوقه»، والنسخة الأولى هي الصحيحة. ومعناها أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء.

ومعنى الثانية: أنه محيط بكل شيء فوق العرش. وهذا - والله أعلم - إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهوًا، ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة، أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصدًا للفساد، وإنكارًا لصفة الفوقية وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات، فلا يبقى لقوله: محيط بكل شيء فوق العرش - والحالة هذه معنًى؛ إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحاط به، فتعين ثبوت الواو، ويكون المعنى أنه سبحانه محيط بكل شيء، وفوق كل شيء.

أما كونه محيطًا بكل شيء، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: الآية ٢٠]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ [فصلت: الآية ٥٤]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: الآية ١٢٦].

وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وإنما المراد: إحاطة عظمة وسعة، وعلم وقدرة، وأنها بالنسبة إلى عظمته كالخردلة. كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

ومن المعلوم - ولله المثل الأعلى - أن الواحد مِنَّا إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها،

---

(١) **أثر مالك هذا صحيح عن مالك:** أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٦٧)، ولفظه هناك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهو أيضًا عند اللالكائي (٣/ ٣٩٨) بسند ضعيف.

عالٍ عليها فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف؟! فلو شاء لقبض السموات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فإنه لا يتجدد له - إذ ذاك - قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سمواته أو يدني إليه مَنْ يشاء مِنْ خلقه؟! فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره.

وأما كونه فوق المخلوقات، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: الآية ٥٠]، وقال ﷺ في حديث الأوعال المتقدم: «**وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**»(٢).

وفي رواية: «**تغلب غضبي**» رواه البخاري وغيره.

وروى مسلم عن النبي ﷺ، في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣] بقوله: «**أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(٣).

والمراد بالظهور هنا: العلوّ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي يعلوه.

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان منها لأزلية(٤) الرب ﷻ وأبديته، واسمان لعلوه وقربه، وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة، لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، فقال النبي ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ**»(٥). وهو حديث صحيح، أخرجه الأموي في «مغازيه»، وأصله

---

(١) **ضعيف:** وقد تقدم قريبًا.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣١٩٤)، وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٧٥١)، وغيرهما.

(٣) **صحيح:** وقد تقدم تخريجه.

(٤) لفظ الأزل هذا ما زلت أبحث على مستندٍ له والأَوْلَى اتقاؤه وإبداله بلفظ من الكتاب والسنة.

(٥) أخرجه البخاري (حديث ٣٠٤٣)، وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ١٧٦٨)، =

في «الصحيحين».

وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها: أنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، وتقول: «**زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**»[(١)].

وروى عكرمة عن ابن عباس، في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: الآية ١٧] قال: ولم يستطع أن يقول: من فوقهم؛ لأنه قد علم أن الله سبحانه من فوقهم.

ومن سمع أحاديث الرسول ﷺ وكلام السلف، وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر.

ولا ريب أن الله سبحانه لما خلق الخلق، لم يخلقهم في ذاته المقدسة - تعالى الله عن ذلك - فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، فتعين أنه خلقهم خارجًا عن ذاته، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم، لكان متصفًا بضد ذلك؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده.

والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده، التي تقرب من عشرين نوعًا:

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونًا بأداة «من» المعينة للفوقية بالذات، كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: الآية ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٨].

الثالث: التصريح بالعروج إليه نحو: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: الآية ٤]،

= من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا ولفظه: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ**»، وفي رواية: «**بِحُكْمِ الْمَلِكِ**»، وبألفاظ قريبة لكن بدون قوله: «**مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ**».

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٧٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

وقوله ﷺ: «**فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ**»(١).

الرابع: التصريح بالصعود إليه، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: الآية ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: الآية ١٥٨]. وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥].

السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو، ذاتًا وقدرًا وشرفًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: الآية ٢٣]، ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: الآية ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: الآية ٢]، ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: الآية ١]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: الآية ٤٢]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: الآية ١٠٢]، ﴿حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ١- ٥].

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٦]. ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾ [الأنبياء: الآية ١٩]. ففرق بين «من له» عمومًا وبين «من عنده» من مماليكه وعبيده خصوصًا، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه: «**أَنَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ**»(٢).

التاسع: التصريح بأنه تعالى في السماء، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون «في» بمعنى «على»، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز الحمل على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقرونًا بأداة «على» مختص بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحبًا في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٥٥٥)، ومسلم (حديث ٦٣٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

(٢) **صحيح:** وقد تقدم.

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى، كقوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي من عبده إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**»[١].

والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كل داع، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

الثاني عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حِسًّا إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم به وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر، لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله، في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: «**أنتم مسؤولون عني، فماذا أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت[٢]، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلا: «**اللهم اشهد**». فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه: «**اللهم اشهد**»، ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين، وحذلقة المتحذلقين والحمد لله رب العالمين.

الرابع عشر: التصريح بلفظ «الأين» كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأفصحهم بيانًا عن المعنى الصحيح، بلفظ لا يوهم باطلًا بوجه: «**أين الله**»[٣]، في

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي مع «تحفة الأحوذي» (٩/ ٥٤٤)، وقال: حسن صحيح، وأبو داود في الصلاة (٣٥٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٥)، وغيرهم من حديث سلمان ؓ مرفوعًا، ولمزيد انظر كتابنا «فقه الدعاء».

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله ؆ في حجة النبي ﷺ وفيه: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي ؓ مرفوعًا، في سياق مطول بعض الشيء.

غير موضع.

الخامس عشر: شهادته ﷺ لمن قال: إن ربه في السماء بالإيمان.

السادس عشر: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء، ليطلع إلى إله موسى، فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات، فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني، ومن أثبته فهو موسوي محمدي.

السابع عشر: إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة، فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرارٍ(١).

الثامن عشر: النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى، من الكتاب والسنة، وإخبار النبي ﷺ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، ولا يرونه إلا من فوقهم. ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية، ولهذا طرد الجهمية النفيين، وصدّق أهل السنة بالأمرين معًا، وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبذبا بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك.

وكلام السلف في إثبات صفة العلو كثير جدًّا: فمنه:

ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه: «الفاروق»، بسنده إلى أبي مطيع البلخي: أنه سأل أبا حنيفة عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؟ فقال: قد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥] وعرشه فوق سبع سموات.

قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر؛ لأنه أنكر أنه في السماء، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر، وزاد غيره: لأن الله في أعلى عليين، وهو يُدْعى من أعلى، لا

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

من أسفل. انتهى.

ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم، مخالفون له في كثير من اعتقاداته، وقد ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد من يخالفهم في بعض اعتقاداتهم. وقصة أبي يوسف في استتابته لبشر المريسي، لما أنكر أن يكون الله ﷻ فوق العرش مشهورة، رواها عبد الرحمن بن أبي حاتم وغيره.

ومن تأول «فوق»، بأنه خير من عباده وأفضل منهم، وأنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم: فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة، وتشمئز منه القلوب الصحيحة فإن قول القائل ابتداء: الله خير من عباده، وخير من عرشه من جنس قوله: الثلج بارد، والنار حارة، والشمس أضوأ من السراج، والسماء أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحصى، ورسول الله أفضل من اليهود، والسماء فوق الأرض وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه فكيف يليق بكلام الله، الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا بل في ذلك تنقص، كما قيل في المثل السائر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

ولو قال قائل: الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك لضحك منه العقلاء، للتفاوت الذي بينهما، فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم. بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك، بأن كان احتجاجًا على مبطل، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: الآية ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: الآية ٥٩]، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: الآية ٧٣].

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت «الفوقية» المطلقة من كل وجه، فله ﷻ فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات. ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه.

فإن قيل: المراد علوه في القلوب، وأنه أعلى في القلوب من كل شيء، **قيل:**

وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء، فإن لم يكن عاليًا بنفسه على كل شيء، كان علوه في القلوب غير مطابق، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى، وعلوه ﷻ كما هو ثابت بالسمع، ثابت بالعقل والفطرة.

أما ثبوته بالفطرة: فإن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى. وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمذاني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال الشيخ أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؟ فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل، وأظنه قال: وبكى، وقال: حيرني الهمذاني حيرني الهمذاني، أراد الشيخ: أن هذا أمر فطر الله عليه عباده، من غير أن يتلقوه من المعلمين، يجدون في قلوبهم طلبًا ضروريًّا يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو، وقد اعترض على الدليل العقلي بإنكار بداهته؛ لأنه أنكره جمهور العقلاء، فلو كان بديهيًّا لما كان مختلفًا فيه بين العقلاء، بل هو قضية وهمية خيالية.

واعترض على الدليل الفطري: أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلة للدعاء، كما أن الكعبة قبلة للصلاة، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض.

وأجيب على هذا الاعتراض من وجوه:

أحدها: أن قولكم: إن السماء قبلة للدعاء لم يقله أحد من سلف الأمة، ولا أنزل الله به من سلطان، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها.

الثاني: أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة، وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة[1]، فمن قال: إن للدعاء

---

(١) **هذا المعنى صحيح:** انظر هذا المعنى في «صحيح مسلم» مع النووي (١٢/ ٨٤)، من حديث ابن عباس =

قبلة غير قبلة الصلاة، أو أن له قبلتين: إحداهما الكعبة والأخرى السماء فقد ابتدع في الدين، وخالف جماعة المسلمين.

الثالث: أن القبلة هي ما يستقبله العابد بوجهه، كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء، والذكر والذبح، وكما يوجه المحتضر والمدفون، ولذلك سميت «وجهة»، والاستقبال خلاف الاستدبار، فالاستقبال بالوجه، والاستدبار بالدبر، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى «قبلة»، لا حقيقة ولا مجازًا، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، وهذا لم يشرع، والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى «قبلة»، لا حقيقة ولا مجازًا؛ ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعيٌّ تتبع فيه الشرائع، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجهه، بل نهوا عن ذلك.

ومعلوم أن التوجه بالقلب، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري، يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله، مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة.

وأمر التوجه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه، ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده.

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا بأن يميل إليه إذ هو تحته، هذا لا يخطر في قلب ساجد. ولكن يحكى عن بشر المريسي أنه سمع وهو يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال لَحَرِيٌّ أن يتزندق، إن لم يتداركه الله برحمته، وبعيد من مثله الصلاح، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ

= في دعاء النبي ﷺ عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ففيه: فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي**» وانظر أيضًا حديث ابن مسعود في «الصحيحين» (حديث ٣٩٦٠)، ومسلم (حديث ١٧٩٤).

﴿يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: الآية ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: الآية ٥]. فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان. نسأل الله العفو والعافية.

وقوله: «**وقد أعجز عن الإحاطة خلقه**» - أي لا يحيطون به علمًا ولا رؤية - ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة، بل هو سبحانه محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء.

متن الطحاوية

قوله: «وَنقُولُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، إِيمَانًا وَتَصْدِيقًا وَتَسْلِيمًا»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٦٤].

الخلة: كمال المحبة، وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين، زعمًا منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة، وكذلك أنكروا حقيقة التكليم كما تقدم، وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم، في أوائل المائة الثانية، فضحّى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، ثم نزل فذبحه(١)، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين ﷺ، فجزاه الله عن الدين وأهله خيرًا.

وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان، فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قول «الجهمية». فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها(٢)، ثم انتقل ذلك

(١) هذه القصة ضعيفة الإسناد.

(٢) قصة الجعد بن درهم هذه وقفنا عليها بإسناد ضعيف. فقد أخرجها البخاري في «خلق أفعال =

إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون، حتى امتحن أئمة الإسلام، ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك.

وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلًا، وموسى كليمًا؛ لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب، كما قيل:

قد تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَلِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلًا

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى، كسائر صفاته. ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه، قال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»[1]، يعني نفسه.

وفي رواية: «**ألا إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**».

وفي رواية: «**إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**».

فبين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلًا. وأنه لو أمكن ذلك لكان أحقَّ الناس به أبو بكر الصديق. مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصًا، كقوله لمعاذ: «**وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»[2]. وكذلك قوله للأنصار[3]. وكان زيد بن حارثة حِبَّ رسول الله ﷺ، وابنه أسامة حبه. وأمثال ذلك. وقال له عمرو ابن العاص: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عَائِشَةُ**»، قال: فمن الرجال؟

= العباد» (ص٨)، و«التاريخ الكبير» (١/ ١٦٤)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦) وفي «الأسماء» (١/ ٦١٧، ٦١٨)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٣٨٨ ص ٢٠٩)، من طريق عبد الرحمن بن محمد ابن حبيب عن أبيه عن جده، وعبد الرحمن وأبوه مجهولان.

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، والحاكم (٣/ ٢٧٣، ٢٧٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٨٥) من حديث أنس ﷺ قال: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ مُقْبِلِينَ - قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ - مِنْ عُرُسٍ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مُمْثِلًا فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ**». قَالَهَا ثَلَاثَ مِرَارٍ. وقوله: «**مُمْثِلًا**» يعني: قائمًا منتصبًا.

قال: «**أَبُوهَا**»(١).

فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة، والمحبوب بها لكمالها يكون محبوبًا لذاته، لا لشيء آخر؛ إذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير، ومن كمالها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة، لتخللها المحب، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب. ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا، وكان إبراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحًا، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره، فامتحنه به بذبحه، ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه، وعزم على فعله، وظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد؛ إيثارًا لمحبة خليله على محبته، نسخ الله ذلك عنه، وفداه بالذبح العظيم؛ لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسدة، فنسخ في حقه، وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة.

وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبراهيم - صلوات الله عليه - قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما تقدم، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى - صلوات الله عليه - قد شاركه فيها نبينا ﷺ، كما ثبت ذلك في حديث الإسراء.

وهنا سؤال مشهور وهو: أن النبي ﷺ أفضل من إبراهيم ﷺ، فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم، مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه؟ وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين؟

وقد أجاب عنه العلماء بأجوبة عديدة، يضيق هذا المكان عن بسطها.

وأحسنها: أن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي ﷺ ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء حصل لآل محمد ما يليق بهم، فإنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد صلى الله عليهما وسلم، فيحصل له من المزية ما لم

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٤٣٥٨)، ومسلم (حديث ٢٣٨٤)، وغيرهما من حديث عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا.

يحصل لغيره.

وأحسن من هذا: أن النبي ﷺ من آل إبراهيم، بل هو أفضل آل إبراهيم، فيكون قولنا: «كما صليت على آل إبراهيم» متناولًا الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم؛ بل هو متناول إبراهيم أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ٣٣]، فإبراهيم وعمران دخلا في آل إبراهيم وآل عمران، وكما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: الآية ٣٤]؛ فإن لوطًا داخل في آل لوطٍ، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: الآية ٤٩]، وقوله: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: الآية ٤٦]؛ فإن فرعون داخل في آل فرعون، ولهذا - والله أعلم - أكثر روايات حديث الصلاة على النبي ﷺ إنما فيها: كما صليت على آل إبراهيم، وفي كثير منها: كما صليت على إبراهيم ولم يرد: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إلا في قليل من الروايات، وما ذلك - والله أعلم - إلا لأن في قوله: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**»، يدخل آله تبعًا، وفي قوله: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**»، هو داخل في آل إبراهيم، وكذلك لما جاء أبو أوفى رضي الله عنه بصدقته إلى النبي ﷺ، دعا له النبي ﷺ وقال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**»(١) فعلى رواية من روى: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**» لا يدخل فيهم لإفراده بالذكر.

ولما كان بيت إبراهيم عليه السلام أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله بخصائص:

منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين، كما تقدم ذكره.

ومنها: أنه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للناس، قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٤١٦٦)، ومسلم (حديث ١٠٧٨)، وغيرهما من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما مرفوعًا.

إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤].

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قيامًا للناس ومثابة للناس وأمنا، وجعله قبلة لهم وحجًّا، فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل هذا البيت، إلى غير ذلك من الخصائص.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، وَالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ»

الشرح

هذه الأمور من أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآيات [البقرة: الآية ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٧].

فجعل الله ﷻ الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة، بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: الآية ١٣٦].

وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل.

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع: فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكارًا الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

ولا ملائكته ولا باليوم الآخر، فإن مذهبهم أن الله سبحانه وجود مجرد لا ماهية له ولا حقيقة، فلا يعلم الجزئيات بأعيانها، وكل موجود في الخارج فهو جزئي، ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته، وإنما العالم عندهم لازم له أزلًا وأبدًا، وإن سموه مفعولًا له فمصانعة ومصالحة للمسلمين في اللفظ، وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه، وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته فهذا إيمانهم بالله.

وأما كتبه عندهم، فإنهم لا يصفونه بالكلام، فلا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر، متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص:

قوة الإدراك وسرعته، لينال العلم أعظم مما يناله غيره!

وقوة النفس، ليؤثر بها في هيولى العالم بقلب صورة إلى صورة.

وقوة التخييل، ليخيل بها القوى العقلية في أشكال محسوسة، وهي الملائكة عندهم وليس في الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان.

وأما اليوم الآخر، فهم أشد الناس تكذيبًا به وإنكارًا له في الأعيان. وعندهم أن هذا العالم لا يخرب، ولا تنشق السموات ولا تنفطر، ولا تنكدر النجوم، ولا تكور الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها في الخارج، كما يفهم منها أتباع الرسل. فهذا إيمان هذه الطائفة الذليلة الحقيرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهذه هي أصول الدين الخمسة.

وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التي هدموا بها كثيرًا من الدين: فإنهم بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض، الذي هو الموصوف والصفة عندهم، واحتجوا بالصفات التي هي الأعراض، على حدوث الموصوف الذي هو الجسم، وتكلموا في التوحيد على هذا الأصل، فنفوا عن الله كل صفة، تشبيها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام، ثم تكلموا بعد ذلك في أفعاله التي هي القدر، وسموا ذلك «العدل»، ثم تكلموا في النبوة والشرائع والأمر والنهي

والوعد والوعيد، وهي مسائل الأسماء والأحكام، التي هي المنزلة بين المنزلتين، ومسألة إنفاذ الوعيد، ثم تكلموا في إلزام الغير بذلك، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتال. فهذه أصولهم الخمسة، التي وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التي بعث بها الرسول.

والرافضة المتأخرون، جعلوا الأصول أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة.

وأصول أهل السنة والجماعة: تابعة لما جاء به الرسول.

وأصل الدين: الإيمان بما جاء به الرسول، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة لما تضمنتا هذا الأصل لهما شأن عظيم ليس لغيرهما، ففي «الصحيحين» عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، عن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»(١).

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أوتيته**»(٢).

وقال أبو طالب المكي: أركان الإيمان سبعة، يعني هذه الخمسة، والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار. وهذا حق، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية. وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة.

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة(٣)، كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: الآية ٥]، ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: الآية ٤]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم.

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري مع الفتح (٩/ ٥٥)، ومسلم (مع النووي ٦/ ٩١).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (مع النووي ٦/ ٩١).

(٣) بأمر ربها.

المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل آلاتها ملائكة.

فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفًا[1]، والناشرات نشرًا، والفارقات فرقًا، والملقيات ذكرًا.

ومنهم: النازعات غرقًا، والناشطات نشطًا، والسابحات سبحًا، فالسابقات سبقًا.

ومنهم: الصافات صفًّا، فالزاجرات زجرًا، فالتاليات ذكرًا؛ ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: «فرقة» و«طائفة» و«جماعة».

ومنهم: ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله تعالى.

ولفظ: «الملك» يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، لا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

(١) قيل: في تفسيرها إنها الرياح.

ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد «**أطت السموات بهم، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله**»، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف.

وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له، وبراءتهم من الذنوب.

وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص. قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥].

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: الآية ٧]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: الآية ٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٦]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: الآية ٣٨]، ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: الآية ١١]، ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: الآية ١٦]، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: الآية ٢١]، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: الآية ٨].

وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم، فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان.

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلًا سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم.

فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نصٌّ. وقد قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: الآية ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: الآية ٧٨].

وعلينا الإيمان بأنهم بلَّغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانًا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل له خلافه.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: الآية ٣٥]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: الآية ٨٢]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: الآية ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: الآية ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل، فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم - قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: الآية ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣].

وأما الإيمان بمحمد ﷺ، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالًا وتفصيلًا، وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كُتُبًا أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى.

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب. فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٣٦]، ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنزَلَ

ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: الآية ٤]. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: الآية ٨٢].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها، وأنها نزلت من عنده. وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: الآية ٢١٣]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: الآية ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: الآية ٥٧]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فصلت: الآية ٤٤]، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن: الآية ٨].

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ»

الشرح

قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا»**(١).

ويشير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله.

والمراد بقوله: «أهل قبلتنا»، من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة، وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصي، ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٩١) من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ»**. وَفِي لفظ آخر عِنْدَ البخاري (٣٩٣): **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَصَلَّى صَلَاتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَهُوَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ»**.

وسيأتي الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ: «ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله».

وعند قوله: «والإسلام والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء».

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ، وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ»

الشرح

يشير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الكف عن كلام المتكلمين الباطل، وذم علمهم، فإنهم يتكلمون في الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: الآية ٢٣]، وعن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه قال: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء، بل يصفه بما وصف به نفسه.

وقوله: «ولا نماري في دين الله» معناه: لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم؛ التماسًا لامترائهم وميلهم؛ لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل، وتلبيس الحق، وإفساد دين الإسلام.

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ»

الشرح

فقوله: «ولا نجادل في القرآن»، يحتمل أنه أراد: أنَّا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: إنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين... إلى آخر كلامه.

ويحتمل أنه أراد: أنَّا لا نجادل في القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح. وكل من المعنيين حق. ويشهد بصحة المعنى الثاني، ما روي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رجلا قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها،

فأخذت بيده، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهة، وقال: «**كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، وَلَا تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا**»(١) رواه مسلم.

نهى ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق؛ لأن كِلا القارئين كان محسنًا فيما قرأه، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا، ولهذا قال حذيفة ﷺ لعثمان ﷺ: أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم، فجمع الناس على حرف واحد اجتماعًا سائغًا، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلال، ولم يكن في ذلك ترك لواجب، ولا فعل لمحظور؛ إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة، رخصة من الله تعالى، وقد جعل الاختيار إليهم في أي حرف اختاروه.

كما أن ترتيب السور لم يكن واجبًا عليهم منصوصًا. ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف العثماني، وكذلك مصحف غيره.

وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية، بخلاف السور، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد، جمعهم الصحابة عليه. هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء، قاله ابن جرير وغيره.

ومنهم من يقول: إن الترخص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام، لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولًا، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرًا عليهم، وهو أوفق لهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة.

وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف مشتمل على الأحرف السبعة؛ لأنه لا يجوز أن يهمل شيء من الأحرف السبعة، وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني. وترك ما سواه. وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب، وهو: أن

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٢٤١٠)، وفي عدة مواطن من «صحيحه» ولفظه من حديث عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً، سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خِلَافَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَأَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ**»، قَالَ شُعْبَةُ: أَظُنُّهُ قَالَ: «**لَا تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا**».

ذلك كان جائزًا لا واجبًا، أو أنه صار منسوخًا.

وأما من قال عن ابن مسعود: إنه كان يجوِّز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه، وإنما قال: «قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم: هلم، وأقبل، وتعال، فاقرؤوا كما عُلِّمتم»، أو كما قال.

والله تعالى قد أمرنا أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، فكيف بمناظرة أهل القبلة؟ فإن أهل القبلة من حيث الجملة خير من أهل الكتاب، فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتي هي أحسن، وليس إذا أخطأ يقال: إنه كافر، قبل أن تقام عليه الحجة التي حكم الرسول بكفر من تركها، والله تعالى قد عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان؛ ولهذا ذم السلف أهل الأهواء، وذكروا أن آخر أمرهم السيف. وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان - إن شاء الله تعالى - عند قول الشيخ: «ونرى الجماعة حقًّا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا».

وقوله: «ونشهد أنه كلام رب العالمين». تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله: «وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولًا».

وقوله: «نزل به الروح الأمين»، هو جبريل عليه السلام، سمي روحًا؛ لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين، وهو أمين حق أمين، صلوات الله عليه. قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١]. وهذا وصف جبريل. بخلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]. فإن الرسول هنا هو محمد ﷺ.

وقوله: «فعلمه سيد المرسلين» تصريح بتعليم جبريل إياه؛ إبطالًا لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهامًا.

وقوله: «ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين» تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، بل قوله: «ولا نخالف جماعة المسلمين»،

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مجرى على إطلاقه: أنا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه، فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة.

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ، مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ»

الشرح

أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين»، يشير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب.

واعلم - رحمك الله وإيانا - أن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه، وكثر فيه الافتراق، وتشتتت فيه الأهواء والآراء، وتعارضت فيه دلائلهم، فالناس فيه في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الأمر، والمخالفة لذلك في اعتقادهم، على طرفين ووسط، من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية.

فطائفة تقول: لا نكفر من أهل القبلة أحدًا، فتنفي التكفير نفيًا عامًّا، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين، الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم، وهم يتظاهرون بالشهادتين.

وأيضًا: فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة، والمحرمات الظاهرة المتواترة، ونحو ذلك فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل كافرًا مرتدًّا. والنفاق والردة مظنتهما البدع والفجور، كما ذكره الخلال في كتاب «السنة» بسنده إلى محمد بن سيرين، أنه قال: إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء. وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ٦٨]، ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحدًا بذنب، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج.

وفرق بين النفي العام ونفي العموم، والواجب إنما هو نفي العموم؛ مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب.

ولهذا - والله أعلم - قيده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «ما لم يستحله» وفي قوله: «ما لم يستحله» إشارة إلى أن مراده من هذا النفي العام لكل ذنب، الذنوب العملية لا العلمية. وفيه إشكال، فإن الشارع لم يكتف من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم، ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل، وليس العمل مقصورا على عمل الجوارح، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبع. إلا أن يُضَمَّنَ قوله: «يستحله» بمعنى: يعتقده، أو نحو ذلك.

وقوله: «ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله...» إلى آخر كلامه، رد على المرجئة، فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهؤلاء في طرف والخوارج في طرف، فإنهم يقولون: يكفر المسلم بكل ذنب، أو بكل ذنب كبير، وكذلك المعتزلة الذين يقولون: يحبط إيمانه كله بالكبيرة، فلا يبقى معه شيء من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، وهذه المنزلة بين المنزلتين وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار.

وطوائف من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك في الأعمال، لكن في الاعتقادات البدعية، وإن كان صاحبها متأولًا، فيقولون: يكفر كل من قال هذا القول، لا يفرقون بين المجتهد المخطئ وغيره، أو يقولون بكفر كل مبتدع، وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الإثبات العام أمور عظيمة، فإن النصوص المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها أولئك، والكلام في الوعيد مبسوط في موضعه. وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ: «وأهل الكبائر في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون».

والمقصود هنا: أن البدع هي من هذا الجنس، فإن الرجل يكون مؤمنًا باطنًا وظاهرًا، ولكن تأول تأويلًا أخطأ فيه، إما مجتهدًا وإما مفرطًا مذنبًا، فلا يقال: إن إيمانه حبط لمجرد ذلك، إلا أن يدل على ذلك دليل شرعي، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة، ولا نقول: لا يكفر، بل العدل هو الوسط، وهو: أن

الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول ﷺ، أو إثبات ما نفاه، أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي عما أمر به يقال: فيها الحق، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص، ويبين أنها كفر، ويقال: من قالها فهو كافر، ونحو ذلك، كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفوس والأموال، وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن، وأن الله لا يرى في الآخرة، ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها، وعن أبي يوسف رحمه الله، أنه قال: ناظرت أبا حنيفة رحمه الله مدة، حتى اتفق رأيي ورأيه أن من قال بخلق القرآن فهو كافر.

وأما الشخص المعين، إذا قيل: هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت. ولهذا ذكر أبو داود في «سننه» في كتاب الأدب «باب النهي عن البغي». وذكر فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**» قال أبو هريرة رضي الله عنه: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ[1] وهو حديث حسن.

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدًا مخطئًا مغفورًا له، أو يمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر للذي قال: «**إِذَا مِتُّ فَاسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي**» فيها ثُمَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ لِخَشْيَتِهِ[2]، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته، أو

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (حديث ٤٩٠١).

(٢) **لهذا طرق صحيحة متعددة منها**: ما أخرجه البخاري (حديث ٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦، ص ٢١١٠) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ**=

شك في ذلك. لكن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا، لمنع بدعته، وأن نستتيبه، فإن تاب وإلا قتلناه.

ثم إذا كان القول في نفسه كفرًا قيل: إنه كفر، والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع، ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقًا زنديقًا. فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلا من يكون منافقا زنديقا. وكتاب الله يبين ذلك، فإن الله صنف الخلق فيه ثلاثة أصناف: صنف كفار من المشركين ومن أهل الكتاب، وهم الذين لا يقرون بالشهادتين، وصنف مؤمنون باطنًا وظاهرًا، وصنف أقروا به ظاهرًا لا باطنًا. وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة. وكل من ثبت أنه كافر في نفس الأمر وكان مقرًّا بالشهادتين. فإنه لا يكون إلا زنديقًا، والزنديق هو المنافق.

وهنا يظهر غلط الطرفين، فإنه من كفَّر كل من قال القول المبتدع في الباطن، يلزمه أن يكفر أقوامًا ليسوا في الباطن منافقين، بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين كما ثبت في «صحيح البخاري»، عن أسلم مولى عمر ﵁، عن عمر: أن رجلًا كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه: عبد الله، وكان يلقب: حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ قد جلده من الشراب، فأتي به يومًا، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به. فقال رسول الله ﷺ: **«لَا تَلْعَنه، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»**[1]. وهذا أمر متيقن به في طوائف كثيرة وأئمة في العلم والدين، وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج. ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة، بل بفرع منها. ولهذا انتحل أهل هذه الأهواء لطوائف من السلف المشاهير. فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطِّئون ولا يكفِّرون. ولكن بقي هنا إشكال يرد على كلام الشيخ ﵀، وهو: أن الشارع قد سمى بعض

= أَحَدًا، قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ - أَوْ قَالَ: مَخَافَتُكَ - فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ».

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٧٨٠).

الذنوب كفرا، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]. وقال ﷺ: «سِبابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[(١)]. متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[(٢)]، «وَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»[(٣)]. متفق عليهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[(٤)]. متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ»[(٥)].

وقال ﷺ: «بَيْنَ المسلم، وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»[(٦)]. رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «ثِنْتَانِ فِي أُمَّتِي هُمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[(٧)]. ونظائر ذلك كثيرة.

والجواب: أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج؛ إذ لو كفر كفرًا ينقل عن الملة لكان

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٤) وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٤٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٧٨٥) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا، وله عدة طرق عن النبي ﷺ.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦١٠٤)، ومسلم (حديث ٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٤) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٥٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٨١٠)، ومسلم (حديث ٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٦) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٨٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ».

(٧) أخرجه مسلم (حديث ٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

مرتدًّا يقتل على كل حال، ولا يُقْبَلُ عفو وليّ القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود في النار مع الكافرين كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضا؛ إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: الآية ١٧٨]، إلى أن قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٨].

فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخًا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: الآية ٩] إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٠].

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ مِنْ عِرْضٍ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»[1]. أخرجاه في «الصحيحين»، فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه.

وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا دينار، قَالَ: «**الْمُفْلِس مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ حَسَنَاتٌ أَمْثَالُ الْجِبَالِ، قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٩) وفي غير موضع من «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ولفظه: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ عند أَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**».

أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١). رواه مسلم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤]. فدل ذلك على أنه في حال إساءته يفعل حسنات تمحو سيئاته. وهذا مبسوط في موضعه.

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة، فإنهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، لكن قالت الخوارج: نسميه كافرا، وقالت المعتزلة: نسميه فاسقا، فالخلاف بينهم لفظي فقط.

وأهل السنة أيضا متفقون على أنه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب، كما وردت به النصوص لا كما يقوله المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ولا ينفع مع الكفر طاعة وإذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة، ونصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة تبين لك فساد القولين. ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى.

ثم بعد هذا الاتفاق بين أهل السنة اختلفوا خلافا لفظيًّا، لا يترتب عليه فساد، وهو أنه: هل يكون الكفر على مراتب، كفرًا دون كفر؟ كما اختلفوا: هل يكون الإيمان على مراتب، إيمانا دون إيمان؟ وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مسمى «الإيمان»: هل هو قول وعمل يزيد وينقص، أم لا؟ بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافرًا نسميه كافرًا؛ إذ من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرًا، ويسمي رسوله من تقدم ذكره كافرًا ولا نطلق عليهما اسم «الكفر». ولكن من قال: إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص قال: هو كفر عملي لا اعتقادي، والكفر عنده على مراتب، كفر دون كفر، كالإيمان عنده.

ومن قال: إن الإيمان هو التصديق، ولا يدخل العمل في مسمى الإيمان، والكفر

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٥٨١)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**».

هو الجحود، ولا يزيدان ولا ينقصان قال: هو كفر مجازي غير حقيقي؛ إذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة، وكذلك يقول في تسمية بعض الأعمال بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس: إنها سميت إيمانًا مجازًا؛ لتوقف صحتها على الإيمان، أو لدلالتها على الإيمان؛ إذ هي دالة على كون مؤديها مؤمنًا. ولهذا يحكم بإسلام الكافر إذا صلى كصلاتنا؛ فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب، إذا كانوا مقرين باطنًا وظاهرًا بما جاء به الرسول وما تواتر عنهم أنهم من أهل الوعيد.

ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار، كالخوارج والمعتزلة. ولكن أردأ ما في ذلك التعصب من بعضهم، وإلزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه، والتشنيع عليه وإذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف؟ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ الآية [المائدة: ٨].

وهنا أمر يجب أن يتفطن له، وهو: أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا ينقل عن الملة، وقد يكون معصية - كبيرة أو صغيرة - ويكون كفرًا، إما مجازيًّا، وإما كفرًا أصغر على القولين المذكورين. وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله؛ فهذا كفر أكبر. وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا عاصٍ ويسمى كافرًا كفرًا مجازيًّا، أو كفرًا أصغر. وإن جهل حكم الله فيها، مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأ، فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور.

وأراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «**ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله**» مخالفة المرجئة. وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين، فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك. فإن قدامة بن مظعون شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة، وتأولوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الآية [المائدة: الآية ٩٣]. فلما ذكروا ذلك لعمر بن

الخطاب رضي الله عنه، اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا. وقال عمر لقدامة: أخطأت استُك الحفرة، أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر.

وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر، وكان تحريمها بعد وقعة أحد، قال بعض الصحابة: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية(١)، بين فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين، كما كان من أمر استقبال بيت المقدس، ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك ندموا وعلموا. أنهم أخطؤوا وأيسوا من التوبة. فكتب عمر إلى قدامة يقول له: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ١ - ٣]. ما أدري أي ذنبك أعظم؟ استحلالك المحرم أولًا؟ أم يأسك من رحمة الله ثانيًا؟ وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام.

متن الطحاوية

قوله: «وَنَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَشْهَدُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نُقَنِّطُهُمْ»

الشرح

وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء: الآية ٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥]. وقال تعالى:

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٦٤)، من حديث أنس رضي الله عنه: كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة: الآية ٩٣].

﴿وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤١]. ﴿وَإِيَّـٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]. ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]. ومدح أهل الخوف، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١]. وفي «المسند» والترمذي عن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «**لَا، يَا ابنة الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ، وَيُصَلِّي، وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ**»(١). قال الحسن ﵁: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا. انتهى.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ [البقرة: الآية ٢١٨]. فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إتيانهم بهذه الطاعات؟ فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى، وشرعه وقدره وثوابه وكرامته. ولو أن رجلا له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه، فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها، ورجا أنه يأتي من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض لعده الناس من أسفه السفهاء وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام وأمثال ذلك، فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم، من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه أمورًا:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

---

(١) **في إسناده ضعف قريب:** وقد أخرجه الترمذي (حديث ٣١٧٥)، وأحمد في «المسند» (٦/ ١٥٩، ٢٠٥)، وابن ماجه (٤١٩٨) وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني، عن عائشة ﵂، وعبد الرحمن بن سعيد لم يدرك عائشة ﵂.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك؛ فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راجٍ خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير، مخافة الفوات.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨].

فالمشرك لا ترجى له المغفرة؛ لأن الله نفى عنه المغفرة، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه.

وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر، وستأتي الإشارة إلى ذلك عند قول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون».

ولكن ثم أمر ينبغي التفطن له، وهو: أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر. وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره.

أسباب سقوط العقوبات:

وأيضًا: فإنه قد يعفى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة:

السبب الأول: التوبة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم: الآية ٦٠]. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [البقرة: الآية ١٦٠].

والتوبة النصوح، وهي الخالصة لا يختص بها ذنب دون ذنب، لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة؟ حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لا تقبل؟ والصحيح أنها تقبل. وهل يَجُبُّ الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يتب منها؟ أم لا بد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك؟ حتى لو أسلم وهو مُصِرٌّ على الزنا وشرب الخمر مثلا، هل يؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنا

وشرب الخمر؟ أم لا بد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه؟ أو يتوب توبة عامة من كل ذنب؟ وهذا هو الأصح أنه لا بد من التوبة مع الإسلام، وكون التوبة سببًا لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة، وليس شيء يكون سببًا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣] وهذا لمن تاب، ولهذا قال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣] وقال بعدها: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الآية [الزُّمَر: الآية ٥٤].

السبب الثاني: الاستغفار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٣]. لكن الاستغفار تارة يذكر وحده، وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذكر وحده دخل معه التوبة، كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار. فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

ونظير هذا: الفقير والمسكين، إذا ذكر أحد اللفظين شمل الآخر، وإذا ذكرا معًا كان لكل منهما معنى. قال تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: الآية ٨٩]. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ [المجادلة: الآية ٤]. ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٧١]. لا خلاف أن كل واحد من الاسمين في هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم، ولما قرن أحدهما بالآخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية [التوبة: الآية ٦٠] كان المراد بأحدهما المقل، والآخر المعدم، على خلاف فيه.

وكذلك: الإثم والعدوان، والبر والتقوى، والفسوق والعصيان.

ويقرب من هذا المعنى: الكفر والنفاق، فإن الكفر أعم، فإذا ذكر الكفر شمل النفاق، وإن ذكرا معا كان لكل منهما معنى. وكذلك الإيمان والإسلام، على ما يأتي الكلام فيه، إن شاء الله تعالى.

السبب الثالث: الحسنات. فإن الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، فالويل لمن

غلبت آحاده أعشاره. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: الآية ١١٤].

السبب الرابع: المصائب الدنيوية، قال ﷺ: **«مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا غَمٍّ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كُفِّرَ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»**(١).

فالمصائب نفسها مكفرة، وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالتسخط يأثم، والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد، وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه، ويكفر ذنبه بها، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله، والصبر والسخط من فعله، وإن كان الثواب والأجر قد يحصل بغير عمل من العبد، بل هدية من الغير، أو فضل من الله من غير سبب، قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٤٠]. فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم.

وكثيرًا ما يفهم من الأجر غفران الذنوب. وليس ذلك مدلوله، وإنما يكون من لازمه.

السبب الخامس: عذاب القبر. وسيأتي الكلام عليه، إن شاء الله تعالى.

السبب السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

السبب السابع: ما يهدى إليه بعد الموت، من ثواب صدقة أو قراءة(٢) أو حج، ونحو ذلك، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

السبب التاسع: ما ثبت في «الصحيحين»: «أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»(٣).

---

(١) **صحيح:** أخرجه بلفظ قريب: البخاري (حديث ٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (حديث ٢٥٧٣) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) في مسألة وصول ثواب القراءة نظر.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٠) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»**.

السبب العاشر: شفاعة الشافعين كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها.

السبب الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة، كما قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨]. فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جُرْمه، فلا بد من دخوله إلى الكير، ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، بل من قال: لا إله إلا الله، كما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه(١).

وإذا كان الأمر كذلك، امتنع القطع لأحد معين من الأمة، غير من شهد له الرسول ﷺ بالجنة، ولكن نرجو للمحسنين، ونخاف عليهم.

متن الطحاوية

قوله: «وَالأَمْنُ وَالْإِيَاسُ يَنْقُلَانِ عَنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ، وَسَبِيلُ الْحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ»

الشرح

يجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حَالَ بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خِيفَ منه اليأس والقنوط.

والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، أو رجل أذنب ذنبًا ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢١٨].

أما إذا كان الرجل متماديًا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ الآية [الزُّمَر: الآية ٩]. وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الآية [السجدة: ١٦]. فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا. وكل أحد إذا خفته هربت منه، إلا الله تعالى، فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

وقال صاحب «منازل السائرين» رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الرجاء أضعف منازل المريد»، وفي كلامه نظر، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد. وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ: «**يقول الله** ﷻ: **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[(٢)]. وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ**»[(٣)]، ولهذا قيل: إن العبد ينبغي أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه، بخلاف زمن الصحة، فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه.

وقال بعضهم: من عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري: ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، ولقد أحسن محمود الوراق في قوله:

لَوْ قَدْ رَأَيْتَ الصَّغِيرَ مِنْ عَمَلِ الْـ ـخَيْرِ ثَوَابًا عَجِبْتَ مِنْ كِبَرِهْ
أَوْ قَدْ رَأَيتَ الْحَقِيرَ مِنْ عَمَلِ الشَّـ ـرِّ جَزَاءً أَشْفَقْتَ مِنْ حَذَرِهْ

❊ ❊ ❊

---

(١) لي بعض التحفظات على «منازل السائرين»، وكذا شرحه «مدارج السالكين» وفي الجملة فإني لا أنصح بهذا الكتاب لأمور يضيق المقام بذكرها.

(٢) **صحيح لشواهده:** أما بالنسبة للفظ المشار إليه فليس في الصحيح، ولكن في الصحيح (البخاري ٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يَقُولُ اللَّهُ تبارك وتَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي...**» وعند الإمام أحمد (٢/ ٣٩١)، وابن حبان (٢٣٩٤) من حديث أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ اللهَ ﷻ قَالَ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ**» أما اللفظ المشار إليه ففي «مسند أحمد» (٣/ ٤٩١، ٤/ ١٠٦)، وابن حبان (٢٣٩٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٩٠٩) من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا.

(٣) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٨٧٧)، ولفظه: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**»، ولفظ آخر: «**إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** ﷻ».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودِ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ»

الشرح

يشير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم: بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرة. وفيه تقرير لما قال أولًا: «ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله». وتقدم الكلام على هذا المعنى.

متن الطحاوية

قوله: وَالْإِيمَانُ: هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ[1]. وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ. وَالْإِيمَانُ وَاحِدٌ وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْخَشْيَةِ وَالتُّقَى، وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَمُلَازَمَةِ الْأَوْلَى

الشرح

اختلف الناس فيما يقع عليه اسم «الإيمان»، اختلافًا كثيرًا.

---

(١) هذا من المواطن التي خولف فيها الطحاوي، وأخطأ رَحِمَهُ اللهُ وعفا الله عنه فيما ذهب إليه من قصره الإيمان على الإقرار باللسان والتصديق بالجنان دون ذكر العمل، فالذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، قولٌ باللسان، واعتقاد بالقلب والجنان، وعمل بالجوارح والأركان، أما قصر المصنف الإيمان على الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، فقولٌ لفريق من المرجئة، والإرجاء تأخير العمل عن القول، وكذا قوله: «وَالْإِيمَانُ وَاحِدٌ وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ» كلام فيه نظر فالناس في الإيمان درجات ومراتب، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: الآية ١٢٤] وفي الحديث: «**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**». والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة جدًّا.

وكذا ليس إيمان الرسل كإيمان الصحابة، وليس إيمان الصحابة كإيمان من بعدهم، وكذا قوله: «والتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ فِي الخَشْيَة. . . » هذه بعض وجوه التفاضل ليست كلها وإلا فإمَاطَة الأذى عَنِ الطَّرِيقِ مِنْ شُعَبِ الإيمَان، وكذلك الحياء وغير ذلك.

وأسباب التفاضل كثيرة جدًّا يدخل فيها أعمال القلوب كالحب في الله، والبغض في الله، والموالاة، وتدخل فيها أعمال اللسان من ذكر ونحو ذلك، وتدخل فيها أعمال الجوارح أيضًا.

فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة - رحمهم الله - وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين إلى أنه: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكره الطحاوي أنه: الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان.

ومنهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي رَحِمَهُ اللَّهُ، ويروى عن أبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذهب الكرَّاميَّة إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، وثَمَّ أقوال أخر.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان: إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم - رحمهم الله - كما تقدم، أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه - رحمهم الله - أو باللسان وحده، كما تقدم ذكره عن الكرامية، أو بالقلب وحده، وهو إما المعرفة كما قاله الجهم، أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي رَحِمَهُ اللَّهُ. وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه، وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عاص لله ورسوله، مستحق الوعيد، لكن فيمن يقول: إن الأعمال غير داخلة في مسمى «الإيمان» من قال: لما كان «الإيمان» شيئًا واحدًا فإيماني كإيمان أبي بكر الصديق وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بل قال: كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبريل وميكائيل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وهذا غلو منه. فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولا شك أن البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى، ومن يرى الخط الثخين، دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها، ومن يرى عن قرب زائد على العادة، وآخر بضده.

ولهذا - والله أعلم - قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأهله في أصله سواء»، يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله[1]، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت نور

---

(١) هذا الكلام غير مفهوم، وغير جيد.

«لا إله إلا الله» في قلوب أهلها لا يحصيه إلا الله تعالى؛ فمن الناس من نور «لا إله إلا الله» في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدرِّيِّ، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف. ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علمًا وعملًا، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته، بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبًا إلا أحرقه. وهذه حال الصادق في توحيده، فسماء إيمانه قد حرست بالرجوم من كل سارق، ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْه اللهِ تَعَالَى»**(١)، وما جاء من هذا النوع من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوَّل بعضهم الدخول بالخلود، ونحو ذلك.

والشارع صلوات الله وسلامه عليه(٢) لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها(٣)، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سِجِلًّا، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السِّجِلَّات، فلا يعذب صاحبها(٤).

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٤٢٥)، وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٣٣)، من حديث عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ ﷺ.

(٢) إطلاق لفظ الشارع على رسول الله لا أعلم له دليلًا ولا مستندًا.

(٣) بل تتفاضل أيضًا بصورها وعددها في كثير من الأحيان.

(٤) **إسناده صحيح:** أخرجه الترمذي (حديث ٢٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا، وقد تقدم، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (حديث ٤٣٠٠)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢١٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦) وغيرهم.

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان، التي لم تشغله عند السِّياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت.

وتأمل ما قام بقلب البغيِّ من الإيمان، حين نزعت موقها وسقت الكلب من الرَّكية، فغفر لها.

وأما الزيادة بالعمل والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح، فهو أكمل من التصديق الذي لا يستلزمه، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: **«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايِنِ»**[(١)]، وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله، لكن المخبر وإن جزم بصدق الْمُخْبِرِ، فقد لا يتصور الْمُخْبَرَ به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠].

وكذلك الرَّجل أوَّل ما يسلم، إنَّما يجب عليه الإقرار المجمل، ثمَّ إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤدِّيها، فلم يتساوَ النَّاس فيما أمروا به من الإيمان.

ولا شك أنَّ من قام بقلبه التَّصديق الجازم، الذي لا يقوى على معارضته شهوة ولا شبهة لا تقع معه معصية، ولولا ما حصل له من الشَّهوة والشُّبهة أو إحداهما لما عصى، بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية، فيغيب عنه التَّصديق والوعيد فيعصي، ولهذا - والله أعلم - قال ﷺ: **«لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ...»**[(٢)] الحديث، فهو حين يزني يغيب عنه تصديقه بحرمة الزِّنا،

---

(١) **صحيح بلفظ قريب**: أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢١٥، ٢٧١) بلفظ: **«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»** من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، وأخرجه أيضًا ابن حبان «موارد الظمآن» (٢٠٨٨) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٥١) وغيرهم، وفي بعض الطرق زيادات بعد قوله: **«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»**، وهي: **«إِنَّ اللهَ** عز وجل أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ».

(٢) **صحيح**: وقد تقدم.

وإن بقي أصل التَّصديق في قلبه، ثمَّ يعاوده، فإنَّ المتَّقين كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١]. وفي الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا زَنَى الْعَبْدُ نُزِعَ مِنْهُ الْإِيمَانُ، فَإِنْ تَابَ أُعِيدَ إِلَيْهِ**»(١).

أثر العمل على قوة الإيمان وضعفه:

قال بعض أهل العلم: إنَّ الرَّسول قد وقفنا على معاني الإيمان، وعلمنا من مراده علمًا ضروريًّا أنَّ من قيل إنه صدَّق ولم يتكلَّم بلسانه بالإيمان - مع قدرته على ذلك - ولا صلى ولا صام ولا أحبَّ الله ورسوله ولا خاف الله، بل كان مبغضًا للرَّسول معاديًا له يقاتله، أنَّ هذا ليس بمؤمنٍ.

كما علمنا أنه رتَّب الفوز والفلاح على التَّكلُّم بالشَّهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما فقد قال ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَفْضَلُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»(٢).

وقال أيضًا ﷺ: «**الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(٣).

وقال أيضا ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»(٤).

وقال أيضًا ﷺ: «**الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ**»(٥).

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٩٠)، والحاكم (١/ ٢٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا برواته، وقال الذهبي: على شرطهما.
قلت (مصطفى): ولفظه: «**إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ**».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٩)، ومسلم (حديث ٣٥) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»، وفي لفظ لمسلم: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**».

(٣) **صحيح**: وانظر: الحديث المتقدم.

(٤) **صحيح بمجموع طرقه**: أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٥) **في إسناده بعض الضعف والاختلاف**: أخرجه أبو داود (حديث ٤١٦١)، وابن ماجه (حديث ٤١١٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩)، وغيرهم من طريق عبد الله بن أبي أمامة عن أبيه مرفوعًا وقد أدخل بعض الرواة رجلًا بين عبد الله بن أبي أمامة وأبيه، وعبد الله بن أبي أمامة هذا لم أر من وثقه =

فإذا كان الإيمان أصلًا، له شعبٌ متعدِّدة، وكلُّ شعبة منها تسمَّى: إيمانًا، فالصَّلاة من الإيمان، وكذلك الزَّكاة والصَّوم والحجُّ والأعمال الباطنة، كالحياء والتَّوكُّل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشُّعب إلى إماطة الأذى عن الطَّريق، فإنه من شعب الإيمان. وهذه الشُّعب، منها ما يزول الإيمان بزوالها، كشعبة الشَّهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها، كترك إماطة الأذى عن الطَّريق، وبينهما شعبٌ متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يقرب من شعبة الشَّهادة، ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى، وكما أنَّ شعب الإيمان إيمانٌ، فكذا شعب الكفر كفرٌ، فالحكم بما أنزل الله - مثلًا - من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله كفرٌ. وقد قال ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١). رواه مسلمٌ.

وفي لفظٍ: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردلٍ**».

وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»(٢). ومعناه - والله أعلم - أنَّ الحبَّ والبغض أصل حركة القلب، وبذل المال ومنعه هو كمال ذلك، فإنَّ المال آخر المتعلِّقات بالنَّفس، والبدن متوسِّطٌ بين القلب والمال، فمن كان أوَّل أمره وآخره كله لله، كان الله إلهه في كلِّ شيءٍ، فلم يكن فيه شيءٌ من الشِّرك، وهو إرادة غير الله وقصده ورجاؤه، فيكون مستكمل الإيمان، إلى غير ذلك من الأحاديث الدَّالَّة على قوَّة الإيمان وضعفه بحسب العمل.

وسيأتي في كلام الشَّيخ رحمه الله في شأن الصَّحابة: «وحبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ». فسمَّى حبَّ الصَّحابة إيمانًا، وبغضهم كفرًا.

بعض الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه:

والأدلَّة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السَّلفيَّة كثيرة

= من الأولين سوى ابن حبان.

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) **صحيح بمجموع طرقه وشواهده**: أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٨١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا، وله شواهد انظر: «مسند أحمد» (٣/ ٤٣٨ - ٤٤٠).

جدًّا: منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: الآية ٢]. ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: الآية ٧٦]. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: الآية ٣١]. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ٤]. ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣].

وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها: إنَّ الزِّيادة باعتبار زيادة المؤمن به؟ فهل في قول النَّاس: ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ زيادة مشروع؟ وهل في إنزال السَّكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع؟ وإنَّما أنزل الله السَّكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقينًا، ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقد وصف النبي ﷺ النِّساء بنقصان العقل والدِّين[(١)]. وقال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[(٢)]. والمراد نفي الكمال، ونظائره كثيرة، وحديث شُعَبِ الإيمان، وحديث الشَّفاعة، وأنه يخرج من النَّار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرَّة من إيمانٍ. فكيف يقال بعد هذا: إنَّ إيمان أهل السَّموات والأرض سواءٌ وإنَّما التَّفاضل بينهم بمعانٍ أخر غير الإيمان؟!

وكلام الصَّحابة ﷺ في هذا المعنى كثيرٌ أيضًا:

كان معاذ بن جبلٍ ﷺ يقول لرجلٍ: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[(٣)]. ومثله عن

---

(١) **صحيح**: انظر البخاري (حديث ٣٠٤)، ومسلمًا (حديث ٧٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١٥)، ومسلم (حديث ٤٤) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا.

(٣) أخرجه البخاري معلقًا (مع الفتح ١/ ٤٨ ط. دار المعرفة)، وقد صحح الحافظ ابن حجر إسناده إلى الأسود بن هلال، قال: قال لي معاذ بن جبل: اجلس بنا نؤمن ساعة، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٢٦ أثر - ١٠٤١٤) ورجاله ثقات، ولا تشوبه إلا عنعنة الأعمش.

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

وصحَّ عن عمَّار بن ياسرٍ رضي الله عنه أنه قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه فقد استكمل الإيمان: إنصافٌ من نفسه، والإنفاق من إقتارٍ، وبذل السَّلام للعالم»[1]. ذكره البخاري رحمه الله في «صحيحه».

وفي هذا القدر كفاية، وبالله التَّوفيق.

وأمَّا كون عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة، فلا يكون العمل داخلًا في مسمى الإيمان، فلا شك أنَّ الإيمان تارة يذكر مطلقًا عن العمل وعن الإسلام، وتارة يقرن بالعمل الصَّالح، وتارة يقرن بالإسلام. فالمطلق مستلزمٌ للأعمال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٢]. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية [الحجرات: الآية ١٥]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: الآية ٦٢] ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: الآية ٨١].

وقال ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[2] الحديث. «**لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**»[3]. «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»، «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا**»[4].

وجوه العطف في الكلام:

وأمَّا إذا عطف عليه العمل الصَّالح، فاعلم أنَّ عطف الشَّيء على الشَّيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما، والمغايرة على مراتب:

أعلاها: أن يكونا متباينين، ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءه، ولا بينهما تلازمٌ كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١]. ﴿وَأَنزَلَ

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به مع الفتح ط. دار المعرفة (١/ ٨٢)، وانظر: كلام الحافظ ابن حجر عليه هناك.

(٢) **صحيح:** وقد تقدم.

(٣) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٥٤) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**».

(٤) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ١٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: الآية ٣]. وهذا هو الغالب.

ويليه: أن يكون بينهما تلازمٌ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة: الآية ٤٢]. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: الآية ٩٢].

الثَّالث: عطف بعض الشَّيء عليه كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٨]. ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: الآية ٩٨]. ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٧].

وفي مثل هذا وجهان:

أحدهما: أن يكون داخلًا في الأوَّل، فيكون مذكورًا مرَّتين.

والثاني: أنَّ عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلًا فيه هنا، وإن كان داخلًا فيه منفردًا، كما قيل مثل ذلك في لفظ: «الفقراء والمساكين» ونحوه، مما تتنوَّع دلالته بالإفراد والاقتران.

الرَّابع: عطف الشَّيء على الشَّيء لاختلاف الصِّفتين، كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: الآية ٣]. وقد جاء في الشِّعر العطف لاختلاف اللَّفظ فقط، كقوله:

.... **فألفى قولها كذبًا ومَيْنَا**

ومِنَ النَّاس مَنْ زعم أنَّ في القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: الآية ٤٨]. والكلام على ذلك معروفٌ في موضعه.

طرفٌ من الكلام على الإيمان والإسلام:

فإذا كان العطف في الكلام يكون على هذه الوجوه، نظرنا في كلام الشَّارع كيف ورد فيه الإيمان؟ فوجدناه إذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البرِّ، والتَّقوى، والدِّين، ودين الإسلام، وفي الصَّحيح قوله لوفد عبد القيس: «**آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ**»، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ**»(١).

ومعلومٌ أنه لم يرد أنَّ هذه الأعمال تكون إيمانًا بالله بدون إيمان القلب؛ لما قد أخبر

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٥٣)، وفي عدة مواضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ١٧)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

في مواضع أنه لا بدَّ من إيمان القلب، فعلم أنَّ هذه مع إيمان القلب هو الإيمان.

وأي دليلٍ على أنَّ الأعمال داخلة في مسمى «الإيمان» فوق هذا الدَّليل؟ فإنه فسَّر الإيمانَ بالأعمال، ولم يذكر التَّصديق؛ للعلم بأنَّ هذه الأعمال لا تفيد مع الجحود، وفي هذا الحديث دليلٌ على المغايرة بين الإسلام والإيمان، ويؤيِّده حديث جبريل عليه السلام، وقد قال فيه النبي ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1]. فجعل الدِّين هو الإسلام والإيمان والإحسان، فبيَّن أنَّ ديننا يجمع الثَّلاثة، لكن هو درجاتٌ ثلاثة: مسلمٌ، ثمَّ مؤمنٌ، ثمَّ محسنٌ. والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعًا، كما أنه أريد بالإحسان ما ذكر مع الإيمان والإسلام. لا أنَّ الإحسان يكون مجرَّدًا عن الإيمان، هذا محالٌ. وهذا كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: الآية ٣٢]. والمقتصد والسَّابق كلاهما يدخل الجنَّة بلا عقوبة، بخلاف الظَّالم لنفسه فإنه معرَّضٌ للوعيد، وهكذا من أتى بالإسلام الظَّاهر مع التَّصديق بالقلب، لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرَّضٌ للوعيد.

فأمَّا الإحسان فهو أعمُّ من جهة نفسه وأخصُّ من جهة أهله، والإيمان أعمُّ من جهة نفسه وأخصُّ من جهة أهله من الإسلام. فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخصُّ من المؤمنين، والمؤمنون أخصُّ من المسلمين. وهذا كالرِّسالة والنُّبوَّة، فالنُّبوَّة داخلة في الرِّسالة، والرِّسالة أعمُّ من جهة نفسها وأخصُّ من جهة أهلها، فكلُّ رسولٍ نبي، ولا ينعكس.

وقد صار النَّاس في مسمى «الإسلام» على ثلاثة أقوال:

فطائفة: جعلت الإسلام هو الكلمة.

وطائفة: أجابوا بما أجاب به النبي ﷺ حين سئل عن الإسلام والإيمان حيث فسَّر الإسلام بالأعمال الظَّاهرة، والإيمانَ بالإيمانِ بالأصول الخمسة.

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

وطائفة: جعلوا الإسلام مرادفًا للإيمان، وجعلوا معنى قول الرَّسول ﷺ: «**إِنَّ الْإِسْلَامَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ...**»(١) الحديث - شعائر الإسلام. والأصل عدم التَّقدير، مع أنَّهم قالوا: إنَّ الإيمان هو التَّصديق بالقلب، ثمَّ قالوا: الإسلام والإيمان شيءٌ واحدٌ، فيكون الإسلام هو التَّصديق وهذا لم يقله أحدٌ من أهل اللُّغة وإنَّما هو الانقياد والطَّاعة، وقد قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ**»(٢). وفسَّر الإسلام بالأعمال الظَّاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة. فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ.

وأمَّا إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمَّن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنًا بلا نزاعٍ، وهذا هو الواجب، وهل يكون مسلمًا ولا يقال له: مؤمنٌ؟ وقد تقدَّم الكلام فيه.

وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان؟ فيه النِّزاع المذكور، وإنَّما وعد الله بالجنَّة في القرآن وبالنَّجاة من النَّار باسم «الإيمان»، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: الآية ٢١].

وأمَّا اسم «الإسلام» مجرَّدًا فما علِّق به في القرآن دخول الجنَّة، لكنَّه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحدٍ سواه، وبه بعث النَّبيِّين، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥].

فالحاصل: أنَّ حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، فمثل الإسلام من الإيمان، كمثل الشَّهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرِّسالة غير شهادة الوحدانيَّة، فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم، كشيءٍ واحدٍ. كذلك الإسلام والإيمان، لا إيمان لمن لا

(١) **صحيح**: وهو ضمن الحديث المتقدم.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري ضمن حديث طويل في «صحيحه» (حديث ١١٢٠)، وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٧٦٩) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا.

إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلامٍ به يتحقَّق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمانٍ به يصحُّ إسلامه.

ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام النَّاس كثيرة، أعني في الإفراد والاقتران.

منها: لفظ الكفر والنِّفاق، فالكفر إذا ذكر مفردًا في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥]. ونظائره كثيرة. وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره، والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه.

وكذلك لفظ البرِّ والتَّقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التَّوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين، وأمثال ذلك.

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان، قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحُجرات: الآية ١٤]، إلى آخر السورة. وقد اعترض على هذا بأنَّ معنى الآية ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾: انْقَدْنَا بظواهرنا، فهم منافقون في الحقيقة، وهذا أحد قولي المفسِّرين في هذه الآية الكريمة، وأجيب بالقول الآخر، ورجِّح، وهو أنَّهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان، لا أنَّهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل، والزَّاني، والسَّارق، ومن لا أمانة له. ويؤيِّد هذا سياق الآية، فإنَّ السورة من أوَّلها إلى هنا في النَّهي عن المعاصي، وأحكام بعض العصاة، ونحو ذلك، وليس فيها ذكر المنافقين. ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحُجرات: الآية ١٤] ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطَّاعة، ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ الآية [الحُجرات: الآية ١٥]، يعني والله أعلم أنَّ المؤمنين الكاملي الإيمان، هم هؤلاء، لا أنتم، بل أنتم مُنْتَفٍ عنكم الإيمان الكامل، يؤيِّد هذا: أنه أمرهم، أو أذن لهم، أن يقولوا: أسلمنا. والمنافق لا يقال له ذلك، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام، كما نفى عنهم الإيمان، ونهاهم أن يمنُّوا بإسلامهم، فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنُّوا به على رسوله، ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون، كما كذَّبهم في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: الآية ١]. والله أعلم بالصَّواب.

قول: أنا مؤمن إن شاء الله، مسألة الاستثناء في الإيمان، وهو أن يقول الرَّجلُ: أنا مؤمنٌ إن شاء الله. والنَّاس فيه على ثلاثة أقوالٍ: طرفان ووسطٌ، منهم من يوجبه، ومنهم من يحرِّمه، ومنهم من يجيزه باعتبارٍ ويمنعه باعتبارٍ، وهذا أصحُّ الأقوال؛ ألا وهو قول من يجوِّز الاستثناء وتركه، فهم أسعد بالدَّليل من الفريقين، وخير الأمور أوسطها، فإن أراد المستثني الشَّك في أصل إيمانه منع من الاستثناء، وهذا ممَّا لا خلاف فيه. وإن أراد أنه مؤمنٌ من المؤمنين الَّذين وصفهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: الآية ١٥].

فالاستثناء حينئذٍ جائزٌ. وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقًا للأمر بمشيئة الله، لا شكًّا في إيمانه. وهذا القول في القوَّة كما ترى.

متن الطحاوية

قوله: «وَجَمِيعُ مَا صَحَّ
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ»

الشرح

يشير الشَّيخ رحمه الله بذلك إلى الرَّدِّ على الجهميَّة والمعطِّلة والمعتزلة والرَّافضة، القائلين بأنَّ الأخبار قسمان: متواترٌ وآحادٌ، فالمتواتر وإن كان قطعي السَّند لكنَّه غير قطعي الدِّلالة، فإنَّ الأدلَّة اللَّفظيَّة لا تفيد اليقين وبهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصِّفات قالوا: والآحاد لا تفيد العلم، ولا يحتجُّ بها من جهة طريقها، ولا من جهة مَتْنِهَا، فسدُّوا على القلوب معرفة الرَّبِّ تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرَّسول، وأحالوا النَّاس على قضايا وهميَّة، ومقدِّماتٍ خياليَّة، سمَّوها قواطع عقليَّة، وبراهين يقينيَّة وهي في التَّحقيق: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

ومن العجب أنَّهم قدَّموها على نصوص الوحي، وعزلوا لأجلها النُّصوص، فأقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنُّصوص، ولم يظفروا بقضايا العقول الصَّحيحة المؤيَّدة بالفطرة السَّليمة والنُّصوص النَّبويَّة. ولو حكَّموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصَّحيح، الموافق للفطرة السَّليمة.

بل كلُّ فريقٍ من أرباب البدع يعرض النُّصوص على بدعته، وما ظنَّه معقولًا، فما وافقه قال: إنه محكمٌ، وقبله واحتجَّ به وما خالفه قال: إنه متشابه، ثمَّ ردَّه وسمَّى ردَّه تفويضًا، أو حرَّفه وسمَّى تحريفه تأويلًا؛ فلذلك اشتدَّ إنكار أهل السنة عليهم.

وطريق أهل السنة: أن لا يعدلوا عن النَّصِّ الصَّحيح، ولا يعارضوه بمعقولٍ، ولا قول فلانٍ، كما أشار إليه الشَّيخ رحمه الله.

وكما قال البخاري رحمه الله: سمعت الحميدي يقول: كنَّا عند الشَّافعي رحمه الله، فأتاه رجلٌ فسأله عن مسألة، فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشَّافعي: ما تقول أنت؟ فقال: سبحان الله، تراني في كنيسة، تراني في بيعة ترى على وسطي زنَّارًا؟! أقول لك: قضى رسول الله ﷺ، وأنت تقول: ما تقول أنت؟! ونظائر ذلك في كلام السَّلف كثيرٌ.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦].

وخبر الواحد إذا تلقَّته الأمَّة بالقبول، عملًا به وتصديقًا له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمَّة، وهو أحد قسمي المتواتر. ولم يكن بين سلف الأمَّة في ذلك نزاعٌ، كخبر عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(١)، وخبر ابن عمر:

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

«نَهَى عَنْ بَيْعِ الْوَلَاءِ وَهِبَتِهِ»[١] وخبر أبي هريرة: «لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلَا عَلَى خَالَتِهَا»[٢]، وكقوله: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»[٣]، وأمثال ذلك. وهو نظير خبر الذي أتى مسجد قباء وأخبر أنَّ القبلة تحوَّلت إلى الكعبة. فاستداروا إليها[٤].

وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله آحادًا، ويرسل كتبه مع الآحاد، ولم يكن المرسل إليهم يقولون: لا نقبله لأنه خبرُ واحدٍ وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: الآية ٣٣] فلابدَّ أن يحفظ الله حججه وبيِّناته على خلقه؛ لئلا تبطل حججه وبيِّناته.

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته، وبيَّن حاله للنَّاس. قال سفيان بن عيينة: ما ستر الله أحدًا يكذب في الحديث. وقال عبد الله ابن المبارك: لو همَّ رجلٌ في السَّحر أن يكذب في الحديث، لأصبح والنَّاس يقولون: فلانٌ كذَّابٌ.

وخبر الواحد وإن كان يحتمل الصِّدق والكذب، ولكنَّ التَّفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحدٌ إلَّا بعد أن يكون معظم أوقاته مشتغلًا بالحديث، والبحث عن سيرة الرُّواة، ليقف على أحوالهم وأقوالهم، وشدَّة حذرهم من الطُّغيان والزَّلل، وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحدًا في كلمة يتقوَّلها على رسول الله ﷺ، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك. وقد نقلوا هذا الدِّين إلينا كما نقل إليهم، فهم يَزَكُ الإسلام وعصابة الإيمان، وهم نقَّاد الأخبار، وصيارفة

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٢٥٣٥، ٢٧٥٦)، ومسلم (حديث ١٥٠٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥١١٠)، ومسلم (ص ١٠٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُنْكَحَ المَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا، وَالمَرْأَةُ عَلَى خَالَتِهَا».

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٢٦٤٥)، ومسلم (حديث ١٤٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٤٠٣)، وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٥٢٦)، من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ».

الأحاديث. فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم، وعرف حالهم، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم ظهر له العلم فيما نقلوه ورَوَوْهُ.

ومن له عقلٌ ومعرفة يعلم أنَّ أهل الحديث لهم من العلم بأحوال نبيِّهم وسيرته وأخباره، ما ليس لغيرهم به شعورٌ، فضلًا أن يكون معلومًا لهم أو مظنونًا. كما أنَّ النُّحاة عندهم من أخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ما ليس عند غيرهم، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم، وكلُّ ذي صنعة هو أخبر بها من غيره، فلو سألت البقَّال عن أمر العطر، أو العطَّار عن البزِّ، ونحو ذلك لعدَّ ذلك جهلًا كثيرًا.

ولكنَّ النُّفاة قد جعلوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] مستندًا لهم في ردِّ الأحاديث الصَّحيحة، فكلَّما جاءهم حديثٌ يخالف قواعدهم وآراءهم وما وضعته خواطرهم وأفكارهم ردُّوه بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، تلبيسًا منهم وتدليسًا على من هو أعمى قلبًا منهم، وتحريفًا لمعنى الآي عن مواضعها. ففهموا من أخبار الصِّفات ما لم يرده الله ولا رسوله، ولا فهمه أحدٌ من أئمَّة الإسلام، أنه يقتضي إثباتها التَّمثيل بما للمخلوقين ثمَّ استدلُّوا على بطلان ذلك بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] تحريفًا للنَّصَّين ويصنِّفون الكتب، ويقولون: هذا أصول دين الإسلام الذي أمر الله به وجاء من عنده، ويقرؤون كثيرًا من القرآن ويفوِّضون معناه إلى الله تعالى، من غير تدبُّرٍ لمعناه الذي بيَّنه الرَّسول، وأخبر أنه معناه الذي أراده الله.

ويشير الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ **بقوله:** «من الشَّرع والبيان» إلى أنَّ ما صحَّ عن النبي ﷺ نوعان: شرعٌ ابتدائي، وبيانٌ لما شرعه الله في كتابه العزيز، وجميع ذلك حقٌّ واجب الاتِّباع.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

وقوله: «وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ(١)، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ، وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَمُلَازَمَةِ الْأَوْلَى»(٢)

الشرح

وفي بعض النُّسخ: «بالخشية والتُّقى» بدل قوله: «بالحقيقة». ففي العبارة الأولى يشير إلى أنَّ الكلَّ مشتركون في أصل التَّصديق، ولكنَّ التَّصديق يكون بعضه أقوى من بعضٍ وأثبت، كما تقدَّم تنظيره بقوَّة البصر وضعفه. وفي العبارة الأخرى يشير إلى أنَّ التَّفاوت بين المؤمنين بأعمال القلوب، وأمَّا التَّصديق فلا تفاوت فيه. والمعنى الأوَّل أظهر قوَّة، والله أعلم بالصَّواب.

متن الطحاوية

قوله: «وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ»

الشرح

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، الولي: من «الوَلاية» بفتح الواو، التي هي ضدُّ العداوة.

فالمؤمنون أولياء الله، والله تعالى وليُّهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧]، الآية. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد: الآية ١١]. والمؤمنون بعضهم أولياء بعضٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ الآية [التوبة: الآية ٧١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) تقدم أن هذا اللفظ مشكل وغامض، وعليه مؤاخذات كثيرة، وتفاضل المؤمنين في الإيمان دلت عليه أدلة كثيرة جدًّا.

(٢) هذه بعض أسباب التفاضل وليست كل الأسباب.

ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] إلى آخر السورة. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

فهذه النُّصوص كلُّها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعضٍ، وأنَّهم أولياء الله، وأنَّ الله وليُّهم ومولاهم، فالله يتولَّى عباده المؤمنين، فيحبُّهم ويحبُّونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، ومن عادى له وليًّا فقد بارزه بالمحاربة. وهذه الولاية من رحمته وإحسانه، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجته إليه. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: الآية ١١١]. فالله تعالى ليس له وليٌّ من الذُّلِّ، بل لله العزَّة جميعًا، خلاف الملوك وغيرهم ممَّن يتولَّاه لذلِّه وحاجته إلى وليٍّ ينصره.

والولاية أيضًا نظير الإيمان، فيكون مراد الشَّيخ: أنَّ أهلها في أصلها سواءٌ(١)، وتكون كاملة وناقصة: فالكاملة تكون للمؤمنين المتَّقين، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾، فالولاية لمن كان من الَّذين آمنوا وكانوا يتَّقون، وهم أهل الوعد المذكور في الآيات الثَّلاث. وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابِّه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة، ولا تملقٍ ولا رياضة، وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [يونس: الآية ٦٤] مبتدأٌ، والخبر ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [يونس: الآية ٦٤]، وهو بعيدٌ، لقطع الجملة عمَّا قبلها، وانتثار نظم الآية.

ويجتمع في المؤمن ولاية من وجه، وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفرٌ وإيمانٌ، وشركٌ وتوحيدٌ، وتقوى وفجورٌ، ونفاقٌ وإيمانٌ. وإن كان في هذا الأصل نزاعٌ لفظي بين أهل السنة، ونزاعٌ معنوي بينهم وبين أهل البدع، كما تقدَّم في الإيمان. ولكنَّ موافقة الشَّارع في اللَّفظ والمعنى أولى من موافقته في المعنى وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: الآية ١٠٦].

---

(١) كذلك القول في الولاية على هذا المذكور مؤاخذات.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: الآية ١٤]، الآية. وقد تقدَّم الكلام على هذه الآية، وأنَّهم ليسوا منافقين على أصحِّ القولين.

وقال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(١)، وفي رواية: «وإذا ائتمن خان»، بدل: «وإذا وعد أخلف». أخرجاه في «الصحيحين». وحديث شعب الإيمان تقدَّم. وقوله ﷺ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**»(٢).

فعلم أنَّ من كان معه من الإيمان أقلُّ القليل لم يخلَّد في النَّار، وإن كان معه كثيرٌ من النِّفاق، فهو يعذَّب في النَّار على قدر ما معه من ذلك، ثمَّ يخرج من النَّار.

فالطَّاعات من شعب الإيمان، والمعاصي من شعب الكفر، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود، ورأس شعب الإيمان التَّصديق.

وأمَّا أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الآية [يونس: ٦٢ - ٦٤].

والتَّقوى هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾، إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٧].

وهم قسمان: مقتصدون، ومقرَّبون. فالمقتصدون: الَّذين يتقرَّبون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح. والسَّابقون: الَّذين يتقرَّبون إلى الله بالنَّوافل بعد الفرائض. كما في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا**

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

(٢) **صحيح**: وقد تقدم.

أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

والولي: خلاف العدوِّ، وهو مشتقٌّ من الولي، وهو الدُّنوُّ والتَّقرُّب، فولي الله: هو من والى الله بموافقته في محبوباته، والتَّقرُّب إليه بمرضاته، وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فالمتَّقون يجعل الله لهم مخرجًا ممَّا ضاق على النَّاس، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيدفع الله عنهم المضارَّ، ويجلب لهم المنافع، ويعطيهم الله أشياء يطول شرحها من المكاشفات والتَّأثيرات.

متن الطحاوية

قوله: «وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُمْ وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ»

الشرح

أي أكرم المؤمنين هو الأطوع لله، والأتبع للقرآن، وهو الأتقى، والأتقى هو الأكرم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]. وفي السُّنن عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**»(٢). وبهذا الدَّليل يظهر ضعف تنازعهم في مسألة الفقير الصَّابر والغني الشَّاكر، وترجيح أحدهما على الآخر، وأنَّ التَّحقيق أنَّ التَّفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنَّما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فالمسألة فاسدة في نفسها. فإنَّ التَّفضيل عند الله بالتَّقوى وحقائق الإيمان، لا بفقرٍ ولا غنًى. ولهذا - والله أعلم -

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا كحديث قدسي، وانظره: بتوسع في كتابنا: «الصحيح المسند من الأحاديث القدسية».

(٢) **صحيح وله شواهد**: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٤١١) من طريق أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ...**» الحديث.

قال عمر ﷺ: الغنى والفقر مطيَّتان، لا أبالي أيُّهما ركبت. والفقر والغنى ابتلاءٌ من الله تعالى لعبده، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ الآية [الفجر: الآية ١٥]. فإن استويا - الفقير الصَّابر والغني الشَّاكر - في التَّقوى، استويا في الدَّرجة، وإن فضل أحدهما فيها فهو الأفضل عند الله، فإنَّ الفقر والغنى لا يوزنان، وإنَّما يوزن الصَّبر والشُّكر.

ومنهم من أحال المسألة من وجه آخر: وهو أنَّ الإيمان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ، فكلٌّ منهما لا بدَّ له من صبرٍ وشكرٍ. وإنَّما أخذ النَّاس فرعًا من الصَّبر وفرعًا من الشُّكر، وأخذوا في التَّرجيح، فجرَّدوا غنيًّا منفقًا متصدِّقًا باذلًا ماله في وجوه القرب شاكرًا لله عليه، وفقيرًا متفرِّغًا لطاعة الله ولأداء العبادات صابرًا على فقره، وحينئذٍ يقال: إنَّ أكملهما أطوعهما وأتبعهما، فإن تساويا تساوت درجتهما، والله أعلم. ولو صحَّ التَّجريد لصحَّ أن يقال: أيُّما أفضل، معافًى شاكرٌ أو مريضٌ صابرٌ، أو مطاعٌ شاكرٌ أو مهانٌ صابرٌ. أو آمنٌ شاكرٌ أو خائفٌ صابرٌ؟ ونحو ذلك.

متن الطحاوية

قوله: «وَالْإِيمَانُ: هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلْوِهِ وَمُرِّهِ، مِنَ اللَّهِ تَعَالَى»

الشرح

تقدَّم أنَّ هذه الخصال هي أصول الدِّين، وبها أجاب النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور المتَّفق على صحَّته، حين جاء إلى النبي ﷺ على صورة رجل أعرابي، وسأله عن الإسلام، فقال: **«أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**. وسأله عن الإيمان؟ فقال: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**. وسأله عن الإحسان؟ فقال: **«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**[1]. وقد ثبت كذلك في الصَّحيح عنه ﷺ:

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٧٢٦) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: =

أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[1]. وتارة بآيتي الإيمان والإسلام التي في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية [البقرة: الآية ١٣٦]، والتي في آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: الآية ٦٤][2]. وفسَّر ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس المتَّفق على صحَّته، حيث قال لهم: **«آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ»**[3].

ومعلومٌ أنه لم يرد أنَّ هذه الأعمال تكون إيمانًا بالله بدون إيمان القلب، لما قد أخبر في غير موضعٍ أنه لا بدَّ من إيمان القلب. فعلم أنَّ هذه مع إيمان القلب هو الإيمان، وقد تقدَّم الكلام على هذا.

والكتاب والسنة مملوءان بما يدلُّ على أنَّ الرَّجل لا يثبت له حكم الإيمان إلَّا بالعمل مع التَّصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزَّكاة، فإنَّ تلك إنَّما فسَّرتها السنة، والإيمان بيَّن معناه الكتاب والسنة. فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية [الحُجرات: الآية ١٥]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

= ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: الآية ١]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]، وأخرج أحمد في «المسند» (٢/ ٩٤) بسند صحيح عن ابن عمر قال: رمقت النبي ﷺ شهرًا فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: الآية ١]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١].

(١) **صحيح وله شواهد:** وقد تقدم.

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٧٢٧) من حديث ابن عباس ﵄: كان رَسُول اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَي الْفَجْرِ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٦]، والتي في آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٤]، وفي رواية عند مسلم من حديث ابن عباس أيضًا: أن رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَي الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٦] الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٢].

(٣) **صحيح:** وقد تقدم.

﴿حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: الآية ٦٥]، نفي الإيمان حتى توجد هذه الغاية دلَّ على أنَّ هذه الغاية فرضٌ على النَّاس، فمن تركها كان من أهل الوعيد ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب، الذي وعد أهله بدخول الجنَّة بلا عذابٍ. ولا يقال: إنَّ بين تفسير النبي ﷺ الإيمان في حديث جبريل وتفسيره إيَّاه في حديث وفد عبد القيس معارضة؛ لأنه فسَّر الإيمان في حديث جبريل بعد تفسير الإسلام، فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الإسلام، كما أنَّ الإحسان متضمِّنٌ للإيمان الذي قدَّم تفسيره قبل ذكره. بخلاف حديث وفد عبد القيس؛ لأنه فسَّره ابتداءً، لم يتقدَّم قبله تفسير الإسلام. ولكنَّ هذا الجواب لا يتأتَّى على ما ذكره الشَّيخ رحمه الله من تفسير الإيمان، فحديث وفد عبد القيس مشكلٌ عليه.

وممَّا يسأل عنه: أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظَّاهرة أكثر من الخصال الخمس التي أجاب بها النبي ﷺ في حديث جبريل المذكور، فلم قال: إنَّ الإسلام هذه الخصال الخمس؟ وقد أجاب بعض النَّاس بأنَّ هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها، وبقيامه بها يتمُّ استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده.

والتَّحقيق: أنَّ النبي ﷺ ذكر الدِّين الذي هو استسلام العبد لربِّه مطلقًا، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان، فيجب على كلِّ من كان قادرًا عليه، ليعبد الله بها مخلصًا له الدِّين، وهذه هي الخمس، وما سوى ذلك فإنَّما يجب بأسبابٍ ومصالح، فلا يعم وجوبها جميع النَّاس، بل إمَّا أن يكون فرضًا على الكفاية، كالجهاد والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وما يتبع ذلك من إمارة وحكمٍ وفتيا وإقراءٍ وتحديثٍ، وغير ذلك.

وإمَّا أن يجب بسبب حقِّ الآدميِّين، فيختصُّ به من وجب له وعليه، وقد يسقط بإسقاطه، من قضاء الدُّيون، وردِّ الأمانات والغصوب، والإنصاف من المظالم، من الدِّماء والأموال والأعراض وحقوق الزَّوجة والأولاد وصلة الأرحام، ونحو ذلك، فإنَّ الواجب من ذلك على زيدٍ غير الواجب على عمرٍو. بخلاف صوم رمضان وحجِّ البيت والصَّلوات الخمس والزَّكاة، فإنَّ الزَّكاة وإن كانت حقًّا ماليًّا فإنَّها واجبة لله، والأصناف الثَّمانية مصارفها، ولهذا وجبت فيها النِّيَّة، ولم يجز

أن يفعلها الغير عنه بلا إذنه، ولم تطلب من الكفَّار، وحقوق العباد لا يشترط لها النِّيَّة، ولو أدَّاها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمَّته، ويطالب بها الكفَّار. وما يجب حقًّا لله تعالى، كالكفَّارات، هو بسببٍ من العبد، وفيها معنى العقوبة، ولهذا كان التَّكليف شرطًا في الزَّكاة، فلا تجب على الصَّغير والمجنون عند أبي حنيفة وأصحابه - رحمهم الله تعالى - على ما عرف في موضعه.

وقوله: «والقدر خيره وشرّه، وحلوه ومرّه، من الله تعالى» تقدَّم قوله ﷺ في حديث جبريل: «**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّهِ**»[1]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: الآية ٥١]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ الآية [النساء: ٧٨، ٧٩].

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: الآية ٧٨] وبين قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: الآية ٧٩]؟، قيل: قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: الآية ٧٨]: الخصب والجدب، والنَّصر والهزيمة، كلُّها من عند الله، وقوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: الآية ٧٩]: أي: ما أصابك من سيِّئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: الآية ٣٠]. يدلُّ على ذلك ما روي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: أنه قرأ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: الآية ٧٩] «**وأنا كتبتها عليك**».

والمراد بالحسنة هنا النِّعمة، وبالسَّيِّئة البليَّة، في أصحِّ الأقوال.

وقد قيل: الحسنة الطَّاعة، والسَّيِّئة المعصية.

وقيل: الحسنة ما أصابه يوم بدرٍ، والسَّيِّئة ما أصابه يوم أحدٍ.

والقول الأوَّل شاملٌ لمعنى القول الثَّالث، والمعنى الثاني ليس مرادًا دون الأوَّل قطعًا، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيِّئة العمل وسيِّئة الجزاء من نفسه، مع أنَّ الجميع مقدَّرٌ، فإنَّ المعصية الثَّانية قد تكون عقوبة الأولى، فتكون من سيِّئات الجزاء، مع أنَّها من سيِّئات العمل، والحسنة الثَّانية قد تكون من ثواب الأولى،

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة.

وليس للقدريَّة أن يحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: الآية ٧٩]، فإنَّهم يقولون: إن فعل العبد - حسنة كان أو سيِّئة - فهو منه لا من الله، والقرآن قد فرَّق بينهما، وهم لا يفرِّقون؛ ولأنه قال تعالى: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: الآية ٧٨]، فجعل الحسنات من عند الله، كما جعل السَّيِّئات من عند الله، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال، بل في الجزاء.

وقوله بعد هذا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ﴾ و ﴿مِن سَيِّئَةٖ﴾ [النساء: الآية ٧٩]، مثل قوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ﴾ و ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ [النساء: الآية ٧٨].

وفرَّق ﷻ بين الحسنات التي هي النِّعم، وبين السَّيِّئات التي هي المصائب، فجعل هذه من الله، وهذه من نفس الإنسان؛ لأنَّ الحسنة مضافة إلى الله، إذ هو أحسن بها من كلِّ وجه، فما من وجه من أوجهها إلَّا وهو يقتضي الإضافة إليه، وأمَّا السَّيِّئة، فهو إنَّما يخلقها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإنَّ الرَّبَّ لا يفعل سيِّئة قطُّ، بل فعله كله حسنٌ وخيرٌ.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح: «**وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[1]. أي: فإنَّك لا تخلق شرًّا محضًا، بل كلُّ ما تخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خيرٌ، ولكن قد يكون فيه شرٌّ لبعض النَّاس، فهذا شرٌّ جزئي إضافي، فأمَّا شرٌّ كلِّي، أو شرٌّ مطلقٌ فالرَّبُّ ﷻ منزَّه عنه. وهذا هو الشَّرُّ الذي ليس إليه.

ولهذا لا يضاف الشَّرُّ إليه مفردًا قطُّ، بل إمَّا أن يدخل في عموم المخلوقات، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: الآية ٦٢] ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: الآية ٧٨]، وإمَّا أن يضاف إلى السَّبب، كقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ [الفلق: الآية ٢] وإمَّا أن يحذف فاعله، كقول الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: الآية ١٠].

وليس إذا خلق ما يتأذَّى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل لله من الرَّحمة والحكمة ما لا يقدِّر قدره إلَّا الله تعالى، وليس إذا وقع في المخلوقات ما

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٧٧١).

هو شرٌّ جزئي بالإضافة يكون شرًّا كلِّيًا عامًّا، بل الأمور العامَّة الكلِّيَّة لا تكون إلَّا خيرًا أو مصلحة للعباد، كالمطر العامِّ، وكإرساله رسولًا عامًّا.

وهذا ممَّا يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيِّد كذَّابًا عليه بالمعجزات التي أيَّد بها الصَّادقين، فإنَّ هذا شرٌّ عامٌّ للنَّاس، يضلُّهم، فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم.

وليس هذا كالملك الظَّالم والعدوِّ، فإنَّ الملك الظَّالم لا بدَّ أن يدفع الله به من الشَّرِّ أكثر من ظلمه، وقد قيل: ستُّون سنة بإمام ظالمٍ خيرٌ من ليلة واحدة بلا إمامٍ، وإذا قدِّر كثرة ظلمه، فذاك خيرٌ في الدِّين، كالمصائب، تكون كفَّارة لذنوبهم، ويثابون على الصَّبر عليه، ويرجعون فيه إلى الله، ويستغفرونه ويتوبون إليه، وكذلك ما يسلَّط عليهم من العدو. ولهذا قد يمكِّن الله كثيرًا من الملوك الظَّالمين مدَّة، وأمَّا المتنبِّئون الكذَّابون فلا يطيل تمكينهم، بل لا بدَّ أن يهلكهم؛ لأنَّ فسادهم عامٌّ في الدِّين والدُّنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: الآيات ٤٤ - ٤٦].

وفي قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: الآية ٧٩] من الفوائد: أنَّ العبد لا يطمئنُّ إلى نفسه ولا يسكن إليها، فإنَّ الشَّرَّ كامنٌ فيها، لا يجيء إلَّا منها، ولا يشتغل بملام النَّاس ولا ذمِّهم إذا أساؤوا إليه، فإنَّ ذلك من السَّيِّئات التي أصابته، وهي إنَّما أصابته بذنوبه، فيرجع إلى الذُّنوب، ويستعيذ بالله من شرِّ نفسه وسيِّئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته. فبذلك يحصل له كلُّ خيرٍ، ويندفع عنه كلُّ شرٍّ.

ولهذا كان أنفع الدُّعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. فإنه إذا هداه هذا الصِّراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شرٌّ، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، لكنَّ الذُّنوب هي لوازم نفس الإنسان، وهو محتاجٌ إلى الهدى كلَّ لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطَّعام والشَّراب، ليس كما يقوله بعض المفسِّرين: إنه قد هداه فلماذا يسأل الهدى؟ وأنَّ المراد التَّثبيت، أو مزيد الهداية بل العبد محتاجٌ إلى أن يعلِّمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله، وإلى

ما يتركه من تفاصيل الأمور، في كلِّ يوم، وإلى أن يلهمه أن يعمل ذلك. فإنه لا يكفي مجرَّد علمه إن لم يجعله مريدًا للعمل بما يعلمه، وإلَّا كان العلم حجَّة عليه، ولم يكن مهتديًا. والعبد محتاجٌ إلى أن يجعله الله قادرًا على العمل بتلك الإرادة الصَّالحة، فإنَّ المجهول لنا من الحقِّ أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه ممَّا نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمرٌ يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التَّامَّة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيتٍ، وهي آخر الرُّتب.

وبعد ذلك كله هداية أخرى، وهي الهداية إلى طريق الجنَّة في الآخرة. ولهذا كان النَّاس مأمورين بهذا الدُّعاء في كلِّ صلاة، لفرط حاجتهم إليه، فليسوا إلى شيءٍ أحوج منهم إلى هذا الدُّعاء. فيجب أن يعلم أنَّ الله بفضل رحمته جعل هذا الدُّعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير، المانعة من الشَّرِّ، فقد بيَّن القرآن أنَّ السَّيِّئات من النَّفس، وإن كانت بقدر الله، وأنَّ الحسنات كلَّها من الله تعالى.

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يُشْكَرَ سبحانه، وأن يستغفره العبد من ذنوبه، وأن لا يتوكَّل إلَّا عليه وحده، فلا يأتي بالحسنات إلَّا هو. فأوجب ذلك توحيده، والتَّوكُّل عليه وحده، والشُّكر له وحده، والاستغفار من الذُّنوب.

وهذه الأمور كان النبي ﷺ يجمعها في الصلاة، كما ثبت عنه في «الصَّحيح» أنه كان إذا رفع رأسه من الرُّكوع يقول: **«ربَّنا لك الحمد حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، ملء السَّموات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيءٍ بعد، أهل الثَّناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبدٌ»**. فهذا حمدٌ، وهو شكرٌ لله تعالى، وبيان أنَّ حمده أحقُّ ما قاله العبد، ثمَّ يقول بعد ذلك: **«لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»**[1].

---

(١) أخرجه مسلم (مع النووي ٤/ ١٩٤) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: **«رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ: اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»**.

وهذا تحقيقٌ لوحدانيَّته، لتوحيد الرُّبوبيَّة، خلقًا وقدرًا، وبداية ونهاية، هو المعطي المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولتوحيد الإلهيَّة شرعًا وأمرًا ونهيًا، وهو أنَّ العباد وإن كانوا يعطون جدًّا: ملكًا وعظمة وبختًا ورياسة، في الظَّاهر، أو في الباطن، كأصحاب المكاشفات والتَّصرُّفات الخارقة فلا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ، أي لا ينجيه ولا يخلِّصه، ولهذا قال: «لا ينفعه منك»، ولم يقل: «ولا ينفعه عندك»؛ لأنه لو قيل ذلك أوهم أنه لا يتقرَّب به إليك، لكن قد لا يضرُّه.

فتضمَّن هذا الكلام تحقيق التَّوحيد، أو تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥]، فإنه لو قدِّر أنَّ شيئًا من الأسباب يكون مستقلًّا بالمطلوب، وإنَّما يكون بمشيئة الله وتيسيره؛ لكان الواجب أن لا يرجى إلَّا الله، ولا يتوكَّل إلَّا عليه، ولا يسأل إلَّا هو، ولا يستغاث إلَّا به، ولا يستعان إلَّا هو، فله الحمد، وإليه المشتكى، وهو المستعان، وبه المستغاث، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

فكيف وليس شيءٌ من الأسباب مستقلًّا بمطلوبٍ، بل لا بدَّ من انضمام أسبابٍ أخر إليه، ولا بدَّ أيضًا من صرف الموانع والمعارضات عنه، حتى يحصل المقصود، فكلُّ سببٍ فله شريكٌ وله ضدٌّ، فإن لم يعاونه شريكه، ولم ينصرف عنه ضدُّه لم تحصل مشيئة.

والمطر وحده لا ينبت النَّبات إلَّا بما ينضمُّ إليه من الهواء والتُّراب وغير ذلك، ثمَّ الزَّرع لا يتمُّ حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطَّعام والشَّراب لا يغذِّي إلَّا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف عنه المفسدات.

والمخلوق الذي يعطيك أو ينصرك، فهو - مع أنَّ الله يجعل فيه الإرادة والقوَّة والفعل - فلا يتمُّ ما يفعله إلَّا بأسبابٍ كثيرة، خارجة عن قدرته تعاونه على مطلوبه، ولو كان ملكًا مطاعًا، ولا بدَّ أن يصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمانعها، فلا يتمُّ المطلوب إلَّا بوجود المقتضي وعدم المانع.

وكلُّ سببٍ معينٍ فإنَّما هو جزءٌ من المقتضي، فليس في الوجود شيءٌ واحدٌ هو

مقتضٍ تامٌّ، وإن سمِّي مقتضيًا، وسمِّي سائر ما يعينه شروطًا فهذا نزاعٌ لفظي. وأمَّا أن يكون في المخلوقات علَّة تامَّة تستلزم معلولها فهذا باطلٌ.

ومن عرف هذا حقَّ المعرفة انفتح له باب توحيد الله، وعلم أنه لا يستحقُّ أن يسأل غيره، فضلًا عن أن يُعْبَدَ غَيْرُه، ولا يُتوكَّل على غيره، ولا يُرْجَى غيرُه.

متن الطحاوية

قوله: «وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلَى مَا جَاؤوا بِهِ»

الشرح

الإشارة بذلك إلى ما تقدَّم، ممَّا يجب الإيمان به تفصيلًا.

وقوله: «لا نفرِّق بين أحدٍ من رسله»، إلى آخر كلامه، أي: لا نفرِّق بينهم بأن نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ، بل نؤمن بهم ونصدِّقهم كلَّهم، فإنَّ من آمن ببعضٍ وكفر ببعضٍ، كافرٌ بالكلِّ.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فإنَّ المعنى الذي لأجله آمن بمن آمن منهم موجودٌ في الذي لم يؤمن به، وذلك الرَّسول الذي آمن به قد جاء بتصديق بقيَّة المرسلين، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافرًا بمن في زعمه أنه مؤمن به؛ لأنَّ ذلك الرَّسول قد جاء بتصديق المرسلين كلِّهم، فكان كافرًا حقًّا، وهو يظنُّ أنه مؤمنٌ، فكان من الأخسرين أعمالًا، الَّذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا.

❊ ❊ ❊

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ[1]، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ، بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَارِفِينَ[2]، وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ، وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَدْلِهِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نَكِرَتِهِ الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وَلَايَتِهِ. اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مَسِّكْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ»

الشرح

فقوله: «وأهل الكبائر من أمَّة محمَّدٍ ﷺ في النَّار لا يخلَّدون، إذا ماتوا وهم موحِّدون» ردٌّ لقول الخوارج والمعتزلة، القائلين بتخليد أهل الكبائر في النَّار. لكنَّ الخوارج تقول بتكفيرهم، والمعتزلة بخروجهم من الإيمان، لا بدخولهم في الكفر، بل لهم منزلة بين منزلتين، كما تقدَّم عند الكلام على قول الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا نكفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنبٍ ما لم يستحلَّه».

وقوله: «وأهل الكبائر من أمَّة محمَّدٍ» تخصيصه أمَّة محمَّدٍ، يفهم منه أنَّ أهل الكبائر من أمَّة غير محمَّدٍ ﷺ قبل نسخ تلك الشَّرائع به، حكمهم مخالفٌ لأهل الكبائر من أمَّة محمَّدٍ، وفي ذاك نظرٌ، فإنَّ النبي ﷺ أخبر أنه: **«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»**[3]. ولم يخصَّ أمَّته بذلك. بل ذكر الإيمان مطلقًا، فتأمَّله. وليس في بعض النُّسخ ذكر الأمَّة.

---

(١) ليس معنى ذلك أن غير أمة محمد أهل الكبائر فيها يخلدون؛ بل على ما يبدو أنهم أيضًا واقعون تحت المشيئة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨]، ثم إن بعض النسخ ليس فيها ذكر أمة محمد.

(٢) يعني عارفين مؤمنين، وإلا فالعارف بلا إيمان لا تنفعه معرفته.

(٣) **صحيح**: وقد تقدم.

وقوله: «فِي النَّارِ» معمولٌ لقوله: «لَا يُخَلَّدُونَ». وإنَّما قدَّمه لأجل السَّجعة، لا أن يكون «فِي النَّارِ» خبرًا لقوله: «وَأَهْلُ الكَبَائِرِ»، كما ظنَّه بعض الشَّارحين.

واختلف العلماء في الكبائر على أقوالٍ:

فقيل: سبع.

وقيل: سبع عشرة.

وقيل: ما اتَّفقت الشَّرائع على تحريمه.

وقيل: ما يسدُّ باب المعرفة بالله.

وقيل: ذهاب الأموال والأبدان.

وقيل: سمِّيت كبائر بالنِّسبة والإضافة إلى ما دونها.

وقيل: لا تعلم أصلًا. أو: أنَّها أخفيت كليلة القدر.

وقيل: إنَّها إلى السَّبعين أقرب.

وقيل: كلُّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة.

وقيل: إنَّها ما يترتَّب عليها حدٌّ أو تُوعِّد عليها بالنَّار، أو اللَّعنة، أو الغضب، وهذا أمثل الأقوال.

واختلفت عبارات السلف في تعريف الصغائر:

منهم من قال: الصَّغيرة ما دون الحدَّين: حدِّ الدُّنيا وحدِّ الآخرة.

ومنهم من قال: كلُّ ذنبٍ لم يختم بلعنة أو غضبٍ أو نارٍ.

ومنهم من قال: الصَّغيرة ما ليس فيها حدٌّ في الدُّنيا ولا وعيدٌ في الآخرة، والمراد بالوعيد: الوعيد الخاصُّ بالنَّار أو اللَّعنة أو الغضب. فإنَّ الوعيد الخاصَّ في الآخرة كالعقوبة الخاصَّة في الدُّنيا، أعني المقدرة، فالتَّعزير في الدُّنيا نظير الوعيد بغير النَّار أو اللَّعنة أو الغضب.

وهذا الضَّابط يسلم من القوادح الواردة على غيره، فإنه يدخل فيه كلُّ ما ثبت بالنَّصِّ أنه كبيرة كالشِّرك، والقتل، والزِّنا، والسِّحر، وقذف المحصنات الغافلات

المؤمنات، ونحو ذلك، كالفرار من الزَّحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الرِّبا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزُّور، وأمثال ذلك.

وترجيح هذا القول من وجوه:

أحدها: أنه هو المأثور عن السَّلف، كابن عبَّاسٍ، وابن عيينة، وابن حنبلٍ، وغيرهم.

الثاني: أنَّ الله تعالى قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النِّساء: الآية ٣١]. فلا يستحقُّ هذا الوعد الكريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره، وكذلك من استحقَّ أن يقام عليه الحدُّ لم تكن سيِّئاته مكفَّرة عنه باجتناب الكبائر.

الثَّالث: أنَّ هذا الضَّابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله من الذُّنوب، فهو حدٌّ متلقًّى من خطاب الشَّارع.

الرَّابع: أنَّ هذا الضَّابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصَّغائر، بخلاف تلك الأقوال. فإنَّ من قال: سبعٌ، أو سبع عشرة، أو إلى السَّبعين أقرب مجرَّد دعوى.

ومن قال: ما اتَّفقت الشَّرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه، يقتضي أنَّ شرب الخمر، والفرار من الزَّحف، والتَّزوُّج ببعض المحارم، والمحرَّم بالرَّضاعة والصِّهريَّة، ونحو ذلك ليس من الكبائر وأنَّ الحبَّة من مال اليتيم، والسَّرقة لها، والكذبة الواحدة الخفيفة، ونحو ذلك من الكبائر! وهذا فاسدٌ.

ومن قال: ما سدَّ باب المعرفة بالله، أو ذهاب الأموال والأبدان يقتضي أنَّ شرب الخمر، وأكل الخنزير والميتة والدَّم، وقذف المحصنات ليس من الكبائر وهذا فاسدٌ.

ومن قال: إنَّها سمِّيت كبائر بالنِّسبة إلى ما دونها، أو كلُّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة يقتضي أنَّ الذُّنوب في نفسها لا تنقسم إلى صغائر وكبائر وهذا فاسدٌ، لأنه خلاف النُّصوص الدَّالَّة على تقسيم الذُّنوب إلى صغائر وكبائر.

ومن قال: إنَّها لا تعلم أصلًا، أو إنَّها مبهمة فإنَّما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها، فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره، والله أعلم.

وقوله: «وإن لم يكونوا تائبين» لأنَّ التَّوبة لا خلاف أنَّها تمحو الذُّنوب، وإنَّما الخلاف في غير التَّائب.

وقوله: «بعد أن لقوا الله تعالى عارفين» لو قال: «مؤمنين» بدل قوله: «عارفين»، كان أَوْلَى؛ لأنَّ من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافرٌ. وإنَّما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم، وقوله مردودٌ باطلٌ، كما تقدَّم، فإنّ إبليس عارفٌ بربِّه ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦﴾ [الحجر: الآية ٣٦].

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وكذلك فرعون وأكثر الكافرين، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. إلى غير ذلك من الآيات الدَّالَّة على هذا المعنى.

وكأنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء، التي يشير إليها أهل الطَّريقة، وحاشا أولئك أن يكونوا من أهل الكبائر، بل هم سادة النَّاس وخاصَّتهم.

وقوله: «وهم في مشيئة الله وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله»، إلى آخر كلامه، فصل الله تعالى بين الشِّرك وغيره؛ لأنَّ الشِّرك أكبر الكبائر، كما قال ﷺ، وأخبر الله تعالى أنَّ الشِّرك غير مغفورٍ، وعلَّق غفران ما دونه بالمشيئة، والجائز يعلَّق بالمشيئة دون الممتنع، ولو كان الكلُّ سواءً لما كان للتَّفصيل معنى؛ ولأنه علَّق هذا الغفران بالمشيئة، وغفران الكبائر والصَّغائر بعد التَّوبة مقطوعٌ به، غير معلَّقٍ بالمشيئة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣]. فوجب أن يكون الغفران المعلَّق بالمشيئة هو غفران الذُّنوب سوى الشِّرك بالله قبل التَّوبة.

وقوله: «ذلك أنَّ الله مولى أهل معرفته» فيه مؤاخذة لطيفة، كما تقدَّم.

وقوله: «اللَّهمَّ يا ولي الإسلام وأهله مَسِّكْنا بالإسلام» وفي نسخة: «ثبِّتنا على الإسلام حتى نلقاك به»، ومناسبة ختم الكلام المتقدِّم بهذا الدُّعاء ظاهرة. وبمثل

هذا الدُّعاء دعا يوسف الصِّدِّيق صلوات الله عليه، حيث قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠١]. وبه دعا السَّحرة الَّذين كانوا أوَّل من آمن بموسى صلوات الله على نبيِّنا وعليه، حيث قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٦]. ومن استدلَّ بهاتين الآيتين على جواز تمنِّي الموت فلا دليل له فيه، فإنَّ الدُّعاء إنَّما هو بالموت على الإسلام، لا بمطلق الموت، ولا بالموت الآن، والفرق ظاهرٌ.

متن الطحاوية

قوله: «وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ»

الشرح

وفي «صحيح البخاري»: أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يصلِّي خلف الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي، وكذا أنس بن مالكٍ، وكان الحجَّاج فاسقًا ظالمًا.

وفي «صحيحه» أيضًا، أنَّ النبي ﷺ قال: «**يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**»(١).

اعلم، رحمك الله وإيَّانا: أنه يجوز للرَّجل أن يصلِّي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقًا، باتِّفاق الأئمَّة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن يمتحنه، فيقول: ماذا تعتقد؟ بل يصلِّي خلف المستور الحال.

ولو صلى خلف مبتدعٍ يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلَّا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام في

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٤٩) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**».

قال الحافظ في «الفتح»: زاد أحمد عن الحسن بن موسى بهذ السند «أو لهم» أي ثواب صلاتهم.

قلت: وهي عند أحمد (٢/ ٣٥٥).

صلاة الحجِّ بعرفة، ونحو ذلك: فإنَّ المأموم يصلِّي خلفه، عند عامَّة السَّلف والخلف.

ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر، فهو مبتدعٌ عند أكثر العلماء. والصَّحيح أنه يصلِّيها ولا يعيدها، فإنَّ الصَّحابة ﷺ كانوا يصلُّون الجمعة والجماعة خلف الأئمَّة الفجَّار ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر يصلِّي خلف الحجَّاج بن يوسف، وكذلك أنسٌ ﷺ، كما تقدَّم، وكذلك عبد الله بن مسعودٍ ﷺ وغيره يصلُّون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيطٍ، وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصُّبح مرَّة أربعًا، ثمَّ قال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعودٍ: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة.

وفي الصَّحيح: أنَّ عثمان بن عفَّان ﷺ لمَّا حصر صلى بالنَّاس شخصٌ، فسأل سائلٌ عثمان: إنَّك إمام عامَّة، وهذا الذي صلى بالنَّاس إمام فتنة؟

فقال: يا بن أخي، إنَّ الصَّلاة من أحسن ما يعمل النَّاس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم(١).

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنَّما كَرِهَ مَنْ كَرِهَ الصلاة خلفه؛ لأنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر واجبٌ.

ومن ذلك: أنَّ من أظهر بدعة وفجورًا لا يرتَّب إمامًا للمسلمين، فإنه يستحقُّ التَّعزير حتى يتوب، فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنًا، وإذا كان بعض النَّاس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثَّر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي النَّاس عن مثل ذنبه، فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعيَّة، ولم تفت المأموم الجمعة ولا الجماعة.

وأمَّا إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوِّت المأموم الجمعة والجماعة، فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلَّا مبتدعٌ مخالفٌ للصَّحابة ﷺ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٩٥).

وكذلك إذا كان الإمام قد رتَّبه ولاة الأمور، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعيَّة، فهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلف الأفضل أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدِّم مظهرًا للمنكر في الإمامة، وجب عليه ذلك، لكن إذا ولَّاه غيره، ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكَّن من صرفه عن الإمامة إلَّا بشرٍّ أعظم ضررًا من ضرر ما أظهر من المنكر - فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخفِّ الضَّررين بحصول أعظمهما، فإنَّ الشَّرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، بحسب الإمكان. فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادًا من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لا سيَّما إذا كان التَّخلُّف عنها لا يدفع فجورًا، فيبقى تعطيل المصلحة الشَّرعيَّة بدون دفع تلك المفسدة.

وأمَّا إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البرِّ، فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر، وحينئذٍ فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذرٍ، فهو موضع اجتهاد العلماء منهم من قال: يعيد، ومنهم من قال: لا يعيد. وموضع بسط ذلك في كتب الفروع.

وأمَّا الإمام إذا نسي أو أخطأ، ولم يعلم المأموم بحاله، فلا إعادة على المأموم، للحديث المتقدِّم، وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنبٌ ناسيًا للجنابة، فأعاد الصلاة، ولم يأمر المأمومين بالإعادة(١).

ولو علم أنَّ إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة، أعاد عند أبي حنيفة، خلافًا لمالكٍ والشَّافعي وأحمد في المشهور عنه.

---

(١) لذلك أسانيد عند عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٣٤٦ - ٣٤٩)، وعند ابن أبي شيبة في «المصنف» أيضًا (١/ ٣٩٣)، وأمثلها سندًا ما أخرجه عبد الرزاق من طريق زبيد بن الصلت، قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى الجرف فنظر فإذا هو قد احتلم فصلى ولم يغتسل، فقال: والله ما أراني إلا وقد احتلمت وما شعرت وصليت وما شعرت، قال: فاغتسل وغسل ما رأى في ثوبه، ونضح ما لم ير، ثم أذن وأقام، ثم صلى بعد ما ارتفع الضحى متمكنًا.
وأخرج عبد الرزاق (٣٦٥٠) بسند صحيح أن ابن عمر صلى بأصحابه صلاة العصر وهو على غير وضوء فأعاد ولم يُعد أصحابُه.

وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم، وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع. ولو علم أنَّ إمامه يصلِّي على غير وضوءٍ فليس له أن يصلِّي خلفه، لأنه لاعبٌ، وليس بمصلٍّ.

وقد دلَّت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمَّة أنَّ ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصَّدقة يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإنَّ مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئيَّة.

ولهذا لم يجز للحكَّام أن ينقض بعضهم حكم بعضٍ. والصَّواب المقطوع به صحَّة صلاة بعض هؤلاء خلف بعضٍ.

ويروى عن أبي يوسف: أنه لمَّا حجَّ مع هارون الرَّشيد، فاحتجم الخليفة، وأفتاه مالكٌ بأنَّه لا يتوضَّأ، وصلى بالنَّاس، فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله! أمير المؤمنين. يريد بذلك أنَّ ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع.

وحديث أبي هريرة، الذي رواه البخاري، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**»(١) نصٌّ صحيحٌ صريحٌ في أنَّ الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه، لا على المأموم.

والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجبٍ اعتقد أنه ليس واجبًا، أو فعل محظورًا اعتقد أنه ليس محظورًا.

ولا يحلُّ لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصَّريح الصَّحيح بعد أن يبلغه، وهو حجَّة على من يطلق من الحنفيَّة والشَّافعيَّة والحنبليَّة أنَّ الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصحَّ اقتداؤه به فإنَّ الاجتماع والائتلاف ممَّا يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد.

وقوله: «وعلى من مات منهم» أي: ونرى الصلاة على من مات من الأبرار

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم قريبًا.

والفجَّار، وإن كان يُستثنى من هذا العموم البغاة وقطَّاع الطَّريق، وكذا قاتل نفسه، خلافًا لأبي يوسف، لا الشَّهيد، خلافًا لمالكٍ والشَّافعي - رحمهما الله - على ما عرف في موضعه. لكنَّ الشَّيخ إنَّما ساق هذا لبيان أنَّا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور، لا للعموم الكلِّي.

ولكن المظهرون للإسلام قسمان: إمَّا مؤمنٌ، وإمَّا منافقٌ، فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له، ومن لم يعلم ذلك منه صُلِّيَ عليه. فإذا علم شخصٌ نفاق شخصٍ؛ لم يُصَلِّ هو عليه، وصلى عليه من لم يعلم نفاقه، وكان عمر رضي الله عنه لا يصلِّي على من لم يصلِّ عليه حذيفة؛ لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين، وقد نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الصلاة على المنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره، وعلَّل ذلك بكفرهم بالله ورسوله، فمن كان مؤمنًا بالله ورسوله لم يُنْهَ عن الصلاة عليه، ولو كان له من الذُّنوب الاعتقاديَّة البدعيَّة أو العمليَّة الفجوريَّة ما له، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: الآية ١٩]، فأمره سبحانه بالتَّوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فالتَّوحيد أصل الدِّين، والاستغفار له وللمؤمنين كماله، فالدُّعاء لهم بالمغفرة والرَّحمة وسائر الخيرات، إمَّا واجبٌ وإمَّا مستحبٌّ، وهو على نوعين: عامٌّ وخاصٌّ، أمَّا العامُّ فظاهرٌ، كما في هذه الآية، وأمَّا الدُّعاء الخاصُّ، فالصَّلاة على الميِّت، فما من مؤمنٍ يموت إلَّا وقد أمر المؤمنون أن يصلُّوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له، كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ**»(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (حديث ٣١٩٩)، وابن ماجه (١٤٩٧)، والبيهقي (٤/ ٤٠) وغيرهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نُنَزِّلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا»(١)

الشرح

يريد: أنَّا لا نقول عن أحدٍ معيَّنٍ من أهل القبلة: إنه من أهل الجنَّة أو من أهل النَّار، إلَّا من أخبر الصَّادق ﷺ أنه من أهل الجنَّة، كالعشرة ﷺ، وإن كنَّا نقول: إنه لا بدَّ أن يدخل النَّار من أهل الكبائر من يشاء الله إدخاله النَّار، ثمَّ يخرج منها بشفاعة الشَّافعين، ولكنَّا نقف في الشَّخص المعيَّن، فلا نشهد له بجنَّة ولا نارٍ إلَّا عن علمٍ؛ لأنَّ الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء.

وللسَّلف في الشَّهادة بالجنَّة ثلاثة أقوالٍ:

أحدها: أن لا يشهد لأحدٍ إلَّا للأنبياء، وهذا ينقل عن محمَّد ابن الحنفيَّة، والأوزاعي.

والثاني: أنه يشهد بالجنَّة لكلِّ مؤمنٍ جاء فيه النَّصُّ، وهذا قول كثيرٍ من العلماء وأهل الحديث.

والثَّالث: أنه يشهد بالجنَّة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون، كما في «الصحيحين»: أنه مرَّ بجنازة، فأثنوا عليها بخيرٍ، فقال النبي ﷺ: **«وَجَبَتْ»**، ومرَّ بأخرى، فأثني عليها بشرٍّ، فقال: **«وَجَبَتْ»**.

وفي رواية: كرَّر: **«وَجَبَتْ»** ثلاث مرَّاتٍ، فقال عمر: يا رسول الله، ما وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: **«هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»**(٢).

---

(١) إلا من شهد له الله ورسوله، كالعشرة المبشرين بالجنة وكالحسن والحسين، وبلال، وحمزة، وجعفر، وعمير بن الحمام وغير هؤلاء كعبد الله بن سلام.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٣٦٧)، ومسلم (حديث ٩٤٩) من حديث أَنسٍ ﷺ قَالَ: مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ» وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ»، قَالَ عُمَرُ: فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي، مُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقُلْتَ: =

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ وَلَا بِشِرْكٍ وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى»

الشرح

لأنَّا قد أمرنا بالحكم بالظَّاهر، ونهينا عن الظَّنِّ واتِّباع ما ليس لنا به علمٌ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ الآية [الحُجرات: الآية ١١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحُجرات: الآية ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: الآية ٣٦].

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ»

الشرح

في الصَّحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: **«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»**(١).

* * *

= وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ»**.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٨٧٨)، ومسلم (حديث ١٦٧٦) وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعًا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ فَرِيضَةً، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ»

الشرح

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: الآية ٥٩].

وفي الصَّحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»(١).

وعن أبي ذرٍّ ﷺ. قال: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»(٢).

وعند البخاري: «وَلَوْ لِحَبَشِيٍّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»(٣).

وفي «الصحيحين» أيضًا: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»(٤).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» فَقُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْتَدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٧١٣٧)، ومسلم (حديث ١٨٣٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ١٨٣٧).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٦٩٦)، وفي غير موطن من «صحيحه» من حديث أنس ﷺ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ: «اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ لِحَبَشِيٍّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ».

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٥٥)، (٧١٤٤)، ومسلم (حديث ١٨٣٩)، وغيرهما من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعًا.

ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[(١)].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[(٢)].

وفي رواية: «فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»[(٣)].

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا»[(٤)].

وعن عوف بن مالكٍ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[(٥)].

فقد دلَّ الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر، ما لم يأمروا بمعصية، فتأمَّل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: الآية ٥٩] كيف قال:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، و(٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧) وغيرهما.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣)، ومسلم (حديث ١٨٤٩) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، والترمذي (٢٨٦٣)، وغيرهما من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ عز وجل أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عليه السلام بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ...» فذكر الحديث، وفيه: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ، السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالجِهَادُ وَالهِجْرَةُ وَالجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ...» الحديث، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ١٨٥٥).

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: الآية ٥٩]، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؟ لأنَّ أولي الأمر لا يفردون بالطَّاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله. وأعاد الفعل مع الرَّسول؛ لأنه من يطع الرَّسول فقد أطاع الله، فإنَّ الرَّسول ﷺ لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصومٌ في ذلك، وأمَّا ولي الأمر، فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يطاع إلَّا فيما هو طاعة لله ورسوله.

وأمَّا لزوم طاعتهم وإن جاروا؛ فلأنه يترتَّب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصَّبر على جورهم تكفير السَّيِّئات ومضاعفة الأجور، فإنَّ الله تعالى ما سلَّطهم علينا إلَّا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتَّوبة وإصلاح العمل. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: الآية ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: الآية ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩].

فإذا أراد الرَّعيَّة أن يتخلَّصوا من ظلم الأمير الظَّالم، فليتركوا الظُّلم.

متن الطحاوية

قوله: «وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ وَالْخِلَافَ وَالْفُرْقَةَ»

الشرح

السنة: طريقة الرَّسول ﷺ، والجماعة: جماعة المسلمين، وهم الصَّحابة والتَّابعون لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين؛ فاتِّباعهم هدًى، وخلافهم ضلالٌ، قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: الآية ١١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: الآية ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٥٩].

وثبت في «السُّنن» الحديث الذي صحَّحه الترمذي، عن العرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائلٌ: يا رسول الله، كأنَّ هذه موعظة مودِّع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: **«أُوصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(١).

وقال ﷺ: **«إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً** - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ - **كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»**(٢).

وفي رواية: قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: **«مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»**.

فبيَّن ﷺ أنَّ عامَّة المختلفين هالكون من الجانبين، إلَّا أهل السنة والجماعة.

وما أحسن قول عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، حيث قال: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (حديث ٤٢، ٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦) وغيرهم.

(٢) قد تقدم الكلام عليه.

لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ».

وسيأتي لهذا المعنى بيانٌ إن شاء الله تعالى، عند قول الشَّيخ: «ونرى الجماعة حقًّا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا».

متن الطحاوية

قوله: «وَنُحِبُّ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالأَمَانَةِ، وَنُبْغِضُ أَهْلَ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ»

الشرح

وهذا من كمال الإيمان وتمام العبوديَّة، فإنَّ العبادة تتضمَّن كمال المحبَّة ونهايتها، وكمال الذُّلِّ ونهايته، فمحبَّة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبَّة الله، وإن كانت المحبَّة التي لله لا يستحقُّها غيره، فغير الله يُحبُّ في الله لا مع الله، فإنَّ المحبَّ يحبُّ ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضائه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عمَّا ينهى عنه، فهو موافقٌ لمحبوبه في كلِّ حالٍ.

والله تعالى يحبُّ المحسنين، ويحبُّ المتَّقين، ويحبُّ التَّوَّابين، ويحبُّ المتطهِّرين، ونحن نحبُّ من أحبَّهُ الله.

والله لا يحبُّ الخائنين، ولا يحبُّ المفسدين، ولا يحبُّ المستكبرين، ونحن لا نحبُّهم أيضًا، ونبغضهم؛ موافقة له ﷻ.

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»**(١).

فالمحبَّة التَّامَّة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث رقم ١٦) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٤٣)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا.

ومن المعلوم أنَّ من أحبَّ الله المحبَّة الواجبة فلا بدَّ أن يبغض أعداءه، ولا بدَّ أن يحبَّ ما يحبُّه من جهادهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: الآية ٤].

والحبُّ والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشَّرِّ، فإنَّ العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، والحبُّ والبغض، فيكون محبوبًا من وجه مبغوضًا من وجه، والحكم للغالب، وكذلك حكم العبد عند الله، فإنَّ الله قد يحبُّ الشَّيء من وجه ويكرهه من وجه آخر، كما قال ﷺ، فيما يروي عن ربِّه ﷻ: «**وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ**»(١).

فبيَّن أنه يتردَّد؛ لأنَّ التَّردُّد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحبُّ ما يحبُّ عبده المؤمن، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، كما قال: «**وأنا أكره مساءته**»، وهو سبحانه قضى بالموت، فهو يريد كونه، فسمَّى ذلك تردُّدًا، ثمَّ بيَّن أنه لا بدَّ من وقوع ذلك؛ إذ هو مُفْضٍ إلى ما هو أحبُّ منه.

متن الطحاوية

قوله: «وَنَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ»

الشرح

تقدَّم في كلام الشَّيخ رحمه الله أنه ما سلم في دينه إلَّا من سلَّم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه.

ومن تكلَّم بغير علم فإنَّما يتَّبع هواه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: الآية ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٣، ٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ

---

(١) أخرجه البخاري، وقد تقدم.

ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: الآية ٣٥].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٣].

وقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يردَّ علم ما لم يعلم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الكهف: الآية ٢٦]. ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف: الآية ٢٢] وقد قال ﷺ لمَّا سئل عن أطفال المشركين: «**اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»(١).

متن الطحاوية

قوله: «وَنَرَى الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، كَمَا جَاءَ فِي الأَثَرِ»

الشرح

تواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفَّين وبغسل الرِّجلين، والرَّافضة تخالف هذه السنة المتواترة. فيقال لهم: الَّذين نقلوا عن النبي ﷺ الوضوء قولًا وفعلًا، والَّذين تعلَّموا الوضوء منه وتوضؤوا على عهده وهو يراهم ويقرُّهم، ونقلوه إلى من بعدهم أكثر عددًا من الَّذين نقلوا لفظ هذه الآية، فإنَّ جميع المسلمين كانوا يتوضؤون على عهده، ولم يتعلَّموا الوضوء إلَّا منه، فإنَّ هذا العمل لم يكن معهودًا عندهم في الجاهليَّة، وهم قد رأوه يتوضَّأ ما لا يحصي عدده إلَّا الله تعالى، ونقلوا عنه غسل الرِّجلين في ما شاء الله من الحديث، حتى نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصَّحيح وغيرها أنه قال: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ، وَبُطُونِ الأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ**»(٢).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١٣٨٣، ١٣٨٤)، وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٦٥٩، ٢٦٦٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة وابن عباس ﷺ مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٦٥)، ومسلم (حديث ٢٤٢) من حديث أبي هريرة ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»، وأخرجه البخاري أيضًا (حديث ١٦٣) وكذلك مسلم (حديث ٢٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: رَجَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِمَاءٍ بِالطَّرِيقِ تَعَجَّلَ قَوْمٌ عِنْدَ الْعَصْرِ، فَتَوَضَّؤوا وَهُمْ عِجَالٌ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ وَأَعْقَابُهُمْ تَلُوحُ لَمْ يَمَسَّهَا الْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ**»، أما بلفظ: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ**،=

مع أنَّ الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم كان غسل الجميع كلفة لا تدعو إليها الطِّباع، كما تدعو الطِّباع إلى طلب الرِّياسة والمال، فلو جاز الطَّعن في تواتر صفة الوضوء، لكان في نقل لفظ آية الوضوء أقرب إلى الجواز.

وإذا قالوا: لفظ الآية ثبت بالتَّواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ، فثبوت التَّواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل، ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة، فإنَّ المسح كما يطلق ويراد به الإصابة، كذلك يطلق ويراد به الإسالة، كما تقول العرب: تمسَّحت للصَّلاة، وفي الآية ما يدلُّ على أنه لم يرد بمسح الرِّجلين المسح الذي هو قسيم الغسل، بل المسح الذي الغسل قسمٌ منه، فإنه قال: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ﴾ [المائدة: الآية ٦]، ولم يقل: إلى الكعاب، كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، فدلَّ على أنه ليس في كلِّ رجلٍ كعبٌ واحدٌ، كما في كلِّ يدٍ مرفقٌ واحدٌ، بل في كلِّ رجلٍ كعبان، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمين النَّاتئين، وهذا هو الغسل، فإنَّ من يمسح المسح الخاصَّ يجعل المسح لظهور القدمين، وجعل الكعبين في الآية غاية يردُّ قولهم. فدعواهم أنَّ الفرض مسح الرِّجلين إلى الكعبين - اللَّذين همَّا مجتمع السَّاق والقدم عند معقد الشِّراك - مردودٌ بالكتاب والسنة.

وفي الآية قراءتان مشهورتان: النَّصب والخفض، وتوجيه إعرابهما مبسوطٌ في موضعه. وقراءة النَّصب نصٌّ في وجوب الغسل؛ لأنَّ العطف على المحلِّ إنَّما يكون إذا كان المعنى واحدًا، كقوله:

.... فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وليس معنًى: مسحت برأسي ورجلي - هو معنى: مسحت رأسي ورجلي، بل ذكر الباء يفيد معنى زائدًا على مجرَّد المسح، وهو إلصاق شيءٍ من الماء بالرَّأس، فتعيَّن العطف على قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْۚ﴾ [النّساء: الآية ٤٣].

فالسُّنَّة المتواترة تقضي على ما يفهمه بعض النَّاس من ظاهر القرآن. فإنَّ

= ﴿وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ﴾ فهو عند ابن خزيمة (حديث ١٦٣)، والدارقطني (١/ ٩٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٧٠) من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي ﷺ مرفوعًا.

الرَّسول بيَّن للنَّاس لفظ القرآن ومعناه. كما قال أبو عبد الرَّحمن السُّلمي: حدَّثنا الَّذين كانوا يقرئوننا القرآن: عثمان بن عفَّان، وعبد الله بن مسعودٍ، وغيرهما - أنَّهم كانوا إذا تعلَّموا من النبي ﷺ عشر آياتٍ لم يتجاوزوها حتى يتعلَّموا معناها.

وفي ذكر المسح في الرِّجلين تنبيه على قلَّة الصَّبِّ في الرِّجلين، فإنَّ السَّرف يعتاد فيهما كثيرًا. والمسألة معروفة، والكلام عليها في كتب الفروع.

متن الطحاوية

قوله: «وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا»

الشرح

يشير الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الرَّدِّ على الرَّافضة، حيث قالوا: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرِّضا من آل محمَّدٍ، وينادي منادٍ من السَّماء: اتَّبعوه!! وبطلان هذا القول أظهر من أن يستدلَّ عليه بدليلٍ. وهم شرطوا في الإمام أن يكون معصومًا، اشتراطًا بغير دليلٍ! بل في «صحيح مسلم» عن عوف بن مالكٍ الأشجعي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»**، قَالُوا: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: **«لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»**[1].

وقد تقدَّم بعض نظائر هذا الحديث في الإمامة. ولم يقل: إنَّ الإمام يجب أن يكون معصومًا. والرَّافضة أخسر النَّاس صفقة في هذه المسألة؛ لأنَّهم جعلوا الإمام المعصوم هو الإمام المعدوم، الذي لم ينفعهم في دينٍ ولا دنيا!! فإنَّهم يدَّعون أنَّ الإمام المنتظر، محمَّد بن الحسن العسكري، الذي دخل السِّرداب في زعمهم، سنة ستِّين ومائتين، أو قريبًا من ذلك بسامرَّا! وقد يقيمون هناك دابَّة، إمَّا بغلة، وإمَّا فرسًا، ليركبها إذا خرج! ويقيمون هناك في أوقاتٍ عينوها لمن ينادي

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

عليه بالخروج: يا مولانا، اخرج! يا مولانا، اخرج! ويشهرون السِّلاح؛ ولا أحد هناك يقاتلهم! إلى غير ذلك من الأمور التي يضحك عليهم منها العقلاء!!

وقوله: «مع أولي الأمر برّهم وفاجرهم» لأنَّ الحجَّ والجهاد فرضان يتعلَّقان بالسَّفر، فلا بدَّ من سائسٍ يسوس النَّاس فيهما، ويقاوم العدوَّ، وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البرِّ يحصل بالإمام الفاجر.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُؤْمِنُ بِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: الآية ١١]. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: الآية ٨٠].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: الآية ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: الآية ٢١].

وفي الصَّحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمْ - كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»**(١).

وفي الحديث الآخر: **«إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الْخَلَاءِ وَعِنْدَ الْجِمَاعِ،**

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

فَاسْتَحْيُوهُمْ، وَأَكْرِمُوهُمْ»(١).

جاء في التَّفسير: اثنان عن اليمين وعن الشِّمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشِّمال يكتب السَّيِّئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدٌ من ورائه، وواحدٌ أمامه، فهو بين أربعة أملاكٍ بالنَّهار، وأربعة آخرين باللَّيل بدلًا، حافظان وكاتبان.

وقال عكرمة عن ابن عبَّاسٍ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: الآية ١١] قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلَّوا عنه.

وروى مسلمٌ والإمام أحمد عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ**» قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «**وَإِيَّايَ، وَلَكِنْ أَعَانَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»(٢).

الرِّواية بفتح الميم من «**فَأَسْلَمَ**» ومن رواه «**فَأَسْلَمُ**» برفع الميم فقد حرَّف لفظه. ومعنى «**فَأَسْلَمَ**»، أي: فاستسلم وانقاد لي، في أصحِّ القولين، ولهذا قال: «**فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»، ومن قال: إنَّ الشَّيطان صار مؤمنًا فقد حرَّف معناه، فإنَّ الشَّيطان لا يكون مؤمنًا.

ومعنى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: الآية ١١].

قيل: حفظهم له من أمر الله، أي الله أمرهم بذلك، يشهد لذلك قراءة من قرأ: «يحفظونه بأمر الله».

---

(١) **سنده ضعيف**: أخرجه الترمذي (حديث ٢٨٠٠) من حديث ابْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالتَّعَرِّيَ؛ فَإِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الغَائِطِ وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ**» قلت: وفيه ليث، وهو ابن سليم، وهو ضعيف، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٨١٤) من حديث ابن مسعود مرفوعًا، وعند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها (حديث ٢٨١٥) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلًا، قَالَتْ: فَغِرْتُ عَلَيْهِ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «**مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ أَغِرْتِ؟**» فَقُلْتُ: وَمَا لِي لَا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ**» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ مَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قُلْتُ: وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ**».

ثمَّ قد ثبت بالنُّصوص المذكورة أنَّ الملائكة تكتب القول والفعل.

وكذلك النِّيَّة؛ لأنَّها فعل القلب، فدخلت في عموم: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: الآية ١٢]. ويشهد لذلك قوله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَلَيْهِ سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»[٢]، خرَّجاهما في «الصحيحين»، واللَّفظ لمسلم.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْعَالَمِينَ»

الشرح

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: الآية ١١]. ولا تعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٦١]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: الآية ٤٢] لأنَّ ملك الموت يتولَّى قبضها واستخراجها، ثمَّ يأخذها منه ملائكة الرَّحمة أو ملائكة العذاب، ويتولَّونها بعده، كلُّ ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه، فصحَّت إضافة التَّوفِّي إلى كلٍّ بحسبه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: الآية ٤٢]، ففيها الإخبار بتوفِّيها

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٧٥٠١)، ومسلم (حديث ١٢٨) من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَلَيْهِ سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا».

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ١٢٩) من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا».

وإمساكها وإرسالها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣]ففيها بسط الملائكة أيديهم لتناولها، ووصفها بالإخراج والخروج، والإخبار بعذابها ذلك اليوم، والإخبار عن مجيئها إلى ربِّها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: الآية ٦٠]. ففيها الإخبار بتوفِّي النَّفس باللَّيل، وبعثها إلى أجسادها بالنَّهار، وتوفِّي الملائكة لها عند الموت.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]. ففيها وصفها بالرُّجوع والدُّخول والرِّضا.

وقال ﷺ: «**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ**»(١). ففيه وصفه بالقبض، وأنَّ البصر يراه. وقال ﷺ في حديث بلالٍ: «**قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ**»(٢).

وقال ﷺ: «**نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ**»(٣).

وسيأتي في الكلام على عذاب القبر أدلَّة كثيرة من خطاب ملك الموت لها، وأنَّها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِي السِّقاء، وأنَّها تصعد ويوجد منها من المؤمن كأطيب ريحٍ، ومن الكافر كأنتن ريحٍ، إلى غير ذلك من الصِّفات. وعلى ذلك أجمع السَّلفُ ودلَّ العقل، وليس معَ من خالف سوى الظُّنون الكاذبة، والشُّبه الفاسدة، التي لا يعارض بها ما دلَّ عليه نصوص الوحي والأدلَّة العقليَّة.

وأمَّا اختلاف النَّاس في مسمى النَّفس والرُّوح: هل هما متغايران، أو مسمَّاهما واحدٌ؟ **فالتَّحقيق:** أنَّ النَّفس تطلق على أمورٍ، وكذلك الرُّوح، فيتَّحد مدلولهما تارة، ويختلف تارة.

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٩٢٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٥٩٥) من حديث أبي قَتَادَة.

(٣) **صحيح:** أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٥)، والنسائي (٤/ ١٠٨)، وابن ماجه (٤٢٧١).

فالنَّفس تطلق على الرُّوح، ولكن غالب ما تسمَّى نفسًا إذا كانت متَّصلة بالبدن، وأمَّا إذا أخذت مجرَّدة فتسمية الرُّوح أغلب عليها.

والنَّفس: العين، يقال: أصابت فلانًا نفسٌ، أي عينٌ.

والنَّفس: الذَّات؛ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: الآية ٦١]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: الآية ٢٩] ونحو ذلك.

وأمَّا الرُّوح فلا تطلق على البدن، لا بانفراده، ولا مع النَّفس؛ وتطلق الرُّوح على القرآن وعلى جبريل، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: الآية ٥٢]. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٩٣].

وتطلق الرُّوح على الهواء المتردِّد في بدن الإنسان أيضًا.

وأمَّا ما يؤيِّد الله به أولياءه، فهي روحٌ أخرى، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢].

وكذلك القوى التي في البدن، فإنَّها أيضًا تسمَّى أرواحًا، فيقال: الرُّوح الباصر، والرُّوح السَّامع، والرُّوح الشَّامُّ.

وتطلق الرُّوح على أخصِّ من هذا كله، وهو: قوَّة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبَّته وانبعاث الهمَّة إلى طلبه وإرادته. ونسبة هذه الرُّوح إلى الرُّوح كنسبة الرُّوح إلى البدن، فللعلم روحٌ، وللإحسان روحٌ، وللمحبَّة روحٌ، وللتَّوكُّل روحٌ، وللصِّدق روحٌ.

والنَّاس متفاوتون في هذه الأرواح؛ فمن النَّاس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيًّا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًّا بهيميًّا.

وقد وقع في كلام كثيرٍ من النَّاس أنَّ لابن آدم ثلاثة أنفسٍ: مطمئنَّة، ولوَّامة، وأمَّارة، قالوا: وإنَّ منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: الآية ٢٧]. ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: الآية ٢]. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: الآية ٥٣].

والتَّحقيق: أنَّها نفسٌ واحدة لها صفاتٌ، فهي أمَّارة بالسُّوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوَّامة، تفعل الذَّنب ثمَّ تلوم صاحبها، وتلوم بين الفعل والتَّرك،

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنَّة.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(١).

وقوله: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ...**»(٢) الحديث.

متن الطحاوية

قوله: «وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ فِي قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرَانِ

الشرح

قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور: الآية ٤٥ - ٤٧].

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدُّنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر، لأنَّ كثيرًا منهم مات ولم يعذَّب في الدُّنيا، أو المراد أعمُّ من ذلك.

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا فِي جِنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ، وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسُ، وَمَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ كَفَنِ**

---

(١) **صحيح بمجموع طرقه:** وقد أخرجه أحمد (١/ ٢٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» بتحقيقي (حديث رقم ٢٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) **صحيح:** وقد تقدم.

الجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَذَلِكَ الحَنُوطِ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يعني: عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا؛ فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ خَبِيثَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: الآية ٤٠]، «فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى،

فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٣١]، **«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»**[1].

رواه الإمام أحمد وأبو داود، وروى النسائي وابن ماجه أوَّله، ورواه الحاكم وأبو عوانة الإسفرائيني في «صحيحيهما»، وابن حبَّان.

وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث، وله شواهد من الصَّحيح، فذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن سعيدٍ عن قتادة عن أنسٍ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَولُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»**[2].

قال قتادة: وروي لنا أنه يفسح له في قبره... وذكر الحديث.

وفي «الصحيحين» عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبي ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: **«إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»**، فَدَعَا بِجَرِيدَةٍ رَطْبَةٍ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ وَقَالَ: **«لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»**[3].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥، ٢٩٦)، وأبو داود (حديث ٤٧٥٣) وغيرهما.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (حديث ٢٨٧٠) وغيرهما.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢١٦) وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

وفي «صحيح أبي حاتم» عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ أَوِ الْإِنْسَانُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ...**»[1]، وذكر الحديث . . . إلخ.

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلًا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نَتكلَّم في كيفيَّته، إذ ليس للعقل وقوفٌ على كيفيَّته؛ لكونه لا عهد له به في هذه الدَّار، والشَّرع لا يأتي بما يحيله المعقول، ولكنَّه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإنَّ عود الرُّوح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدُّنيا، بل تعاد الرُّوح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدُّنيا.

فالرُّوح لها بالبدن خمسة أنواعٍ من التَّعلُّق، متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلُّقها به في بطن الأمِّ جنينًا.

الثاني: تعلُّقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثَّالث: تعلُّقها به في حال النَّوم، فلها به تعلُّقٌ من وجه، ومفارقة من وجه.

الرَّابع: تعلُّقها به في البرزخ، فإنَّها وإن فارقته وتجرَّدت عنه فإنَّها لم تفارقه فراقًا كلِّيًّا بحيث لا يبقى لها إليه التفاتٌ البتَّة، فإنه ورد ردُّها إليه وقت سلام المسلِّم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولُّون عنه، وهذا الرَّدُّ إعادة خاصَّة، لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلُّقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلُّقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التَّعلُّق إليه، إذ هو تعلُّقٌ لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا، فالنَّوم أخو الموت، فتأمَّل هذا يزيح عنك إشكالاتٍ كثيرة.

وليس السُّؤال في القبر للرُّوح وحدها، كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روحٍ! والأحاديث الصَّحيحة تردُّ القولين.

---

(١) **إسناده حسن:** أخرجه ابن حبان «موارد الظمآن» (٧٨٠)، والترمذي (حديث ١٠٧١)، وابن أبي عاصم (حديث ٨٦٤) وغيرهم.

وكذلك عذاب القبر يكون للنَّفس والبدن جميعًا باتِّفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النَّفس وتعذَّب مفردة عن البدن ومتَّصلة به.

واعلم أنَّ عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكلُّ من مات وهو مستحقٌّ للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السِّباع أو احترق حتى صار رمادًا ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرَّسول ﷺ مراده من غير غلوٍّ ولا تقصيرٍ، فلا يحمَّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصَّر به عن مراد ما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضَّلال والعدول عن الصَّواب ما لا يعلمه إلَّا الله. بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كلِّ بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كلِّ خطأٍ في الفروع والأصول، ولا سيَّما إن أضيف إليه سوء القصد. والله المستعان.

فالحاصل أنَّ الدُّور ثلاثة: دار الدُّنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكلِّ دارٍ أحكامًا تخصُّها، وركَّب هذا الإنسان من بدنٍ ونفسٍ، وجعل أحكام الدُّنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام النَّاس من قبورهم صار الحكم والنَّعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعًا، فإذا تأمَّلت هذا المعنى حقَّ التَّأمُّل، ظهر لك أنَّ كون القبر روضة من رياض الجنَّة أو حفرة من حفر النَّار مطابقٌ للعقل، وأنه حقٌّ لا مِرْية فيه، وبذلك يتميَّز المؤمنون بالغيب من غيرهم.

ويجب أن يعلم أنَّ النَّار التي في القبر والنَّعيم ليس من جنس نار الدُّنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه التُّراب والحجارة التي فوقه وتحته حتى يكون أعظم حرًّا من جمر الدُّنيا، ولو مسَّها أهل الدُّنيا لم يحسُّوا بها، بل أعجب من هذا أنَّ الرَّجلين يدفنان أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرة من النَّار، وهذا في روضة من رياض الجنَّة، لا يصل من هذا إلى جاره شيءٌ من حرِّ ناره، ولا من هذا إلى جاره شيءٌ من نعيمه، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكنَّ النُّفوس مولعة بالتَّكذيب بما لم تحط به علمًا، وقد أرانا الله في هذه الدَّار من

عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثيرٍ، وإذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيَّبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلَّهم لزالت حكمة التَّكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن النَّاس، كما في الصَّحيح عنه ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ**»(١). ولمَّا كانت هذه الحكمة منتفية في حقِّ البهائم سمعتْ ذلك وأدركتْ.

وللنَّاس في سؤال منكرٍ ونكيرٍ: هل هو خاصٌّ بهذه الأمَّة أم لا؟ ثلاثة أقوالٍ **الثَّالث: التَّوقُّف**، وهو قول جماعة منهم أبو عمر بن عبد البرِّ، فقال: وفي حديث زيد بن ثابتٍ عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا**»(٢) منهم من يرويه: «**تسأل**»، وعلى هذا اللَّفظ يحتمل أن تكون هذه الأمَّة قد خصَّت بذلك، وهذا أمرٌ لا يقطع عليه، ويظهر عدم الاختصاص، والله أعلم.

وكذلك اختلف في سؤال الأطفال أيضًا، وهل يدوم عذاب القبر أو ينقطع؟

جوابه أنه نوعان:

منه ما هو دائمٌ، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: الآية ٤٦]. وكذا في حديث البراء بن عازبٍ في قصَّة الكافر: «**ثمَّ يفتح له بابٌ إلى النَّار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم السَّاعة**»(٣)، رواه الإمام أحمد في بعض طرقه.

والنَّوع الثاني: أنه مدَّة ثمَّ ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الَّذين خفَّت جرائمهم، فيعذَّب بحسب جرمه، ثمَّ يخفَّف عنه، كما تقدَّم ذكره في الممحِّصات العشرة.

وقد اختلف في مستقرِّ الأرواح ما بين الموت إلى قيام السَّاعة:

فقيل: أرواح المؤمنين في الجنَّة، وأرواح الكافرين في النَّار.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت ؓ مرفوعًا، ونحوه عند مسلم أيضًا (٢٨٦٨) من حديث أنس ؓ مرفوعًا، لكن ليس في رواية أنس: «**الذي أسمع**» وإنما هي في حديث زيد بن ثابت مرفوعًا.

(٢) **صحيح**: وهو جزء من حديث زيد بن ثابت المتقدم.

(٣) **صحيح**: وقد تقدم.

وقيل: إنَّ أرواح المؤمنين بِفِنَاءِ الجنَّة على بابها، يأتيهم من رَوْحِهَا ونعيمها ورزقها.

وقيل: على أفنية قبورهم.

وقال مالكٌ: بلغني أنَّ الرُّوح مرسلة، تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله ﷻ، ولم يزيدوا على ذلك.

وقيل: إنَّ أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت: بئرٍ بحضرموت!

وقال كعبٌ: أرواح المؤمنين في علِّيِّين في السَّماء السَّابعة، وأرواح الكافرين في سجِّين في الأرض السَّابعة تحت خدِّ إبليس!

وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت.

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفَّار عن شماله.

قال ابن حزمٍ وغيره: مستقرُّها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

وقال أبو عمر بن عبد البرّ: أرواح الشُّهداء في الجنَّة، وأرواح عامَّة المؤمنين على أفنية قبورهم. وعن ابن شهابٍ أنه قال: بلغني أنَّ أرواح الشُّهداء كطيرٍ خضرٍ معلَّقة بالعرش، تغدو وتروح إلى رياض الجنَّة، تأتي ربَّها كلَّ يومٍ تسلِّم عليه.

وقالت فرقة: مستقرُّها العدم المحض، وهذا قول من يقول: إنَّ النَّفس عرضٌ من أعراض البدن، كحياته وإدراكه! وقولهم مخالفٌ للكتاب والسنة.

وقالت فرقة: مستقرُّها بعد الموت أبدانٌ أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كلُّ روحٍ إلى بدن حيوانٍ يشاكل تلك الرُّوح! وهذا قول التَّناسخيَّة منكري المعاد، وهو قولٌ خارجٌ عن أهل الإسلام كلِّهم. ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلَّة هذه الأقوال والكلام عليها.

ويتلخَّص من أدلَّتها: أنَّ الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوتٍ.

فمنها: أرواحٌ في أعلى علِّيِّين، في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون في منازلهم.

ومنها: أرواحٌ في حواصل طيرٍ خضرٍ، تسرح في الجنَّة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشُّهداء، لا كلِّهم، بل من الشُّهداء من تحبس روحه عن دخول الجنَّة لِدَيْنٍ عليه، كما في «المسند» عن محمد بن عبد الله بن جحشٍ: أنَّ رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: «**الْجَنَّةُ**»، فلمَّا ولَّى، قال: «**إِلَّا الدَّيْنَ، سَارَّنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا**»(١).

ومن الأرواح من يكون محبوسًا على باب الجنَّة، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**رَأَيْتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوسًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ**»(٢).

ومنهم من يكون محبوسًا في قبره، ومنهم من يكون محبوسًا في الأرض.

ومنها: أرواحٌ تكون في تنُّور الزُّناة والزَّواني، وأرواحٌ في نهر الدَّم تسبح فيه وتلقم الحجارة، كلُّ ذلك تشهد له السنة(٣)، والله أعلم.

وأمَّا الحياة التي اختصَّ بها الشَّهيد وامتاز بها عن غيره في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٤] - فهي أنَّ الله تعالى جعل أرواحهم في أجواف طيرٍ خضرٍ. كما في حديث عبد الله بن عبَّاسٍ، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ**» يعني: يوم أحد «**جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ...**»(٤)، الحديث، رواه

---

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٠)، والنسائي (٧/ ٣١٤)، وغيرهما وله شاهد أيضًا عند مسلم من حديث أبي قتادة ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ: أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَيْفَ قُلْتَ؟**» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ ﵇ قَالَ لِي ذَلِكَ**».

(٢) **في سنده مقال:** أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٦، ٥/ ٧)، وابن ماجه (٢٤٣٣) وغيرهما، وفي سنده عبد الملك أبو جعفر وهو مجهول.

(٣) ورد ذلك في حديث سمرة بن جندب عند البخاري (حديث ٧٠٤٧).

(٤) **صحيح لشواهده:** وقد أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٦٦)، وأبو داود (حديث ٢٥٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٨٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الإمام أحمد وأبو داود، وبمعناه في حديث ابن مسعودٍ، رواه مسلمٌ[١].

فإنَّهم لمَّا بذلوا أبدانهم لله ﷻ حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضهم منها في البرزخ أبدانًا خيرًا منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعُّم الأرواح المجرَّدة عنها.

ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طيرٍ، أو كطيرٍ، ونسمة الشَّهيد في جوف طيرٍ. وتأمَّل لفظ الحديثين، ففي «الموطَّأ» أنَّ كعب بن مالكٍ كان يحدِّث أنَّ رسول الله ﷺ، قال: **«إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»**[٢].

فقوله: «نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ» تعمُّ الشَّهيد وغيره، ثمَّ خصَّ الشَّهيد بأن قال: هي في جوف طيرٍ خضرٍ، ومعلومٌ أنَّها إذا كانت في جوف طيرٍ صدق عليها أنَّها طيرٌ، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النَّعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميِّت على فراشه أعلى درجة من كثيرٍ منهم، فله نعيمٌ يختصُّ به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم.

وحرَّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روي في السُّنن[٣]، وأمَّا الشُّهداء فقد شوهد منهم بعد مدةٍ من دفنه كما هو لم يتغيَّر، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدَّة، والله أعلم. وكأنَّه - والله أعلم - كلَّما كانت الشَّهادة أكمل، والشَّهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول.

---

(١) حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه مسلم (١٨٨٧) من طريق مسروق قال: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: **«أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»**.

(٢) **صحيح:** وقد تقدم.

(٣) **صحيح:** أخرج ذلك أحمد في «المسند» (٤/ ٨)، وأبو داود (٢/ ١٨٤)، والنسائي (٣/ ٩١)، وابن ماجه (١٦٣٦) وغيرهم من حديث أوس بن أبي أوس ﷺ مرفوعًا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ»

الشرح

الإيمان بالمعاد ممَّا دلَّ عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السَّليمة، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز، وأقام الدَّليل عليه، وردَّ على منكريه في غالب سور القرآن.

وذلك: أنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلَّهم متَّفقون على الإيمان بالآخرة، فإنَّ الإقرار بالرَّبِّ عامٌّ في بني آدم، وهو فطري، كلُّهم يقرُّ بالرَّبِّ، إلَّا من عاند، كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإنَّ منكريه كثيرون، ومحمَّدٌ ﷺ لمَّا كان خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والسَّاعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفِّي بيَّن تفصيل الآخرة بيانًا لا يوجد في شيءٍ من كتب الأنبياء، ولهذا ظنَّ طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلَّا محمَّدٌ ﷺ، وجعلوا هذا حجَّة لهم في أنه من باب التَّخييل والخطاب الجمهوري!

والقرآن بيَّن معاد النَّفس عند الموت، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضعٍ، وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى، وينكرون معاد الأبدان، ويقول من يقول منهم: إنه لم يخبر به إلَّا محمَّدٌ ﷺ على طريق التَّخييل!! وهذا كذبٌ، فإنَّ القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء، من آدم إلى نوحٍ إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم، فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥].

ولمَّا قال إبليس اللَّعين: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: ٧٩ - ٨١].

وأمَّا نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ

إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: الآية ٨٢]. إلى آخر القصَّة.

وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤١].
وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ الآية [البقرة: الآية ٢٦٠].

وأمَّا موسى عليه السلام، فقال الله تعالى لمَّا ناجاه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥، ١٦].

بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإنَّما آمن بموسى، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣]، إلى قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: الآية ٣٩] إلى قوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: الآية ٤٦].

وقال موسى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦].

وقد أخبر الله في قصَّة البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٣].

وقد أخبر الله أنه أرسل الرُّسل مبشِّرين ومنذرين، في آياتٍ من القرآن، وأخبر عن أهل النَّار أنَّهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧١].

وهذا اعترافٌ من أصناف الكفَّار الدَّاخلين جهنَّم أنَّ الرُّسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا، فجميع الرُّسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدُّنيا والآخرة، فعامَّة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها في الدُّنيا والآخرة.

وأمر نبيَّه أن يقسم به على المعاد، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآيات [سبأ: الآية ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ [يونس: الآية ٥٣].

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: الآية ٧].

وأخبر عن اقترابها، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: الآية ١].

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: الآية ١].

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: الآية ١] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦، ٧].

وذمَّ المكذِّبين بالمعاد، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝٤٥﴾ [يونس: الآية ٤٥].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: الآية ١٨].

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾ [النمل: الآية ٦٦].

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: الآية ٣٨]، إلى أن قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: الآية ٣٩].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾ [غافر: الآية ٥٩].

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩﴾ [الإسراء: ٩٧ - ٩٩].

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ

فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥٢].

فتأمَّل ما أجيبوا به عن كلِّ سؤالٍ على التَّفصيل فإنَّهم قالوا أوَّلًا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٩] فقيل لهم في جواب هذا السُّؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا ربَّ لكم، فهلَّا كنتم خلقًا لا يفنيه الموت، كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟! فإن قلتم: كنَّا خلقًا على هذه الصِّفة التي لا تقبل البقاء، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا؟!

وللحجَّة تقريرٌ آخر، وهو: لو كنتم من حجارة أو حديدٍ أو خلقٍ أكبر منهما، فإنه قادرٌ على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم، وينقلها من حالٍ إلى حالٍ، ومن يقدر على التَّصرُّف في هذه الأجسام - مع شدَّتها وصلابتها - بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها؟ ثمَّ أخبر أنَّهم يسألون سؤالًا آخر بقولهم: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ إذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: الآية ٥١]. فلمَّا أخذتهم الحجَّة، ولزمهم حكمها، انتقلوا إلى سؤالٍ آخر يتعلَّلون به بعلل المنقطع، وهو قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: الآية ٥١].

ومن هذا قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: الآية ٧٨] إلى آخر السورة.

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان، أن يأتي بأحسن من هذه الحجَّة، أو بمثلها، في ألفاظٍ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضع الأدلَّة وصحَّة البرهان - لما قدر، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجَّة بسؤالٍ أورده ملحدٌ، اقتضى جوابًا، فكان في قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: الآية ٧٨] ما وَفى بالجواب، وأقام الحجَّة وأزال الشُّبهة، ولما أراد سبحانه من تأكيد الحجَّة وزيادة تقريرها - فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: الآية ٧٩] فاحتجَّ بالإبداء على الإعادة، وبالنَّشأة الأولى على النَّشأة الأخرى؛ إذ كلُّ عاقلٍ يعلم علما ضروريًّا أنَّ من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثَّانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولمَّا كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه - أتبع ذلك

بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: الآية ٧٩]، فهو عليمٌ بتفاصيل الخلق الأوّل وجزئيَّاته، وموادِّه وصورته، فكذلك الثاني؛ فإذا كان تامَّ العلم، كامل القدرة، كيف يتعذَّر عليه أن يحيي العظام وهي رميمٌ؟

ثمَّ أكَّد الأمر بحجَّة قاهرة، وبرهانٍ ظاهرٍ، يتضمَّن جوابًا عن سؤال ملحدٍ آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بدَّ أن تكون مادَّتها وحاملها طبيعته حارَّة رطبة - بما يدلُّ على أمر البعث، ففيه الدَّليل والجواب معًا فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: الآية ٨٠]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة - من الشَّجر الأخضر الممتلئ بالرُّطوبة والبرودة، فالذي يُخرج الشَّيء من ضدِّه، وتنقاد له موادُّ المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه - هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميمٌ.

ثمَّ أكَّد هذا بأخذ الدِّلالة من الشَّيء الأجلِّ الأعظم على الأيسر الأصغر، فإنَّ كلَّ عاقلٍ يعلم أنَّ من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثيرٍ أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطارٍ فهو على حمل أوقيَّة أشدُّ اقتدارًا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ [يس: الآية ٨١] فأخبر أنَّ الذي أبدع السَّموات والأرض، على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما - أقدر على أن يحيي عظامًا قد صارت رميمًا، فيردَّها إلى حالتها الأولى، كما قال في موضعٍ آخر: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: الآية ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٣]. ثمَّ أكَّد سبحانه ذلك وبيَّنه ببيانٍ آخر، وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره، الذي يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقَّة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بدَّ معه من آلة ومعينٍ، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوِّنه نفس إرادته، وقوله للمكوَّن: «كن»، فإذا هو كائنٌ كما شاءه وأراده.

ثُمَّ ختم هذه الحجَّة بإخباره أنَّ ملكوت كلِّ شيءٍ بيده، فيتصرَّف فيه بفعله وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: الآية ٨٣].

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]. فاحتجَّ سبحانه على أنه لا يتركه مهملًا عن الأمر والنَّهي، والثَّواب والعقاب، وأنَّ حكمته وقدرته تأبى ذلك أشدَّ الإباء، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥]، إلى آخر السورة. فإنَّ من نقله من النُّطفة إلى العلقة، ثمَّ إلى المضغة، ثمَّ شقَّ سمعه وبصره، وركَّب فيه الحواسَّ والقوى، والعظام والمنافع، والأعصاب والرِّباطات التي هي أشدُّه، وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشَّكل والصُّورة، التي هي أتمُّ الصُّور وأحسن الأشكال - كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرَّة ثانية؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سدًى؟ فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته.

فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز، الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل، الذي لا يتوهَّم أوضح منه، ومأخذه القريب، الذي لا تقع الظُّنون على أقرب منه.

وكم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: الآية ٥] إلى أن قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: الآية ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١٢] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١٦].

وذكر قصَّة أصحاب الكهف، وكيف أبقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسيَّة، وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمريَّة، وقال فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: الآية ٢١].

والقول الذي عليه السَّلف وجمهور العقلاء: أنَّ الأجسام تنقلب من حالٍ إلى حالٍ، فتستحيل ترابًا، ثمَّ ينشئها الله نشأة أخرى، كما استحال في النَّشأة الأولى؛ فإنه كان نطفة، ثمَّ صار علقة، ثمَّ صار مضغة، ثمَّ صار عظامًا ولحمًا، ثمَّ أنشأه خلقًا سويًّا، كذلك الإعادة: يعيده الله بعد أن يبلى كله إلَّا عَجْبَ الذَّنب، كما ثبت في

الصَّحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ ابْنُ آدَمَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ**»(١).

فالنَّشأتان نوعان تحت جنسٍ، يتَّفقان ويتماثلان من وجه، ويفترقان ويتنوَّعان من وجه. والمعاد هو الأوَّل بعينه، وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداءة فرقٌ، فعجب الذَّنب هو الذي يبقى، وأمَّا سائره فيستحيل، فيعاد من المادَّة التي استحال إليها. ومعلومٌ أنَّ من رأى شخصًا وهو صغيرٌ، ثمَّ رآه وقد صار شيخًا، علم أنَّ هذا هو ذاك، مع أنه دائمًا في تحلُّلٍ واستحالة. وكذلك سائر الحيوان والنَّبات، فمن رأى شجرة وهي صغيرة، ثمَّ رآها كبيرة، قال: هذه تلك. وليست صفة تلك النَّشأة الثَّانية مماثلة لصفة هذه النَّشأة، حتى يقال: إنَّ الصِّفات هي المغيَّرة، لا سيَّما أهل الجنَّة إذا دخلوها فإنَّهم يدخلونها على صورة آدم، طوله ستُّون ذراعًا، كما ثبت في «الصحيحين»(٢) وغيرهما، وتلك نشأة باقية غير معرَّضة للآفات، وهذه النَّشأة فاسدة معرَّضة للآفات.

وقوله: «وجزاء الأعمال» قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: الآية ٤].

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: الآية ٢٥].
والدِّين: الجزاء، يقال: كما تدين تدان، أي كما تجازِي تجازَى.

وقال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: الآية ١٧]. ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: الآية ٢٦]. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأنعام: الآية ١٦٠]. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٨٩، ٩٠].

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٤٨١٤، ٤٩٣٥)، ومسلم (حديث ٢٢٧١) عقب حديث (٢٩٥٥) وله ألفاظ منها: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَظْمًا لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» قَالُوا: أَيُّ عَظْمٍ هُوَ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**عَجْبُ الذَّنَبِ**»، وآخر عند مسلم أيضًا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ**».

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (مع الفتح ٦/ ٣٦٢)، ومسلم (مع النووي ١٧/ ١٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: الآية ٨٤]. وأمثال ذلك.

وقال ﷺ، فيما يروي عن ربِّه ﷻ، من حديث أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه: **«يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»**(١).

وسيأتي لذلك زيادة بيانٍ عن قريبٍ، إن شاء الله تعالى.

متن الطحاوية

وقوله: «وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ»

الشرح

قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٥ - ١٨] إلى آخر السورة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٦ - ١٥].

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٨].

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩].

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨]،

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٥٧٧) مطولًا من حديث أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يرويه عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: **«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي...»** الحديث.

إلى آخر السورة.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: الآية ١٥]، إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: الآية ١٧].

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٨١].

وروى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»، عن عائشة، أنَّ النبي ﷺ، قال: «**ليس أحدٌ يحاسب يوم القيامة إلَّا هلك**»، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨﴾ [الانشقاق: الآية ٧، ٨]؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَيسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ**»(١).

يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذَّبهم وهو غير ظالمٍ لهم، ولكنَّه تعالى يعفو ويصفح، وسيأتي لذلك زيادة بيانٍ، إن شاء الله تعالى.

وفي الصَّحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُزِيَ بِصَعْقَةِ يَوْمِ الطُّورِ**»(٢).

وهذا صعقٌ في موقف القيامة، إذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذٍ يصعق الخلائق كلُّهم.

فإن قيل: كيف تصنعون بقوله في الحديث: «**إِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا آخِذًا بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ**»(٣).

قيل: لا ريب أنَّ هذا اللَّفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنَّه دخل منه

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ١٠٣) وفي مواطن من «صحيحه»، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) **صحيح:** وقد تقدم.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٢٤١٢) وفي جملة مواطن من «صحيحه»، من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى**»، وأخرجه أيضًا مسلم (بدون ذكر لفظه، حديث ٢٣٧٤).

على الراوي حديثٌ في حديثٍ، فركَّب بين اللَّفظين، فجاء هذان الحديثان هكذا: **أحدهما: «إِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ»**، كما تقدَّم، **والثاني: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(١)، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر، وممَّن نبَّه على هذا أبو الحجَّاج المزِّي، وبعده الشَّيخ شمس الدِّين ابن القيِّم، وشيخنا الشَّيخ عماد الدِّين بن كثيرٍ، رحمهم الله.

وكذلك اشتبه على بعض الرُّواة، فقال: **«فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ ﷻ؟»**(٢) والمحفوظ الذي تواطأت عليه الرِّوايات الصَّحيحة هو الأوَّل، وعليه المعنى الصَّحيح، فإنَّ الصَّعق يوم القيامة لتجلِّي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم، فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلَّى ربُّه للجبل فجعله دكًّا، فجعلت صعقة هذا التَّجلِّي عوضًا عن صعقة الخلائق لتجلِّي الرَّبِّ يوم القيامة، فتأمَّل هذا المعنى العظيم ولا تهمله.

وقوله: «والصِّراط» أي: ونؤمن بالصِّراط، وهو جسرٌ على جهنَّم، إذا انتهى النَّاس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظُّلمة التي دون الصِّراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ رسول الله ﷺ سئل: أين النَّاس يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسَّموات؟ فقال: **«هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ»**(٣).

وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلَّفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسورٍ يمنعهم من الوصول إليهم.

وروى البيهقي بسنده، عن مسروقٍ، عن عبد الله، قال: **«يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...»**، إلى أن قال: **«فَيُعْطَوْنَ نورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ»**، قال: **«فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ فَوْقَ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ حَتَّى يَكُونَ آخِر ذَلِكَ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ**

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»**.

(٢) وانظر أيضًا: «صحيح مسلم» (ص ١٨٤٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم ضمن حديث طويل (٣١٥)، ولكنه من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا.

قَدَمِهِ فَيُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفأُ مَرَّةً إِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ وَإِذَا طُفِئَ قَامَ، قَالَ: فَيَقَالُ لَهُمْ: امْضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ وَيَرْحَلُ رَمَلًا، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ تَجُرُّ يَدٌ وَتَعْلَقُ يَدٌ، وَتجرُّ رِجْلٌ وَتَعْلَقُ رِجْلٌ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ» قال: «فَيَخْلُصُونَ، فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْكِ بَعْدَ أَنْ أَرَانَاكِ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا...»[(١)]، الحديث.

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: الآية ٧١] ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: الآية ٧٢].

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: الآية ٧١]؟ فقال: «ألم تسمعيه» قال[(٢)]: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: الآية ٧٢].

وأشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: الآية ٥٨]. ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ [هود: الآية ٦٦]. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: الآية ٩٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٤١٦ فما بعدها)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٦)، و(٤/ ٥٩٠، ٥٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٤٩٦) من طريق جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ ﵂، أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدُ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**» قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: الآية ٧١] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ قَالَ اللهُ ﷿**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: الآية ٧٢].

وأخرج أحمد (٦/ ٢٨٥) من طريق أُمِّ مُبَشِّرٍ، عَنْ حَفْصَةَ ﵂، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَدْخُلَ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**» قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَلَيْسَ اللَّهُ ﷿ يَقُولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قَالَتْ: فَسَمِعْتَهُ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: الآية ٧٢].

ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الواردين النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًّا، فقد بيّن ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو المرور على الصراط.

وقوله: «والميزان» أي: ونؤمن بالميزان، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

قال: وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧] يحتمل أن يكون ثَمَّ موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله أعلم.

والذي دلّت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان. روى الإمام أحمد، من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ**»، قَالَ: «**فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ**

الرَّحِيمِ»(١).

وهكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، من حديث الليث، زاد الترمذي: «**وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ**».

وفي سياق آخر: «**تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ...**»، الحديث.

وفي هذا السياق فائدة جليلة، وهي: أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»، وَقَالَ: «**اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾** [الكهف: الآية ١٠٥]»(٢).

وروى الإمام أحمد، عن ابن مسعود: أنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»(٣).

وقد وردت الأحاديث أيضًا بوزن الأعمال أنفسها، كما في «صحيح مسلم»، عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ**»(٤)، الحديث.

وفي «**الصحيحين**»، وهو خاتمة كتاب البخاري، قوله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»(٥).

---

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم (١/ ٦، ٥٢٩)، وغيرهم.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) **صحيح بمجموع طرقه:** أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤٢٠، ٤٢١)، وفي «فضائل الصحابة» (١٥٥٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١/ ١١٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١٢٧٩) وهو عنده مرسل فلعله سقط مطبعي، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٧٥) وغيرهم.

(٤) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٢٣).

(٥) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٦٤٠٦)، ومسلم (حديث ٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام!! فإن الله يقلب الأعراض أجساما، كما تقدم، وكما روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَبْشًا أَغْبَرَ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَرَوْنَ أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ، فَيُذْبَحُ وَيُقَالُ: خُلُودٌ لَا مَوْتَ**»(١). ورواه البخاري بمعناه، فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات.

فعلينا الإيمان بالغيب كما أخبرنا الصادق ﷺ، من غير زيادة ولا نقصان.

ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع؛ لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال!! وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا، ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فلا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين. فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه، فتأمل قول الملائكة، لما قال الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله، أن الحوض قبل الميزان، والصراط بعد الميزان.

ففي «الصحيحين»: «**أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ**»(٢).

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٣)، والدارمي (٢/ ٣٢٩) بسند حسن، وله شاهد، وأخرجه البخاري (حديث ٤٧٣٠)، ومسلم (حديث ٢٨٤٩) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ**» زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ: «**فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ**»، وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الْحَدِيثِ «**فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**»، قَالَتْ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: الآية ٣٩]، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٠)، (٦٥٣٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عَنْ =

وجعل القرطبي في «التذكرة» هذه القنطرة صراطًا ثانيًا للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار، والله تعالى أعلم.

متن الطحاوية

قوله: «وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ، لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الْخَلْقِ، وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ فَضْلًا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَدْلًا مِنْهُ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِغَ لَهُ، وَصَائِرٌ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلَى الْعِبَادِ»

الشرح

أما قوله: «إن الجنة والنار مخلوقتان» فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة!! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة! وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث! لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة!! فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضلَّلوا وبدَّعوا مَنْ خالف شريعتهم.

فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣]. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: الآية ٢١].

وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤]. ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: الآية ٢١، ٢٢].

= رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥].

وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في «الصحيحين»، من حديث أنس رضي الله عنه، في قصة الإسراء، وفي آخره: **«ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ»** قَالَ: **«ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ»**[(١)].

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[(٢)].

وتقدم حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وفيه: **«يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ»** قَالَ: **«فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا»**[(٣)]. وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء.

وفي «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ... فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول الله ﷺ: **«رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُمْ بِهِ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُنِي آخُذُ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ، حِينَ رَأَيْتُمُونِي أُقَدِّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ»**[(٤)].

وفي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، عن عبد الله بن عباس، قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ... فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت؟ فقال: **«إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَأُرِيتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»** قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ١٣٧٩)، ومسلم (حديث ٢٨٦٦) وغيرهما.

(٣) **صحيح:** وقد تقدم.

(٤) **صحيح:** أخرجه مسلم (ص ٦١٩).

«يَكْفُرْنَ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ!!»(١).

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس: «وَايْمُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ»(٢).

وفي «الموطأ» و«السنن»، من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي «صحيح مسلم» و«السنن» و«المسند»، من حديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَقَالَ: فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِالْجَنَّةِ، فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّارِ، قَالَ: اذْهَبْ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ سَمِعَ بِهَا، فَأَمَرَ بِهَا، فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ، فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»(٤). ونظائر ذلك في السنة كثيرة.

وأما على قول من قال: إن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٤٢٦).

(٣) **صحيح:** وقد تقدم.

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (حديث ٢٨٢٢) من حديث أنس ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**». أما الحديث المطوّل الذي أورده المصنف فهو عند أبي داود (٤٧٤٤)، والترمذي (حديث ٢٥٦٠)، والنسائي (٧/ ٣، ٤) وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا بسندٍ حسنٍ.

أخرج منها - فالقول بوجودها الآن ظاهر، والخلاف في ذلك معروف.

وأما شبهة من قال: إنها لم تخلق بعد، وهي أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارًا أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: الآية ٨٨] و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٥].

قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: الآية ١١].

فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئًا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورًا أخر فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: الآية ٨٨]، فأُتيتُم من سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما!! فلم توفَّقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وفِّق لذلك أئمة الإسلام. فمن كلامهم: أن المراد: ﴿كُلُّ شَىْءٍ﴾ [القصص: الآية ٨٨] مما كتب الله عليه الفناء والهلاك: ﴿هَالِكٌ﴾ [القصص: الآية ٨٨]، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذلك العرش، فإنه سقف الجنة. وقيل: المراد إلا ملكه. وقيل: إلا ما أريد به وجهه. وقيل: إن الله تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن: الآية ٢٦]، فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: الآية ٨٨]؛ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت. وإنما قالوا ذلك توفيقًا بينها وبين النصوص المحكمة، الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار أيضًا، على ما يذكر عن قريب، إن شاء الله تعالى.

وقوله: «لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان» هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها.

وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة. وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض. وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث! وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم. فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي، يمنعه في المستقبل!! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي!! وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة!! وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربا قادرا فعالا لما يريد، فإنه لم يزل حيا عليما قديرا. ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعا عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكنا لذاته، من غير تجدد شيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكنا له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنعا عليه. فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده.

فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هُود: الآية ١٠٨]، أي غير مقطوع، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

واختلف السلف في هذا الاستثناء: فقيل: معناه إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لِكُلِّهم.

وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف.

وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: هو استثناء استثناه الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه.

وقيل: «إلا» بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف. وسيبويه يجعل «إلا» بمعنى «لكن»، فيكون الاستثناء منقطعا، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا خُلْفَ لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: الآية ١٠٨]. **قالوا:** ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولًا إلا ما شئت. أي سوى ما شئت، أو لكن ما شئت من الزيادة عليه.

وقيل: الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله؛ لا أنهم يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: الآية ٢٤].

وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: الآية ١٦].

ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن «ما» بمعنى «من» أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء. وقيل غير ذلك. وعلى كل تقدير، فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: الآية ٥٤]. وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: الآية ٣٥] وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: الآية ٤٨].

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: الآية ٥٦] وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: الآية ١٠٧] تبين أن المراد من الآيتين واستثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذاك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة، كقوله ﷺ: **«مَنْ يَدْخُل الْجَنَّةَ يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ»**(١).

وقوله: **«يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا»**(٢).

وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: **«يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»**(٣).

وأما أبدية النار ودوامها، فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة نارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي!!

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ، وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: الآية ٨٠، ٨١].

الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها، لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه!! وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جمادا، لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف كما تقدم.

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٨٣٦) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»**.

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٣) **صحيح:** وقد تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها ما يشاء، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمَدًا تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يُخرِج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويُبقي فيها الكفار، بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ رحمه الله.

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان.

وهذان القولان لأهل السنة ينظر في دليلهما:

فمن أدلة القول الأول منهما: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: الآية ١٠٦، ١٠٧] ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: الآية ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: الآية ٢٣].

وهذا القول - أعني القول بفناء النار دون الجنة - منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم.

قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته. وقد قال ﷺ: «**لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١). وفي رواية: «**تَغلب غَضَبِي**». رواه البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٥]. و﴿أَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٠]. و﴿عَقِيمٍ﴾ [الحج: الآية ٥٥]. ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: الآية ٧]. فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته. وقد ثبت في «الصحيح» تقدير يوم

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

القيامة بخمسين ألف سنة(١)، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقا يعذبهم أبد الآباد عذابًا سرمدًا لا نهاية له. وأما أنه يخلق خلقا ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيمًا سرمدًا - فمن مقتضى الحكمة، والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام كله حق مُسَلَّمٌ، لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها - في حال بقائها - أهل التوحيد، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها: قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٣٧].

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٦٥].

﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: الآية ٣٠].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: الآية ٥٧].

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: الآية ٤٨].

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٧].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: الآية ٤٠].

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: الآية ٣٦].

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٥]، أي مقيما لازما.

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٩٨٧) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ...**» الحديث.

مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان، وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما.

وقوله: **«وخلق لهما أهلا»** قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ الآية [الأعراف: الآية ١٧٩]، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءًا ولم يدركه، فقال: «**أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ**»(١). رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ [الإنسان: الآية ٢، ٣]. والمراد الهداية العامة، وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠].

وقوله: **«فمن شاء منهم إلى الجنة فضلًا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلًا منه»** . . . إلخ مما يجب أن يعلم: أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه، وهو العمل الصالح، فإنه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: الآية ١١٢]. وكذلك لا يعاقب أحدا إلا بعد حصول سبب العقاب، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝﴾ [الشورى: الآية ٣٠].

وهو سبحانه المعطي المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. لكن إذا مَنَّ على الإنسان بالإيمان والعمل الصالح، لا يمنعه موجب ذلك أصلا، بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه، وهو العمل الصالح.

ولا ريب أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله، وأما المسببات بعد وجود أسبابها فلا يمنعها بحال، إذا لم تكن أسبابا صالحة، إما

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٦٦٢) (ص ٢٠٥٠)، وأبو داود (٤٧١٣)، والنسائي (٤/ ٥٧) وغيرهم.

لفساد في العمل، وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه، فيكون ذلك لعدم المقتضي، أو لوجود المانع، وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح، وهو لم يعط ذلك ابتداءً حكمة منه وعدلًا، فله الحمد في الحالين، وهو المحمود على كل حال، كل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل، فإن الله تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥٣].

ونحو ذلك. وسيأتي لهذا زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

متن الطحاوية

قوله: «وَالِاسْتِطَاعَةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْفِعْلُ مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَا يُوصَفُ الْمَخْلُوقُ بِهِ، تَكُونُ مَعَ الْفِعْلِ، وَأَمَّا الِاسْتِطَاعَةُ مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالْوُسْعِ وَالتَّمْكِينِ وَسَلَامَةِ الْآلَاتِ فَهِيَ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَبِهَا يَتَعَلَّقُ الْخِطَابُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]

الشرح

الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع ألفاظ متقاربة، وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين، كما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هو قول عامة أهل السنة وهو الوسط، وقالت القدرية والمعتزلة: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل، وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا: لا تكون إلا مع الفعل.

والذي قاله عامة أهل السنة: أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي، وهذه قد تكون قبله، لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي يكون بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم

الأفعال، وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: الآية ٩٧]. فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يُعَاقَبْ أحدٌ على ترك الحج! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٦]. فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب من لم يتق! وهذا معلوم الفساد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: الآية ٤] والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات.

وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: الآية ٤٢]. وكذبهم في ذلك القول، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كذبهم دل أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال، على ما بين تعالى بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: الآية ٩١] إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ [التوبة: الآية ٩٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [النساء: الآية ٢٥].

والمراد: استطاعة الآلات والأسباب.

ومن ذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين: «**صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَستَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَستَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**»(١). وإنما نفى استطاعة الفعل معها.

وأما دليل ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة، فقد ذكروا فيها قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: الآية ٢٠]. والمراد نفي حقيقة القدرة، لا نفي الأسباب والآلات، لأنها كانت ثابتة. وسيأتي لذلك زيادة بيان

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ١١١٧) من حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَستَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَستَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**».

عند قوله: «ولا يطيقون إلا ما كلفهم»، إن شاء الله تعالى.

وما قالته القدرية بناء على أصلهم الفاسد، وهو إقدار الله للمؤمن والكافر والبرّ والفاجر سواء، فلا يقولون: إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان، بل هذا بنفسه رجَّح الطاعة، وهذا بنفسه رجح المعصية! كالوالد الذي أعطى كل واحد من بنيه سيفًا، فهذا جاهد به في سبيل الله، وهذا قطع به الطريق.

وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية، خصه بها دون الكافر، وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر. كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: الآية ٧].

فالقدرية يقولون: إن هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق. والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمن، ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: الآية ٧]. والكفار ليسوا راشدين.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥].

وأمثال هذه الآية في القرآن كثير، يبين أنه سبحانه هدى هذا وأضل هذا. قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: الآية ١٧]. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

وأيضًا فقول القائل: يرجح بلا مرجح - إن كان لقوله: «يرجح» معنى زائد على الفعل، فذاك هو السبب المرجح، وإن لم يكن له معنى زائد كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل، ثم الفعل حصل في إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح! وهذا مكابرة للعقل!! فلما كان أصل قول القدرية: إن فاعل الطاعات وتاركها كلاهما في الإعانة والإقدار سواء - امتنع على أصلهم أن تكون مع الفعل قدرة تخصه؛ لأن القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك، وإنما تكون للفاعل، ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى. وهم لما رأوا أن القدرة لا بد أن تكون قبل

الفعل، قالوا: لا تكون مع الفعل؛ لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك، فلهذا قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل! وهذا باطل قطعًا، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع، بل لا بد أن يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الأمور الوجودية موجودًا عند الفعل. فنقيض قولهم حق، وهو: أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة.

لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين: حزب قالوا: لا تكون القدرة إلا معه، ظنًّا منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين، وظنا من بعضهم أن القدرة عرض، فلا تبقى زمانين، فيمتنع وجودها قبل الفعل.

والصواب: أن القدرة نوعان كما تقدم: نوع مصحح للفعل، يمكن معه الفعل والترك، وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي، وهذه تحصل للمطيع والعاصي، وتكون قبل الفعل، وهذه تبقى إلى حين الفعل، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول: إن الأعراض لا تبقى زمانين، وهذه قد تصلح للضدين، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة، فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة، وضد هذه العجز، كما تقدم.

وأيضًا: فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه. فالشارع ييسر على عباده، ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل عليكم في الدين من حرج، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر بُرْئِهِ، فهذا في الشرع غير مستطيع، لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعًا. فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإن كان الفعل ممكنا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائمًا مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته، ونحو ذلك. فإذا كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة، فكيف يكلف مع العجز؟!

ولكن هذه الاستطاعة - مع بقائها إلى حين الفعل - لا تكفي في وجود الفعل،

ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى تقارن، مثل جعل الفاعل مريدًا، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، والاستطاعة المقارنة يدخل فيها الإرادة الجازمة، بخلاف المشروطة في التكليف، فإنه لا يشترط فيها الإرادة.

فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه. وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد، لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة، لزم وجود الفعل. وعلى هذا ينبني تكليف ما لا يطاق، فإن من قال: القدرة لا تكون إلا مع الفعل - يقول: كل كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق. وما لا يطاق يفسر بشيئين: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أحدًا، ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده، فهذا هو الذي وقع فيه التكليف، كما في أمر العباد بعضهم بعضًا، فإنهم يفرقون بين هذا وهذا، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف! ويأمره إذا كان قاعدًا أن يقوم، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة.

متن الطحاوية

قوله: «وَأَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلْقُ اللَّهِ، وَكَسْبٌ مِنَ الْعِبَادِ»

الشرح

اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية:

فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان الترمذي أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز! وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله!

وقابلتهم المعتزلة، فقالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها، لا تعلق لها بخلق الله تعالى. واختلفوا فيما بينهم: أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا؟!

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة لله

تعالى، والحق ﷻ منفرد بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه. فالجبرية غلوا في إثبات القدر، فنفوا صنع العبد أصلًا، كما غلت المشبهة في إثبات الصفات، فشبهوا. والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى. ولهذا كانوا «مجوس هذه الأمة»، بل أردأ من المجوس، من حيث إن المجوس أثبتت خالقَيْنِ، وهم أثبتوا خالِقِينَ!!

وهدى الله المؤمنين - أهل السنة - لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فكل دليل صحيح يقيمه الجبري، فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار.

وكل دليل صحيح يقيمه القدري فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى - فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم.

وهذا هو الواقع في نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض، والحق يصدق بعضه بعضًا. ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين، ولكنها تتكافأ وتتساقط، ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخرين. ولكن أذكر شيئًا مما استدل به كل من الفريقين، ثم أبين أنه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل:

فمما استدلت به الجبرية، قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]. فنفى الله عن نبيه الرمي، وأثبته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لا صنع للعبد. قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال، بدليل قوله ﷺ: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ**

مِنْهُ وَفَضْلٍ»(١).

ومما استدل به القدرية: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٤]. قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتيب العِوَضِ، كما قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ١٤]. ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: الآية ٧٢]. ونحو ذلك.

فأما ما استدلت به الجبرية - من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] - فهو دليل عليهم؛ لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رميًا، بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، فعلم أن المثبت غير المنفي، وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الحذف، وانتهاؤه الإصابة، وكل منهما يسمى رميًا، فالمعنى حينئذ - والله تعالى أعلم: وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب. وإلا فطرد قولهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى! وما صمت إذ صمت! وما زنيت إذ زنيت! وما سرقت إذ سرقت!! وفساد هذا ظاهر.

وأما ترتب الجزاء على الأعمال، فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة. فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله ﷺ: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**» باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء التي في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ١٤]، ونحوها، باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٤]

---

(١) **صحيح بلفظ قريب:** أخرجه البخاري (حديث ٥٦٧٣)، ومسلم (حديث ٢٨١٦ ص ٢١٦٩ - ٢١٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أيضًا أحمد في «المسند» (حديث ٢/ ٢٥٦) وغيرهم، واللفظ المذكور لأحمد من طريق زياد المخزومي عن أبي هريرة مرفوعًا، وزياد المخزومي متكلم فيه، أما لفظ البخاري فهو من طريق أبي عبيد مولى عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**».

فمعنى الآية: أحسن المصوِّرين المقدِّرين. و«الخلق» يذكر ويراد به التقدير، وهو المراد هنا، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: الآية ١٦] أي الله خالق كل شيء مخلوق، فدخلت أفعال العباد في عموم «كل». وما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم: «كل»، الذي هو صفة من صفاته، يستحيل عليه أن يكون مخلوقًا! وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم «كل»!! وهل يدخل في عموم «كل» إلا ما هو مخلوق؟! فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم، ودخل سائر المخلوقات في عمومها. وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: الآية ٩٦]. ولا نقول إن «ما» مصدرية، أي: خلقكم وعملكم، إذ سياق الآية يأباه؛ لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت، لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتًا إلا بفعلهم، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقًا لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقًا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقًا له، بل الخشب أو الحجر لا غير.

وذكر أبو الحسين البصري إمام المتأخرين من المعتزلة أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري. وذكر الرازي أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه ضروري، وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري، ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة غير مسلّم، بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضروري، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق. فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثًا لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: الآية ٧، ٨]. فقوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: الآية ٨] إثبات للقدر بقوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية. وقوله بعد ذلك: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: الآية ٩، ١٠] إثبات أيضا لفعل العبد، ونظائر ذلك كثيرة.

وهذه شبهة أخرى من شُبَهِ القوم التي فرّقتهم، بل مزقتهم كل ممزق، وهي: أنهم قالوا: كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟ وهذا

السؤال لم يزل مطروقا في العالم على ألسنة الناس، وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته، وعنه تفرقت بهم الطرق: فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة الله تعالى، وطائفة أنكرت الحكم والتعليل، وسدت باب السؤال. وطائفة أثبتت كسبًا لا يعقل! جعلت الثواب والعقاب عليه. وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدور بين قادرين، ومفعول بين فاعلين! وطائفة التزمت الجبر، وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه! وهذا السؤال هو الذي أوجب هذا التفرق والاختلاف.

والجواب الصحيح عنه أن يقال: إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقًا لله تعالى، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها. فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضًا.

يبقى أن يقال: فالكلام في الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب. يقال: هو عقوبة أيضا على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له، وفطره على محبته وتألهه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: الآية ٣٠]. فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه، من محبة الله وعبوديته، والإنابة إليه، عُوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، فإنه صادف قلبًا خاليًا قابلًا للخير والشر، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم يتمكن منه الشر، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: الآية ٢٤]. وقال إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾. وقال الله ﷻ: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجرات: الآية ٤١، ٤٢].

والإخلاص: خلوص القلب من تأله ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته، فخلص لله، فلم يتمكن منه الشيطان. وأما إذا صادفه فارغًا من ذلك، تمكّن منه بحسب فراغه، فيكون جعله مذنبًا مسيئًا في هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص. وهي محض العدل.

فإن قلت: فذلك العدم من خلقه فيه؟ **قيل:** هذا سؤال فاسد، فإن العدم كاسمه، لا يفتقر إلى تعلق التكوين والإحداث به، فإن عدم الفعل ليس أمرًا وجوديًا حتى

يضاف إلى الفاعل، بل هو شر محض، والشر ليس إلى الله سبحانه، كما قال ﷺ في حديث الاستفتاح: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»(١).

وكذا في حديث الشفاعة يوم القيامة، حين يقول الله له: «**يَا مُحَمَّدُ**». فيقول: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»(٢).

وقد أخبر الله تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، فلما تولوه دون الله وأشركوا به معه، عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هذه الولاية والإشراك عقوبة خلوّ القلب وفراغه من الإخلاص. فإلهامه البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور عقوبة على خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: إن كان هذا الترك أمرًا وجوديًا عاد السؤال جذعًا، وإن كان أمرًا عدميًا فكيف يعاقب على العدم المحض؟

قيل: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه، فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو من أسباب الخير، وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها، والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات، لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله فيه عقوبتان:

إحداهما: جعله مذنبًا خاطئًا، وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله، وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتها، لموافقتها شهوته وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات. وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٤٤]. فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية ٤٤]، فهذه العقوبة الثانية.

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

(٢) **صحيح موقوفًا على حذيفة:** أخرجه البزار (٣٤٦٢)، وقد ورد شيء من هذا مرفوعًا عند الحاكم (٤/ ٥٧٣) بسند ضعيف فيه ليث بن أبي سليم، ولفظه: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَدْعُونِي رَبِّي فَأَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ تَبَارَكْتَ لَبَّيْكَ وَحَنَانَيْكَ...**» الحديث، وليس فيه القدر المشار إليه من المصنف.

فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين له محبين له وحده؟ أم ذلك محض جعله في قلوبهم وإلقائه فيها؟

قيل: لا، بل هو محض منته وفضله، وهو من أعظم الخير الذي هو بيده، والخير كله في يديه، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قيل: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم، عاد السؤال وكان منعهم منه ظلمًا، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

قيل: لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالمًا، وإنما يكون المانع ظالمًا إذا منع غيره حقًّا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرَّمه الرب على نفسه وأوجب على نفسه خلافه. وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له، بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالما بمنعه، فمنع الحق ظلم، ومنع الفضل والإحسان عدل. وهو سبحانه العدل في منعه، كما هو المحسن المنان بعطائه.

فإن قيل: فإذا كان العطاء والتوفيق إحسانًا ورحمة، فهلا كان العمل له والغلبة، كما أن رحمته تغلب غضبه؟

قيل: المقصود في هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم، بل هو محض العدل.

وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال، وهلا سوى بين العباد في الفضل؟ وهذا السؤال حاصله: لم تفضل على هذا ولم يتفضل على الآخر؟ وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: الآية ٤].

وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: الآية ٢٩].

ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين وإعطائهم هم أجرًا أجرا، قال: «**هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟**» قَالُوا: لَا، فَقَالَ: «**فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**»(١).

وليس في الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد، حتى أبصر طرفًا يسيرًا من حكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وتخصيصه وحرمانه، وتأمل أحوال محال ذلك، استدل بما علمه على ما لم يعلمه.

ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص، قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: الآية ٥٣]؟ قال تعالى مجيبا لهم: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٣]. فتأمل هذا الجواب، تَرَ في ضمنه أنه سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر، من المحل الذي لا يصلح لغرسها، فلو غرست فيه لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعًا لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤].

فإن قيل: إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد، فإذا لا فعل للعبد أصلًا! **قيل:** العبد فاعل لفعله حقيقة، وله قدرة حقيقة. قال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧]. ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود: الآية ٣٦] وأمثال ذلك.

وإذا ثبت كون العبد فاعلًا، فأفعاله نوعان:

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، فيكون صفة له ولا يكون فعلًا، كحركات المرتعش.

ونوع يكون منه مقارنًا لإيجاد قدرته واختياره، فيوصف بكونه صفة وفعلًا

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٥٥٧) وفي عدة مواطن من «صحيحه» من حديث ابن عمر ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ العَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا إِلَى صَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِينَا القُرْآنَ، فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ: أَيْ رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا؟ قَالَ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: «هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**».

وكسبًا للعبد، كالحركات الاختيارية. والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلًا مختارا، وهو الذي يقدر على ذلك وحده لا شريك له. ولهذا أنكر السلف الجبر، فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز، فلا يكون إلا مع الإكراه، يقال: للأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح، وليس له إجبار الثيب البالغ، أي: ليس له أن يزوِّجها مكرهة.

والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار، لأنه سبحانه خالق الإرادة والمراد قادر أن يجعله مختارًا بخلاف غيره. ولهذا جاء في ألفاظ الشارع: «الجبل» دون «الجبر»، كما قال ﷺ لأشج عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ**»، فَقَالَ: أَخُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا؟ أَمْ خُلُقَيْنِ جُبِلْتُ عَلَيْهِمَا؟ فَقَالَ: «**بَلْ خُلُقَيْنِ جُبِلْتَ عَلَيْهِمَا**»(١) فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ ورسوله. والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختياري. والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفطر والعقول. وإذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم! كان بمنزلة أن يقال: خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم!! فكما أن هذا سبب للموت، فهذا سبب للعقوبة، ولا ظلم فيهما.

فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله تعالى، ومفعول لله تعالى، ليس هو نفس فعل الله. ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: «وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد» أثبت للعباد فعلًا وكسبًا، وأضاف الخلق إلى الله تعالى. والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦].

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٧) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**» ونحوه عند مسلم (حديث ١٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا أيضًا، والحديث بالطول الذي أشار إليه المصنف أخرجه أبو داود (حديث ٥٢٢٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (حديث ٥٣١٣)، والحديث بهذا الطول في سنده عند المذكورين ضعف، ففيه أم أبان بنت الوازع بن زارع لم يوثقها معتبر، وقول الحافظ ابن حجر فيها: مقبولة. يعني مقبولة عند المتابعة وإلا فلينة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ[(١)] وَهُوَ تَفْسِيرُ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، نَقُولُ: لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ، وَلَا تَحَوُّلَ لِأَحَدٍ، وَلَا حَرَكَةَ لِأَحَدٍ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ عَلَى إِقَامَةِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهَا إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. غَلَبَتْ مَشِيئَتُه الْمَشِيئَاتِ كُلَّهَا، وَغَلَبَ قَضَاؤُهُ الْحِيَلَ كُلَّهَا. يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أَبَدًا. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣].

الشرح

فقوله: «لم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون» قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦]. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢].

وعن أبي الحسن الأشعري أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلًا، ثم تردد أصحابه أنه: هل ورد به الشرع أم لا؟ واحتج من قال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان، فإنه تعالى أخبر بأنه لا يؤمن، وأنه سيصلى نارًا ذات لهب، فكان مأمورًا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن. وهذا تكليف بالجمع بين الضدين، وهو محال.

والجواب عن هذا بالمنع: فلا نسلم بأنه مأمور بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة، فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان، فما كلف إلا ما يطيقه كما تقدم في تفسير الاستطاعة. ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: الآية ٣١]. مع عدم علمهم بذلك، ولا للمصورين يوم القيامة: «**أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»، وأمثال ذلك، لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه، بل هو خطاب تعجيز.

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا

---

(١) هذا فيه نظر، فقد يطيق العبد أكثر مما كلفه الله، فكلفنا الله بالحج مرة، وقد يطيق الشخص الحج مرات ومرات، وكذا عموم النوافل وغيرها أيضًا.

بِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦] لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفًا، بل يجوز أن يحمله جبلًا لا يطيقه فيموت. وقال ابن الأنباري: أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه، قال: فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليك، وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه. ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب ولو امتنع يعاقب، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

ومنهم من يقول: يجوز تكليف الممتنع عادة، دون الممتنع لذاته، لأن ذلك لا يتصور وجوده، فلا يعقل الأمر به، بخلاف هذا.

ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه، بخلاف ما لا يطاق للاشتغال بضده، فإنه يجوز تكليفه. وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة في المعنى، لكن كونهم جعلوا ما يتركه العبد لا يطاق لكونه تاركًا له مشتغلًا بضده - بدعة في الشرع واللغة. فإن مضمونه أن فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه! وهم التزموا هذا، لقولهم: إن الطاقة - التي هي الاستطاعة وهي القدرة - لا تكون إلا مع الفعل! فقالوا: كل من لم يفعل فعلًا، فإنه لا يطيقه! وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، وخلاف ما عليه عامة العقلاء، كما تقدمت الإشارة إليه عند ذكر الاستطاعة.

وأما ما لا يكون إلا مقارنًا للفعل، فذاك ليس شرطًا في التكليف، مع أنه في الحقيقة إنما هناك إرادة الفعل. وقد يحتجون بقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: الآية ٢٠]. ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٦٧]. وليس في ذلك إرادة ما سموه استطاعة، وهو ما لا يكون إلا مع الفعل، فإن الله ذمَّ هؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع، ولو أراد بذلك المقارن لكان جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع! فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى، ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم - إما حسدًا لصاحبه، وإما اتباعًا للهوى - لا يستطيعون السمع. وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر، لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع، وليس عنده منه علم(١).

(١) يعني: قول الخضر لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٦٧].

وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقال: إنه لا يستطيع الإحسان إليه، ومن يحبه يقال: إنه لا يستطيع عقوبته، لشدة محبته له، لا لعجزه عن عقوبته، فيقال ذلك للمبالغة، كما تقول: لأضربنه حتى يموت، والمراد الضرب الشديد. وليس هذا عذرًا، فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: الآية ٧١].

وقوله: «ولا يطيقون إلا ما كلفهم»، إلى آخر كلامه، أي: ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه. وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات، و«لا حول ولا قوة إلا بالله» دليل على إثبات القدر. وقد فسرها الشيخ بعدها. ولكن في كلام الشيخ إشكال: فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار، وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهي، وهو قال: «لا يكلفهم إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم». وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد، ولا يصح ذلك، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥]. وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: الآية ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: الآية ٧٨]. فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه، ولكنه تفضل علينا ورحمنا، وخفف عنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. ففي العبارة قلق، فتأمله.

القضاء الكوني القدري، والقضاء الديني الشرعي:

وقوله: «وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره».

يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي، فإن القضاء يكون كونيًا وشرعيًا، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات، ونحو ذلك.

أما القضاء الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

والقضاء الديني الشرعي، في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣].

وأما الإرادة الكونية والدينية، فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ: «ولا يكون إلا ما يريد».

وأما الأمر الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢]. وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٦]، في أحد الأقوال، وهو أقواها.

والأمر الشرعي، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية [النحل: الآية ٩٠].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: الآية ٥٨].

وأما الإذن الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٠٢].

والإذن الشرعي، في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: الآية ٥].

وأما الكتاب الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: الآية ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥].

والكتاب الشرعي الديني، في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: الآية ١٨٣].

وأما الحكم الكوني، ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: الآية ٨٠]. وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١١٢].

والحكم الشرعي، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: الآية ١]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠].

وأما التحريم الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ

﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: الآية ٢٦]. ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٥].

والتحريم الشرعي، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: الآية ٣]. و ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: الآية ٢٣]، الآية.

وأما الكلمات الكونية، ففي قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧]. وفي قوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ**»(١).

والكلمات الشرعية الدينية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤].

وقوله: «**يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبدًا**» الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد، يقتضي قولًا وسطًا بين قولي القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلمًا وقبيحًا يكون منه ظلمًا وقبيحًا، كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم! فإن ذلك تمثيل لله بخلقه! وقياس له عليهم! هو الرب الغني القادر، وهم العباد الفقراء المقهورون. وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم! بل كل ما كان ممكنًا فهو منه - لو فعله - عدل، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي، والله ليس كذلك. فإن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: الآية ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: الآية ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: الآية ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: الآية ١٧] وذلك يدل على نقيض هذا القول.

ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ**

---

(١) تقدم.

بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»(١). فهذا دل على شيئين:

أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم، والممتنع لا يوصف بذلك.

الثاني: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي، والله ليس كذلك. فيقال لهم: هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه.

وأيضًا: فإن قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: الآية ١١٢] قد فسره السلف، بأن الظلم: أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤].

وأيضًا: فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يُؤَمَّنُ مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ [طه: الآية ١١٢] علم أنه ممكن مقدور عليه. وكذا قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق: الآية ٢٨] إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: الآية ٢٩] لم يعن بها نفي ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفى ما هو مقدور عليه ممكن، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم. فعلى قول هؤلاء ليس الله منزهًا عن شيء من الأفعال أصلًا، ولا مقدسًا عن أن يفعله، بل كل ممكن فإنه لا ينزه عن فعله، بل فعله حسن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له!!

والقرآن يدل على نقيض هذا القول، في مواضع، نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له، فعلم أنه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥]. فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثًا، وأنكر على من حسب ذلك، وهذا فعل. وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: الآية ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: الآية ٢٨] إنكار منه على من جوز أن يسوي الله بين هذا وهذا. وكذا قوله: ﴿أَمْ

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية: الآية ٢١] إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيئ قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه.

وروى أبو داود، والحاكم في «المستدرك»، من حديث ابن عباس، وعبادة بن الصامت، وزيد بن ثابت، عن النبي ﷺ: **«لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ»**(١).

وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة! ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل!!

وأسعد الناس به أهل السنة، الذين قابلوه بالتصديق، وعلموا من عظمة الله تعالى وجلاله، قدر نعم الله على خلقه، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزًا، وإما جهلًا، وإما تفريطًا وإضاعة، وإما تقصيرًا في المقدور من الشكر، ولو من بعض الوجوه. فإن حقه على أهل السموات والأرض أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يُكفر، وتكون قوة الحب والإنابة، والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء: جميعها متوجهة إليه، ومتعلقة به، بحيث يكون القلب عاكفًا على محبته وتألهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوسًا على ذكره، والجوارح وقفًا على طاعته.

ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة، ولكن النفوس تشح به، وهي في الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى. وأكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه، وإن أتى به من وجه آخر. فأين الذي لا تقع منه إرادة تزاحم مراد الله وما يحبه منه؟ ومن ذا الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له، ولو في وقت من الأوقات؟ فلو وضع الرب سبحانه عدله على أهل سمواته وأرضه، لعذبهم بعدله، ولم يكن ظالمًا لهم.

وغاية ما يقدر، توبة العبد من ذلك واعترافه، وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالمًا ولو قدر أنه تاب منها. لكن أوجب على نفسه - بمقتضى فضله ورحمته - أنه لا يعذب من تاب، وقد

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٩٩)، وابن ماجه (حديث ٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٢) وغيرهم.

كتب على نفسه الرحمة، فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار، أو يدخل الجنة، كما قال أطوع الناس لربه، وأفضلهم عملا، وأشدهم تعظيمًا لربه وإجلالًا: **«لن ينجي أحدا منكم عمله»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»**(١).

وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته، فقال: **«قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةٍ مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»**(٢).

فإذا كان هذا حال الصديق، الذي هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، فما الظن بسواه؟ بل إنما صار صدِّيقًا بتوفيته هذا المقام حقه، الذي يتضمن معرفة ربه، وحقه وعظمته، وما ينبغي له، وما يستحقه على عبده، ومعرفة تقصيره. فسحقًا وبعدًا لمن زعم أن المخلوق يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها! وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية!! فإن لم يتسع فهمك لهذا، فانزل إلى وطأة النعم، وما عليها من الحقوق، ووازن بين شكرها وكفرها، فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سمواته وأرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم.

متن الطحاوية

قوله: «وَفِي دُعَاءِ الأَحْيَاءِ وَصَدَقَاتِهِمْ مَنْفَعَةٌ لِلأَمْوَاتِ»

الشرح

اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له، والصدقة والحج، على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج، فعن محمد بن الحسن رحمه الله أنه إنما يصل إلى الميت ثواب

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٨٣٤) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٧٠٥) من حديث أبي بكر رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: **«قُلْ: اللَّهُمَّ...»** فذكر الحديث.

النفقة، والحج للحاج. وعند عامة العلماء: ثواب الحج للمحجوج عنه، وهو الصحيح.

واختلف في العبادات البدنية، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر(١): فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها.

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة، لا الدعاء ولا غيره. وقولهم مردود بالكتاب والسنة، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: الآية ٣٩].

وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: الآية ٥٤].

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ**»(٢).

فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه.

واستدل المقتصرون على وصول العبادات التي تدخلها النيابة كالصدقة والحج بأن النوع الذي لا تدخله النيابة بحال، كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن، يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد، ولا ينوب فيه عن فاعله غيره، وقد روى النسائي بسنده، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة**»(٣).

أدلة على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه:

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه، الكتاب والسنة والإجماع

---

(١) لا أعلم دليلًا على وصول ثواب الصلاة، ولا قراءة القرآن ولا الذكر، ثم إن العزو إلى جمهور السلف فيه نظر شديد.

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وليس عنده: «**من بعده**».

(٣) **موقوف صحيح عن ابن عباس** رضي الله عنهما: أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٧٥).

والقياس الصحيح.

أما الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: الآية ١٠] فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء. وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة. وكذا الدعاء له بعد الدفن، ففي «سنن أبي داود»، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ**»[(١)].

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم، كما في «صحيح مسلم»، من حديث بريدة بن الحصيب، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «**السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**»[(٢)].

وفي «صحيحه» أيضًا، عن عائشة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ: كَيْفَ تَقُولُ إِذَا اسْتَغْفَرْتَ لِأَهْلِ الْقُبُورِ؟ قَالَ: «**قُولِي السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**»[(٣)].

وأما وصول ثواب الصدقة، ففي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «**نَعَمْ**»[(٤)].

وفي «صحيح البخاري»، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي تُوُفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا، فَهَلْ يَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِي الْمِخْرَافَ صَدَقَةٌ عَلَيْهَا[(٥)]. وأمثال ذلك كثيرة في السنة.

---

(١) **حسن:** أخرجه أبو داود (٣/ ٥٥٠).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم في «صحيحه» (مع النووي ٧/ ٤٤).

(٣) **صحيح:** أخرجه مسلم (ص ٦٧١).

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ١٣٨٨)، ومسلم (حديث ١٠٠٤).

(٥) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٢٧٥٦).

وأما وصول ثواب الصوم، ففي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ**»(١). وله نظائر في «الصحيح».

ولكنْ أبو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه، لحديث ابن عباس المتقدم. والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع.

وأما وصول ثواب الحج، ففي «صحيح البخاري»، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ**»(٢). ونظائره أيضًا كثيرة.

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدَّيْنِ يسقطه من ذمة الميت، ولو كان من أجنبي، ومن غير تركته.

وكل ذلك جار على قواعد الشرع. وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك، كما لم يمنع من هبة ماله له في حياته، وإبرائه له منه بعد وفاته.

وقد نبَّه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية، يُوَضِّحُهُ: أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية، وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية؟!

والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: الآية ٣٩] قد أجاب العلماء بأجوبة: أصحها جوابان:

أحدهما: أن الإنسان بسعيه وحُسْنِ عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير وتودد إلى الناس، فترحموا عليه، ودعوا له، وأهدوا له ثواب الطاعات، فكان ذلك أثر سعيه، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ١٩٥٢)، ومسلم (حديث ١١٤٧).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ١٨٥٢).

إلى صاحبه في حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تحيط مِنْ ورائهم.

يوضحه: أن الله تعالى جعل الإيمان سببا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه ذلك.

الثاني: وهو أقوى منه: أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى. فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه، وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يبقيه لنفسه.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: الآية ٣٨، ٣٩] آيتان محكمتان، مقتضيتان عدل الرب تعالى:

فالأولى: تقتضي أنه لا يُعَاقِبُ أحدًا بِجُرْمِ غيره، ولا يؤاخذه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا.

والثانية: تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله، ليقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، وهو سبحانه لم يقل: لا ينتفع إلا بما سعى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦]، وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: الآية ٥٤]. على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفي عقوبة العبد بعمل غيره، فإنه تعالى قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾ [يس: الآية ٥٤].

وأما استدلالهم بقوله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ**»[١] فاستدلال ساقط، فإنه لم يقل: انقطع انتفاعه، وإنما أخبر بانقطاع عمله. وأما عمل غيره فهو لعامله، فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل، لا ثواب عمله هو، وهذا كالدَّين يوفيه الإنسان عن غيره، فتبرأ ذمته، لكن ليس له ما وفي به الدين.

وأما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية، فقد شرع النبي ﷺ الصوم عن الميت، كما تقدم، مع أن الصوم لا تجزئ فيه النيابة، وكذلك حديث جابر

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم قريبًا.

ﷺ، قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «**بِسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي**»[١]، رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وحديث الكبشين اللذين قال في أحدهما: «**اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا**»[٢]، وفي الآخر: «**اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ**»[٣]، رواه أحمد. والقربة في الأضحية إراقة الدم، وقد جعلها لغيره.

وكذلك عبادة الحج بدنية، وليس المال ركنا فيه، وإنما هو وسيلة، ألا ترى أن المكي يجب عليه الحج إذا قدر على المشي إلى عرفات، من غير شرط المال. وهذا هو الأظهر، أعني أن الحج غير مركب من مال وبدن، بل بدني محض، كما قد نص عليه جماعة من أصحاب أبي حنيفة المتأخرين.

وانظر إلى فروض الكفايات كيف قام فيها البعض عن الباقين؟

ولأن هذا إهداء ثواب، وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنه، وله أن يعطي أجرته لمن شاء.

وأما استئجار قوم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت!! فهذا لم يفعله أحد من السلف، ولا أمر به أحد من أئمة الدين، ولا رخص فيه. والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف. وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه، مما فيه منفعة تصل إلى الغير. والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله، وهذا لم يقع عبادة خالصة، فلا يكون ثوابه ما يهدى إلى الموتى؛ ولهذا لم يقل أحد إنه يكتري من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك إلى الميت، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه؛ معونة لأهل القرآن على ذلك، كان هذا من جنس الصدقة عنه، فيجوز.

---

(١) **صحيح لشواهده:** أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٦، ٣٦٢)، وأبو داود (٢٨١٠)، والترمذي (١٥٢١) وغيرهم. وللحديث شواهد.
أخرجه مسلم في «صحيحه» (مع النووي ٣/ ١٢١) من حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ. . . فذكرت الحديث وفيه: وَذَبَحَهُ وَقَالَ: «**بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ**». وعدة شواهد أخر انظرها في شرح معاني الآثار للطحاوي (٤/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) **صحيح لشواهده:** أخرجه الطحاوي «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٧٧) وغيره، وانظر للشواهد ما تقدم.

(٣) **صحيح:** وانظر المصادر المتقدمة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وفي «الاختيار»: لو أوصى بأن يُعْطَى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره، فالوصية باطلة؛ لأنه في معنى الأجرة، انتهى.

متن الطحاوية

قوله: «وَاللَّهُ تَعَالَى يَسْتَجِيبُ الدَّعَوَاتِ وَيَقْضِي الْحَاجَاتِ»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠]. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦]. والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم: أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعدا أو قائما. وإجابة الله لدعاء العبد، مسلما كان أو كافرا، وإعطاؤه سؤله من جنس رزقه لهم، ونصره لهم. وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقا، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه، إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك.

وهنا سؤال معروف، وهو: أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى، أو يعطى غير ما سأل؟ وقد أجيب عنه بأجوبة(١)، فيها ثلاثة أجوبة محققة:

أحدها: أن الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقًا، وإنما تضمنت إجابة الداعي، والداعي أعم من السائل، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل. ولهذا قال النبي ﷺ: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا في كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»**(٢).

ففرق بين الداعي والسائل، وبين الإجابة والإعطاء، وهو فرق بالعموم والخصوص، كما أتبع ذلك بالمستغفر، وهو نوع من السائل، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص. وإذا علم العباد أنه قريب يجيب دعوة الداعي، و علموا قربه منهم، وتمكنهم من سؤاله وعلموا علمه ورحمته وقدرته، فدعوه دعاء العبادة في

(١) وصلت الأجوبة إلى أكثر من عشرة وكلها مدلل عليها بأدلة، وقد بسطتها في كتابي «فقه الدعاء».
(٢) **صحيح:** وقد تقدم.

حال، ودعاء المسألة في حال، وجمعوا بينهما في حال، إذ «الدعاء» اسم يجمع العبادة والاستعانة، وقد فسر قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠] بالدعاء الذي هو العبادة، والدعاء الذي هو الطلب. وقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: الآية ٦٠] يؤيد المعنى الأول.

الجواب الثاني: أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين المسؤول، كما فسره النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، أَوْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مِثْلَهَا، أَوْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا**» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «**اللَّهُ أَكْثَرُ**»(١).

فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلا، أو مثله من الخير مؤجلا، أو يصرف عنه من السوء مثله.

الجواب الثالث: أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب، والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب، بل قد يحصل غيره. وهكذا سائر الكلمات الطيبات، من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلب منافع أو دفع مضار، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل، تختلف باختلاف قوته وما يعينها، وقد يعارضها مانع من الموانع. ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب. وكثيرًا ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرًا لِحَسَنَتِهِ، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك، فأجيبت دعوته، فيظن أن السر في ذلك الدعاء، فيأخذه مجردًا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي.

---

(١) **حسن:** أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٨) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ...**» الحديث.

أما الذي أخرجه مسلم فهو بلفظ آخر، فعند مسلم (٢٠٩٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**».

وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا في الوقت الذي ينبغي، فانتفع به، فظن آخر أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب، وكان غالطا.

وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر، فيجاب، فيظن أن السر للقبر، ولم يَدْرِ أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب إلى الله تعالى.

فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحا تاما والساعد ساعدًا قويًّا، والمحل قابلا، والمانع مفقودا، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر.

متن الطحاوية

قوله: «وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ، وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَقَدْ كَفَرَ، وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الْحَيْنِ»

الشرح

كلام حق ظاهر لا خفاء فيه. والحين، بالفتح: الهلاك.

متن الطحاوية

قوله: «وَاللَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى»

الشرح

قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: الآية ١١٩]. ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨]. وقال تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآية ٦٠]. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: الآية ٩٣]. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٦١]. ونظائر ذلك كثيرة.

ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب، والرضا، والعداوة، والولاية، والحب، والبغض، ونحو ذلك من الصفات، التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى. كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات، كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله: «إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المرسلين».

وانظر إلى جواب الإمام مالك رضي الله عنه في صفة الاستواء كيف؟ قال: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ». وروي أيضا عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفًا عليها، ومرفوعًا إلى النبي ﷺ(١).

وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم: «من لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه». ويأتي في كلامه أن الإسلام بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل.

فقول الشيخ رحمه الله: **«لا كأحد من الورى»** نفي التشبيه. ولا يقال: إن الرضا إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام؛ فإن هذا نفي للصفة. وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وإن كان لا يريده ولا يشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله، وإن كان قد شاءه وأراده. فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده، ويكره ويسخط ويغضب لما أراده.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»**(٢).

فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط، كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانًا لا يتعقبه سخط.

---

(١) **لا يصح مرفوعًا**: وقد تقدم الكلام عليه.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٥٤٩)، و(حديث ٧٥١٨)، ومسلم (حديث ٢٨٢٩) وغيرهما.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يجمع الكلام في الصفات في المختصر في مكان واحد، وكذلك الكلام في القدر ونحو ذلك، ولم يعتن فيه بترتيب.

وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيب جواب النبي ﷺ لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين سأله عن الإيمان، فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ...**»[١] الحديث فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك، ثم بالكلام على الملائكة، ثم، وثم، إلى آخره.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُم؛ وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُم، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُم، وَبِغَيْرِ الخَيْرِ يَذْكُرُهُم، ولا نَذْكُرُهُم إِلَّا بِخَيْرٍ، وَحُبُّهُم دِينٌ وإيمَانٌ وإحْسَانٌ، وَبُغْضُهُم كُفْرٌ ونِفَاقٌ وطُغْيَانٌ»

الشرح

يشير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الرد على الروافض والنواصب. وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله، ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى.

كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: الآية ٢٩] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

﴿ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: الآية ١٠].

وقال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: الآيات ٨ - ١٠].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاؤوا من بعدهم، يستغفرون لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء. فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيبًا، بنص القرآن.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: **«لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»**(١). انفرد مسلم بذكر سبِّ خالد لعبد الرحمن، دون البخاري.

فالنبي ﷺ يقول لخالد ونحوه: **«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»**، يعني عبد الرحمن وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وبعد مصالحة النبي ﷺ أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية.

والمقصود أنه نهى من له صحبة آخرًا أن يسب من له صحبة أولًا، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٦٧٣)، ومسلم (ص ١٩٦٧، ١٩٦٨) وغيرهما، وذكر خالدٍ مع عبد الرحمن بن عوف إنما هو عند مسلم.

فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية - وإن كان قبل فتح مكة - فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؟

والسابقون الأولون - من المهاجرين والأنصار - هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

وقيل: إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين، وهذا ضعيف. فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة؛ لأن النسخ ليس من فعلهم، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي، كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر، قال: قيل لعائشة ﵂: إن ناسًا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر! فقالت: وما تعجبون من هذا؟! انقطع عنهم العمل، فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر[1].

وفي «الصحيحين» من حديث عمران بن حصين وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة؟[2]، الحديث.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر، أن النبي ﷺ، قال: «**لَا يَدْخُلِ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»[3].

وقال تعالى: ﴿**لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ**﴾ [التوبة: الآية ١١٧].

ولقد صدق عبد الله بن مسعود ﵁ في وصفهم، حيث قال: «إن الله تعالى نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه،

---

(١) هذا من أوهام المصنف، فالحديث لا يوجد في «صحيح مسلم»، ولم أقف عليه عند غير مسلم أيضًا.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٦٥٠) وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (٢٥٣٥)، ولفظ البخاري في المصدر المشار إليه: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي...**».

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (حديث ٢٤٩٦) من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵁، يَقُولُ: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ، أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَد الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**».

وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيِّه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند اللَّه حسنٌ، وما رأوه سيِّئًا فهو عند اللَّه سيِّئٌ»(١).

فمن أضلُّ ممَّن يكون في قلبه غلٌّ لخيار المؤمنين، وسادات أولياء اللَّه تعالى بعد النَّبيِّين؟ بل قد فضلتهم اليهود والنَّصارى بخصلةٍ، قيل لليهود: من خير أهل ملَّتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنَّصارى: من خير أهل ملَّتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرَّافضة: من شرُّ أهل ملَّتكم؟ قالوا: أصحاب محمَّدٍ!! لم يستثنوا منهم إلَّا القليل، وفيمن سبُّوهم من هو خيرٌ ممَّن استثنوهم بأضعافٍ مضاعفةٍ.

وقوله: «ولا نفرط في حبِّ أحدٍ منهم» أي لا نتجاوز الحدَّ في حبِّ أحدٍ منهم، كما تفعل الشِّيعة، فنكون من المعتدين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: الآية ١٧١].

وقوله: «ولا نتبرَّأ من أحدٍ منهم» كما فعلت الرَّافضة! فعندهم لا ولاء إلَّا ببراءٍ، أي لا يتولَّى أهل البيت حتَّى يتبرَّأ من أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما!! وأهل السُّنَّة يوالونهم كلَّهم، وينزلونهم منازلهم الَّتي يستحقُّونها، بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتَّعصُّب. فإنَّ ذلك كلَّه من البغي الَّذي هو مجاوزة الحدِّ، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الجاثية: الآية ١٧].

وقوله: «وحبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ» لأنَّه امتثالٌ لأمر اللَّه فيما تقدَّم من النُّصوص.

وتسمية حبِّ الصَّحابة إيمانًا مشكلٌ على الشَّيخ رحمه الله؛ لأنَّ الحبَّ عمل القلب، وليس هو التَّصديق، فيكون العمل داخلًا في مسمَّى الإيمان. وقد تقدَّم في كلامه أنَّ الإيمان هو الإقرار باللِّسان والتَّصديق بالجنان، ولم يجعل العمل داخلًا في مسمَّى الإيمان، وهذا هو المعروف من مذهب أبي حنيفة، إلَّا أن تكون هذه التَّسمية مجازًا.

---

(١) **حسن موقوف على ابن مسعود** رضي الله عنه: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩) من طريق عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود.

وقوله: «وبغضهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ» تقدَّم الكلام في تكفير أهل البدع، وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]. وقد تقدَّم الكلام في ذلك.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوَّلًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَفْضِيلًا لَهُ وَتَقْدِيمًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ»

الشرح

اختلف أهل السُّنَّة في خلافة الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل كانت بالنَّصِّ، أو بالاختيار؟ فذهب الحسن البصريُّ وجماعةٌ من أهل الحديث إلى أنَّها ثبتت بالنَّصِّ الخفيِّ والإشارة، ومنهم من قال بالنَّصِّ الجليِّ. وذهب جماعةٌ من أهل الحديث والمعتزلة والأشعريَّة إلى أنَّها ثبتت بالاختيار.

والدَّليل على إثباتها بالنَّصِّ: أخبارٌ:

من ذلك ما أسنده البخاريُّ عن جبير بن مطعمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أتت امرأةٌ النَّبيَّ ﷺ، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنَّها تريد الموت، قال: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**». وذكر له سياقًا آخر، وأحاديث أخر. وذلك نصٌّ على إمامته(١).

وفي «الصحيحين» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها، قالت: دخل عليَّ رسول اللَّه ﷺ في اليوم الَّذي بدئ فيه، فقال: «**ادْعِي لِي أَبَاكِ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا، ثُمَّ قَالَ: يَأْبَى اللهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ**»(٢).

وفي روايةٍ: قال: «**ادْعِي لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، لِأَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا لَا**

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦) وغيرهما.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري بنحوه (حديث ٥٦٦٦) وانظره في كتابي «الصحيح المسند من فضائل الصحابة» (ص ٥٥)، وأخرجه مسلم (حديث ٢٣٨٧) ولفظه عند مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ: «**ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ، وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ**».

يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَخْتَلِفَ الْمُؤْمِنُونَ فِي أَبِي بَكْرٍ»(١).

وأحاديث تقديمه في الصَّلاة مشهورةٌ معروفةٌ، وهو يقول: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»(٢).

وقد روجع في ذلك مرَّةً بعد مرَّةٍ، فصلَّى بهم مدَّة مرض النَّبيِّ ﷺ.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَنَزَعَ مِنْهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ فَلَمْ أَرَ عَبقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ**»(٣).

وفي «الصَّحيح» أنَّه ﷺ قال على منبره: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**»(٤).

وفي «سنن أبي داود» وغيره، من حديث الأشعث عن الحسن عن أبي بكرة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال ذات يوم: «**مَنْ رَأَى مِنْكُم رُؤْيَا؟**» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُزِنْتَ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ وُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَحَ عُمَرُ ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ، فَرَأَيْتُ الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ(٥).

واحتجَّ من قال: لم يُستخلف بالخبر المأثور عن عبد اللَّه بن عمر، عن عمر رضي الله عنهما، أنَّه قال: إنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ من هو خيرٌ منِّي - يعني أبا بكرٍ - وإن لا أَسْتَخْلِفْ، فلم يَسْتَخْلِفْ من هو خيرٌ منِّي - يعني رسول اللَّه ﷺ - قال عبد الله:

---

(١) انظر كل ذلك في كتابنا «الصحيح المسند من فضائل الصحابة».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٧٩)، ومسلم (حديث ٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا ونحوه عند البخاري (حديث ٦٧٨)، ومسلم (حديث ٤٢٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا وله طرق متعددة عن النبي ﷺ، انظرها في كتابنا «الصحيح المسند في فضائل الصحابة».

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٦٦٤، ٧٠٢١)، ومسلم (حديث ٢٣٩٢) وغيرهما.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٤٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٥) **صحيح بمجموع طرقه**: أخرجه أبو داود (٤٦٣٤، ٤٦٣٥)، والترمذي (حديث ٢٢٨٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٥/ ٤٤)، وابن أبي عاصم (١١٣٥) وغيرهم.

فعرفت أنه - حين ذكر رسول الله ﷺ - غير مستخلف[١].

والظَّاهر - واللَّه أعلم - أنَّ المراد أنَّه لم يستخلف بعهدٍ مكتوب، ولو كتب عهدًا لكتبه لأبي بكرٍ، بل قد أراد كتابته ثمَّ تركه، وقال: «**يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ**»[٢].

فكان هذا أبلغ من مجرَّد العهد، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ دلَّ المسلمين على استخلاف أبي بكرٍ، وأرشدهم إليه بأمورٍ متعدِّدةٍ، من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار راضٍ بذلك، حامدٍ له، وعزم على أن يكتب بذلك عهدًا، ثمَّ علم أنَّ المسلمين يجتمعون عليه، فترك الكتاب اكتفاءً بذلك، ثمَّ عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس، ثمَّ لمَّا حصل لبعضهم شك: هل ذلك القول من جهة المرض؟ أو هو قولٌ يجب اتِّباعه؟ ترك الكتابة؛ اكتفاءً بما علم أنَّ اللَّه يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكرٍ.

فلو كان التَّعيين ممَّا يشتبه على الأمَّة لبيَّنه بيانًا قاطعًا للعذر، لكن لمَّا دلَّهم دلالاتٍ متعدِّدةٍ على أنَّ أبا بكرٍ المتعيَّن، وفهموا ذلك، حصل المقصود. ولهذا قال عمر رضي الله عنه في خطبته الَّتي خطبها بمحضرٍ من المهاجرين والأنصار: «أنت خَيْرُنَا وسيِّدنا وأحبُّنا إلى رسول اللَّه ﷺ»، ولم ينكر ذلك منهم أحدٌ، ولا قال أحدٌ من الصَّحابة: إنَّ غير أبي بكرٍ من المهاجرين أحق بالخلافة منه ولم ينازع أحد في خلافته إلا بعض الأنصار، طمعًا في أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، وهذا ممَّا ثبت بالنُّصوص المتواترة عن النَّبيِّ ﷺ بطلانه.

ثمَّ الأنصار كلُّهم بايعوا أبا بكرٍ، إلَّا سعد بن عبادة؛ لكونه هو الَّذي كان يطلب الولاية. ولم يقل أحدٌ من الصَّحابة قطُّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ نصَّ على غير أبي بكرٍ، لا علي، ولا العبَّاس، ولا غيرهما، كما قد قال أهل البدع.

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٢١٨)، ومسلم (حديث ١٨٢٣) وغيرهما، ولفظ مسلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: حَضَرْتُ أَبِي حِينَ أُصِيبَ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهِ، وَقَالُوا: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَالَ: رَاغِبٌ وَرَاهِبٌ، قَالُوا: اسْتَخْلِفْ، فَقَالَ: «أَتَحَمَّلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا، لَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الْكَفَافُ، لَا عَلَيَّ وَلَا لِي، فَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي - يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ - وَإِنْ أَتْرُكْكُمْ فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، رَسُولُ اللهِ ﷺ»، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حِينَ ذَكَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ.

(٢) **صحيح**: وقد تقدم.

وفي الجملة: فجميع من نقل عنه أنَّه طلب تولية غير أبي بكرٍ، لم يذكر حجَّةً دينيَّةً شرعيَّةً، ولا ذكر أنَّ غير أبي بكرٍ أفضل منه، أو أحقُّ بها، وإنَّما نشأ من حبِّ قبيلته وقومه فقط، وهم كانوا يعلمون فضل أبي بكرٍ ﷺ، وحبَّ رسول اللَّه ﷺ له. ففي «الصحيحين»، عن عمرو بن العاص: أنَّ رسول اللَّه ﷺ بعثه على جيش ذات السَّلاسل، فأتيته، فقلت: أيُّ النَّاس أحبُّ إليك؟ قال: **«عَائِشَةُ»**، قلت: من الرِّجال؟ قال: **«أَبُوهَا»**، قلت: ثمَّ من؟ قال: **«عُمَرُ»**، وَعَدَّ رِجَالًا(١).

وفيهما أيضًا، كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ»** فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: **«يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»** ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟»** مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا(٢).

ومعنى غامر: غاضب وخاصم. ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله.

وفي «الصحيحين» أيضًا، عن عائشة ﷺ، أنَّ رسول اللَّه ﷺ مات وأبو بكرٍ بالسُّنح... فذكرت الحديث إلى أن قالت: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة، في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ!، فذهب إليهم أبو بكرٍ الصديق، وعمر بن الخطَّاب، وأبو عبيدة بن الجرَّاح، فذهب عمر يتكلَّم، فأسكته أبو بكرٍ، وكان عمر يقول: واللَّه ما أردت بذلك إلَّا أنِّي هيَّأت في نفسي كلامًا قد أعجبني، خشيت أن لا يبلغه أبو بكرٍ، ثمَّ تكلَّم أبو بكرٍ، فتكلَّم أبلغ النَّاس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا واللَّه لا نفعل، منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، فقال أبو بكرٍ: لا، ولكنَّا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب، وأعزُّهم أحسابًا، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة بن

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٦٦٢)، ومسلم (حديث ٢٣٨٤).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٦٦١، ٤٦٤٠)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٢٩٧).

الجرَّاح، فقال عمر: بل نبايعك، فأنت سيِّدنا وخيرنا وأحبُّنا إلى رسول اللَّه ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه النَّاس، فقال قائلٌ: قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله اللَّه[(١)].

والسُّنح: العالية، وهي حديقةٌ بالمدينة معروفةٌ بها.

متن الطحاوية

قوله: «ثُمَّ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه»

الشرح

أي ونثبت الخلافة بعد أبي بكرٍ لعمر رضي الله عنهما. وذلك بتفويض أبي بكرٍ الخلافة إليه، واتِّفاق الأمَّة بعده عليه؛ وفضائله رضي الله عنه أشهر من أن تنكر، وأكثر من أن تذكر. فقد روي عن محمَّد ابن الحنفيَّة، أنَّه قال: قلت لأبي: يا أبت، من خير النَّاس بعد رسول اللَّه ﷺ؟ فقال: يا بنيَّ، أو ما تعرف؟ فقلت: لا، قال: أبو بكرٍ، قلت: ثمَّ من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول: ثمَّ عثمان، فقلت: ثمَّ أنت؟ فقال: ما أنا إلَّا رجلٌ من المسلمين[(٢)].

وفي «صحيح مسلمٍ»، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: وضع عمر على سريره، فتكنَّفه النَّاس يدعون ويثنون ويصلُّون عليه، قبل أن يرفع، وأنا فيهم، فلم يرعني إلَّا برجلٍ قد أخذ بمنكبي مِنْ ورائي، فالتفتُّ إليه، فإذا هو عليٌّ، فترحَّم على عمر، وقال: ما خلَّفت أحدًا أحبَّ إليَّ أن ألقى اللَّه بمثل عمله منك، وايم اللَّه، إن كنت لأظنُّ أن يجعلك اللَّه مع صاحبيك، وذلك أنِّي كنت كثيرًا ما أسمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»، فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو - أَوْ لَأَظُنُّ - أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَهُمَا[(٣)].

وتقدَّم حديث أبي هريرة رضي الله عنه في رؤيا رسول اللَّه ﷺ، ونزعه من القليب، ثمَّ نَزْعِ أبي بكرٍ، ثمَّ استحالت الدَّلو غَرْبًا، فأخذها ابن الخطَّاب، فلم أرَ عبقريًّا من

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٦٦٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٦٧١).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٦٨٥)، وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٣٨٩).

النَّاس ينزع نَزْعَ عمر حتَّى ضرب النَّاس بعطنٍ[(١)].

وفي «الصحيحين»، من حديث سعد بن أبي وقَّاصٍ، قال: «استأذن عمر بن الخطَّاب على رسول اللَّه ﷺ، وعنده نساءٌ من قريشٍ يكلِّمنه عاليةً أصواتهنَّ...» الحديث، وفيه: فقال رسول اللَّه ﷺ: **«إيهًا يا بْنَ الْخَطَّاب، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»**[(٢)].

وفي «الصحيحين» أيضًا، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: **«قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ»**[(٣)].

قال ابن وهبٍ: تفسير «محدَّثون»: مُلْهَمُونَ.

متن الطحاوية

قوله: «ثُمَّ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»

الشرح

أي ونثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما، وقد ساق البخاريُّ رحمه الله قصَّة قتل عمر رضي الله عنه، وأمر الشُّورى والمبايعة لعثمان في «صحيحه»[(٤)]، فأحببت أن أسردها، كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمونٍ، قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بالمدينة بأيَّامٍ، ووقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيفٍ، فقال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا قد حمَّلتما الأرض ما لا تطيق، قالا: حمَّلناها أمرًا هي له مطيقةٌ، ما فيها كثير فضلٍ، قال: انظرا أن تكونا حمَّلتما الأرض ما لا تطيق، قالا: لا، فقال عمر: لئن سلَّمني اللَّه لأدعنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجلٍ بعدي أبدًا، قال: فما أتت عليه إلا رابعةٌ حتَّى أصيب.

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٦٨٣) وفي غير موطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٢٣٩٦).

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٦٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وأخرجه مسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

(٤) **صحيحة:** وهي عند البخاري (٣٧٠٠).

قال: إنِّي لقائمٌ ما بيني وبينه إلَّا عبد اللَّه بن عبَّاسٍ غداة أصيب، وكان إذا مرَّ بين الصَّفَّين قال: استووا، حتَّى إذا لم ير فيهنَّ خللًا تقدَّم فكبَّر، وربَّما قرأ سورة يوسف، أو النَّحل، أو نحو ذلك في الرَّكعة الأولى، حتَّى يجتمع النَّاس، فما هو إلَّا أن كبَّر، فسمعته يقول: قتلني - أو أكلني - الكلب حين طعنه، فطار العِلْجُ بسكِّينٍ ذات طرفين، لا يمرُّ على أحدٍ يمينًا ولا شمالًا إلَّا طعنه، حتَّى طعن ثلاثة عشر رجلًا، مات منهم سبعةٌ، فلمَّا رأى ذلك رجلٌ من المسلمين، طرح عليه برنسًا، فلمَّا ظنَّ العلج أنَّه مأخوذٌ، نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرَّحمن بن عوفٍ، فقدَّمه، فمن يلي عمر فقد رأى الَّذي أرى، وأمَّا نواحي المسجد، فإنَّهم لا يدرون غير أنَّهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان اللَّه، سبحان اللَّه، فصلَّى بهم عبد الرَّحمن صلاةً خفيفةً.

فلمَّا انصرفوا، قال: يا بن عبَّاسٍ، انظر من قتلني؟ فجال ساعةً، ثمَّ جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصَّنَعُ؟ قال: نعم، قال: قاتله اللَّه! لقد أمرت به معروفًا! الحمد للَّه الَّذي لم يجعل منيَّتي على يد رجلٍ يدَّعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبَّان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العبَّاس أكثرهم رقيقًا، فقال: إن شئت فعلت؛ أي: إن شئت قتلنا؛ قال: كذبت، بعد ما تكلَّموا بلسانكم، وصلُّوا قبلتكم، وحجُّوا حجَّكم؟ فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأنَّ النَّاس لم تصبهم مصيبةٌ قبل يومئذٍ، فقائلٌ يقول: لا بأس عليه، وقائلٌ يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذٍ فشربه، فخرج من جوفه، ثمَّ أتي بلبنٍ فشربه، فخرج من جوفه، فعرفوا أنَّه ميِّتٌ، فدخلنا عليه، وجاء النَّاس يثنون عليه، وجاء رجلٌ شابٌّ، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى اللَّه لك، من صحبة رسول اللَّه ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثمَّ وليت فعدلت، ثمَّ شهادةٌ، قال: وددت أنَّ ذلك كفاف، لا عليَّ ولا لي، فلمَّا أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرض، قال: ردُّوا عليَّ الغلام، قال: يا بن أخي، ارفع ثوبك، فإنَّه أنقى لثوبك، وأتقى لربِّك، يا عبد اللَّه بن عمر، انظر ما عليَّ من الدَّين، فحسبوه، فوجدوه ستَّةً وثمانين ألفًا ونحوه، قال: إن وَفَّى له مال آل عمر، فأدِّه من أموالهم، وإلَّا فسل في بني عديِّ بن كعبٍ، فإن لم تفِ أموالهم، فسل في قريشٍ، ولا تعدهم إلى غيرهم، فأدِّ عنِّي هذا المال، انطلق إلى عائشة أمِّ المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السَّلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإنِّي لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل: يستأذن عمر بن الخطَّاب أن يدفن مع صاحبيه،

فسلَّم واستأذن، ثمَّ دخل عليها، فوجدها قاعدةً تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطَّاب السَّلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنَّ به اليوم على نفسي، فلمَّا أقبل، قيل: هذا عبد اللَّه بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجلٌ إليه، قال. ما لديك؟ قال: الَّذي تحبُّ يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد للَّه، ما كان شيءٌ أحب إليَّ من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثمَّ سلِّم فقل: يستأذن عمر بن الخطَّاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردَّتني فردُّوني إلى مقابر المسلمين، وجاءت أمُّ المؤمنين حفصة والنِّساء تسير معها، فلمَّا رأيناها قمنا، فولجت عليه، فبكت عنده ساعةً، واستأذن الرِّجال، فولجت داخلًا لهم، فسمعنا بكاءها من الدَّاخل، فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف. قال: ما أجد أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النَّفر أوِ الرَّهط الَّذين تُوفِّي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمَّى عليًّا، وعثمانَ، والزُّبيرَ، وطلحةَ، وسعدًا، وعبد الرَّحمن، وقال: يشهدكم عبد اللَّه بن عمر، وليس له من الأمر شيءٌ - كهيئة التَّعزية له - فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك، وإلَّا فليستعن به أيُّكم ما أمِّر، فإنِّي لم أعزله من عجزٍ ولا خيانةٍ.

وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأوَّلين أن يعرف لهم حقَّهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا، الَّذين تبوؤوا الدَّار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يتجاوز عن مسيئهم. وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا، فإنَّهم ردْءُ الإسلام، وجباة الأموال، وغيظ العدوِّ، أن لا يؤخذ منهم إلَّا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيرًا، فإنَّهم أصل العرب، ومادَّة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم، وتردَّ على فقرائهم، وأوصيه بذمَّة اللَّه وذمَّة رسوله، أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلَّفوا إلَّا طاقتهم.

فلمَّا قبض خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلَّم عبد اللَّه بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطَّاب، قالت: أدخلوه، فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه، فلمَّا فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرَّهط، فقال عبد الرَّحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثةٍ منكم، قال الزُّبير: قد جعلت أمري إلى عليٍّ، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعدٌ: قد جعلت أمري إلى عبد الرَّحمن بن عوفٍ، فقال عبد الرَّحمن: أيُّكما تبرَّأ من هذا الأمر فنجعله إليه؟ واللَّه عليه والإسلام لينظرنَّ

أفضلهم في نفسه، فأسكت الشَّيخان، فقال عبد الرَّحمن: أفتجعلونه إليَّ؟ واللَّه عليَّ أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما، فقال: لك قرابةٌ من رسول اللَّه ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فاللَّه عليك، لئن أمَّرتك لتعدلنَّ؟ ولئن أمَّرت عثمان لتسمعنَّ ولتطيعنَّ؟ ثمَّ خلا بالآخر، فقال له مثل ذلك، فلمَّا أخذ الميثاق، قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له عليٌّ، وولج أهل الدَّار فبايعوه[(١)].

وعن حميد بن عبد الرَّحمن، أنَّ المسور بن مخرمة أخبره، أنَّ الَّذين ولَّاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا، قال لهم عبد الرَّحمن: لست بالَّذي أنافسكم عن هذا الأمر، ولكنَّكم إن شئتم اخترت لكم منكم؟ فجعلوا ذلك إلى عبد الرَّحمن، فلمَّا ولَّوا عبد الرَّحمن أمرهم، مال النَّاس إلى عبد الرَّحمن، حتَّى ما أرى أحدًا من النَّاس يتبع أولئك الرَّهط ولا يطأ عقبه، ومال النَّاس على عبد الرَّحمن يشاورونه تلك اللَّيالي، حتَّى إذا كانت تلك اللَّيلة الَّتي أصبحنا فيها فبايعنا عثمان، قال المسور بن مخرمة: طرقني عبد الرَّحمن بعد هجعٍ من اللَّيل، فضرب الباب حتَّى استيقظت، فقال: أراك نائمًا؟! فواللَّه ما اكتحلت هذه الثَّلاث بكبير نوم، انطلق فادع لي الزُّبير وسعدًا، فدعوتهما له، فشاورهما ثمَّ دعاني، فقال: ادع لي عليًّا، فدعوته، فناجاه حتَّى ابهارَّ اللَّيل، ثمَّ قام عليٌّ من عنده وهو على طمعٍ، وقد كان عبد الرَّحمن يخشى من عليٍّ شيئًا، ثمَّ قال: ادع لي عثمان، فدعوته، فناجاه حتَّى فرَّق بينهما المؤذِّن بالصُّبح، فلمَّا صلَّى النَّاس الصُّبح، واجتمع أولئك الرَّهط عند المنبر، أرسل إلى من كان حاضرًا من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد، وكانوا وافوا تلك الحجَّة مع عمر، فلمَّا اجتمعوا تشهَّد عبد الرَّحمن، ثمَّ قال: أمَّا بعد، يا عليُّ، إنِّي قد نظرت في أمر النَّاس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلنَّ على نفسك سبيلًا، فقال لعثمان: أبايعك على سنَّة اللَّه ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرَّحمن، وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون[(٢)].

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصَّة: كونه خَتَنَ رسول اللَّه ﷺ على ابنتيه.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٧٠٠).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٧٢٠٧).

وفي «صحيح مسلم»، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ، أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسَوَّى ثِيَابَهُ فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقَالَ: **«أَلَا أَسْتَحِيي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِيي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟»**[(١)].

وفي «الصَّحيح»: لمَّا كان يوم بيعة الرِّضوان، وأنَّ عثمان رضي الله عنه كان قد بعثه النَّبيُّ ﷺ إلى مكَّة، وكانت بيعة الرِّضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكَّة، فقال رسول اللَّه ﷺ بيده اليمنى: **«هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ»**، فضرب بها على يده، فقال: **«هَذِهِ لِعُثْمَانَ»**[(٢)].

متن الطحاوية

قوله: «ثُمَّ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه»

الشرح

أي: وتثبت الخلافة بعد عثمان لعليٍّ رضي الله عنه. لمَّا قتل عثمان وبايع النَّاس عليًّا صار إمامًا حقًّا واجب الطَّاعة، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوَّةٍ، كما دلَّ عليه حديث سفينة المتقدِّم ذكره، أنَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ»**[(٣)].

وكانت خلافة أبي بكرٍ الصِّدِّيق سنتين وثلاثة أشهرٍ، وخلافة عمر عشر سنين ونصفًا، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنةً، وخلافة عليٍّ أربع سنين وتسعة أشهرٍ، وخلافة الحسن ستَّة أشهرٍ.

وأوَّل ملوك المسلمين معاوية رضي الله عنه، وهو خير ملوك المسلمين، لكنَّه إنَّما صار

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في «صحيحه» (حديث ٢٤٠١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٦٩٨) في ثنايا حديث طويل شيئًا ما.

(٣) تقدم قريبًا.

إمامًا حقًّا لمَّا فوَّض إليه الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه الخلافة، فإنَّ الحسن رضي الله عنه بايعه أهل العراق بعد موت أبيه، ثمَّ بعد ستَّة أشهرٍ فوَّض الأمر إلى معاوية، فظهر صدق قول النَّبيِّ ﷺ: **«إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»**[1]. والقصَّة معروفةٌ في موضعها.

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه، بمبايعة الصَّحابة، سوى معاوية مع أهل الشَّام.

والحقُّ مع عليٍّ رضي الله عنه، فإنَّ عثمان رضي الله عنه لمَّا قُتِلَ كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصَّحابة كعليٍّ وطلحة والزُّبير، وعظمت الشُّبهة عند من لم يعرف الحال، وقويت الشَّهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض، ممَّن بعدت داره من أهل الشَّام، ويحمي اللَّه عثمان أن يظنَّ بالأكابر ظنون سوءٍ، ويبلغه عنهم أخبارٌ، منها ما هو كذبٌ، ومنها ما هو محرفٌ، ومنها ما لم يعرف وجهه، وانضمَّ إلى ذلك أهواء قومٍ يحبُّون العلوَّ في الأرض. وكان في عسكر عليٍّ رضي الله عنه من أولئك الطُّغاة الخوارجِ، الَّذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجَّةٌ بما فعله، ومن في قلبه نفاقٌ لم يتمكَّن من إظهاره كلِّه.

ورأى طلحة والزُّبير أنَّه إن لم يُنتصر للشَّهيد المظلوم، ويقمع أهل الفساد والعدوان، وإلَّا استوجبوا غضب اللَّه وعقابه. فجرت فتنة الجمل على غير اختيارٍ من عليٍّ، ولا من طلحة والزُّبير، وإنَّما أثارها المفسدون بغير اختيار السَّابقين.

ثمَّ جرت فتنة صفِّين لرأيٍ، وهو أنَّ أهل الشَّام لم يعدل عليهم، أو لا يتمكَّن من العدل عليهم وهم كافُّون، حتَّى يجتمع أمر الأمَّة، وأنَّهم يخافون طغيان مَنْ في العسكر كما طغوا على الشَّهيد المظلوم، وعليٌّ رضي الله عنه هو الخليفة الرَّاشد المهديُّ الَّذي تجب طاعته، ويجب أن يكونوا مجتمعين عليه، فاعتقد أنَّ الطَّاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم، بطلب إمامٍ، فاعتقد أنَّه يحصل به أداء الواجب، ولم يعتقد أنَّ التَّأليف لهم كتأليف المؤلَّفة قلوبهم على عهد النَّبيِّ ﷺ والخليفتين من بعده ممَّا يسوغ، فحمله ما رآه من أنَّ الدِّين إقامة الحدِّ عليهم،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٧٤٦).

ومنعهم من الإثارة، دون تأليفهم - على القتال، وقعد عن القتال أكثر الأكابر، لما سمعوه من النُّصوص في الأمر بالقعود في الفتنة، ولما رأوه من الفتنة الَّتي تربو مفسدتها على مصلحتها. ونقول في الجميع بالحسنى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: الآية ١٠].

والفتن الَّتي كانت في أيَّامه قد صان اللَّه عنها أيدينا، فنسأل اللَّه أن يصون عنها ألسنتنا، بِمَنِّه وكرمه.

ومن فضائل أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ما في «الصحيحين»، عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ لعليٍّ: **«أنت مِنِّي بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي»**.

وقال ﷺ يوم خيبر: **«لأعطينَّ الرَّاية غدًا رجلًا يحبُّ اللَّه ورسوله، ويحبُّه اللَّه ورسوله»**، قال: فتطاولنا لها، فقال: **«ادعوا لي عليًّا»**، فأتي به أرمد، فبصق في عينيه، ودفع الرَّاية إليه، ففتح اللَّه عليه.

ولمَّا نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٦١]، دعا رسول اللَّه ﷺ عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: **«اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي»**(١).

---

(١) كل ذلك في حديث واحد عند مسلم (ص ١٨٧١) في طرق (حديث ٢٤٠٤) من طريق عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَمَرَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ سَعْدًا فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسُبَّ أَبَا التُّرَابِ؟ فَقَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتُ ثَلَاثًا قَالَهُنَّ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَنْ أَسُبَّهُ، لَأَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ، خَلَّفَهُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، خَلَّفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلَّا أَنَّهُ لَا نُبُوَّةَ بَعْدِي؟»**. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ **«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»** قَالَ: فَتَطَاوَلْنَا لَهَا فَقَالَ: **«ادْعُوا لِي عَلِيًّا»** فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٦١] دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: **«اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي»**.

وبعض أجزاء هذا الحديث في **«الصحيحين»** أيضًا: من طريق صحابة آخرين، انظر كل ذلك في كتابنا «الصحيح المسند من فضائل الصحابة».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَهُمُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَالْأَئِمَّةُ الْمَهْدِيُّونَ»

الشرح

تقدَّم الحديث الثَّابت في السُّنن، وصحَّحه التِّرمذيُّ، عن العرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول اللَّه ﷺ موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائلٌ: يا رسول اللَّه، كأنَّ هذه موعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: **«أُوصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(١).

وترتيب الخلفاء الرَّاشدين رضي الله عنهم أجمعين في الفضل، كترتيبهم في الخلافة.

وقد روي عن أبي حنيفة تقديم عليٍّ على عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على عليٍّ، وعلى هذا عامَّة أهل السُّنَّة.

وقد تقدَّم قول عبد الرَّحمن بن عوفٍ لعليٍّ رضي الله عنهما: إنِّي قد نظرت في أمر النَّاس فلم أرهم يعدلون بعثمان.

وقال أيُّوب السِّختيانيُّ: من لم يقدِّم عثمان على عليٍّ فقد أَزْرَى بالمهاجرين والأنصار.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر، قال: كنَّا نقول ورسول اللَّه ﷺ حيٌّ: أفضل أمَّة النَّبيِّ ﷺ بعده أبو بكرٍ، ثمَّ عمر، ثمَّ عثمان(٢).

***

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٦٥٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٥٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٩٢) وغيرهم، والأثر ليس في «صحيح مسلم».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَإِنَّ الْعَشَرَةَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَشَّرَهُمْ بِالْجَنَّةِ، نَشْهَدُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ عَلَى مَا شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ، وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدٌ، وَسَعِيدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَهُوَ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ رضي الله عنهم أجمعين»

الشرح

تقدَّم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة. ومن فضائل السِّتَّة الباقين من العشرة رضي الله عنهم أجمعين ما رواه مسلمٌ: عن عائشة رضي الله عنها: أرق رسول اللَّه ﷺ ذات ليلةٍ، فقال: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ»، قَالَتْ: وَسَمِعْنَا صَوْتَ السِّلَاحِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ هَذَا؟» قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ أَحْرُسُكَ وفي لفظٍ آخر: وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوفٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ نَامَ(١).

وفي «الصحيحين»: أنَّ رسول اللَّه ﷺ جمع لسعد بن أبي وقَّاصٍ أبويه يوم أحدٍ، فقال: «ارْمِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»(٢).

وفي «صحيح مسلم»: عن قيس بن أبي حازمٍ، قال: رأيت يد طلحة الَّتي وقى بها النَّبيَّ ﷺ يوم أحدٍ قد شلَّت(٣).

وفيه أيضًا عن أبي عثمان النَّهديِّ، قال: لم يبق مع رسول اللَّه ﷺ في بعض تلك الأيَّام الَّتي قاتل فيها النَّبيُّ ﷺ غير طلحة وسعدٍ(٤).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠) وله عنده ألفاظ متقاربة.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٥٩)، ومسلم (٢٤١١)، من حديث عليٍّ رضي الله عنه قَالَ: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ: «يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» وعند البخاري أيضًا (٤٠٥٦)، ومسلم (٢٤١٢) من حديث سعد قال: «جَمَعَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَوَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ».

(٣) **صحيح**: ولكنه عند البخاري (حديث ٣٧٢٤، ٤٠٦٣)، ولم يخرجه مسلم.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٧٢٢، ٣٧٢٣)، ومسلم (حديث ٢٤١٤).

وفي «الصحيحين»، واللَّفظ لمسلمٍ، عن جابر بن عبد اللَّه، قال: ندب رسول اللَّه ﷺ النَّاس يوم الخندق فانتدب الزُّبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير، ثمَّ ندبهم، فانتدب الزُّبير، فقال النَّبيُّ ﷺ: **«لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ»**(١).

وفيهما أيضًا عن الزُّبير رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال: **«مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ؟»** فانطلقت، فلمَّا رجعت جمع لي رسول اللَّه ﷺ أبويه، فقال: **«فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»**(٢).

وفي «صحيح مسلم»، عن أنس بن مالكٍ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»**(٣).

وفي «الصحيحين» عن حذيفة بن اليمان، قال: جاء أهل نجران إلى النَّبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رسول اللَّه، ابعث إلينا رجلًا أمينًا، فقال: **«لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا، حَقَّ أَمِينٍ»**، فاستشرف لها النَّاس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجرَّاح(٤).

وعن سعيد بن زيدٍ رضي الله عنه، قال: أشهد على رسول اللَّه ﷺ أنِّي سمعته يقول: **«عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ: النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ»**، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الْعَاشِرَ قَالَ: فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ فَسَكَتَ. قَالَ: فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ: **«هُوَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ»**(٥)، وقال: لَمَشْهَدُ رجلٍ منهم مع رسول اللَّه ﷺ، يغبرُّ منه وجهه، خيرٌ من عمل أحدكم، ولو عُمِّر عُمْر نوحٍ(٦).

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٤١١٣)، ومسلم (حديث ٢٤١٥) وغيرهما.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٧٢٠)، ومسلم (حديث ٢٤١٦) وغيرهما.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٧٤٤)، ومسلم (حديث ٢٤١٩) وغيرهما.

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري (٤٣٨١)، ومسلم (٢٤٢٠) وغيرهما.

(٥) **صحيح لشواهده:** أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٤٩، ٤٦٥٠)، والترمذي (حديث ٣٧٤٨)، وابن ماجه (حديث ١٣٣، ١٣٤) وغيرهم، وله شواهد انظرها في كتابنا «الصحيح المسند من فضائل الصحابة».

(٦) قوله: «لمشهد رجل منهم. . .» إلى آخره عند أبي داود (حديث ٤٦٥٠)، وفي سنده رياح بن الحارث وثقه ابن حبان والعجلي وروى عنه جماعة، وهو من التابعين، كما هو واضح، فمثل هذا يحسن حديثه، بل يصح عند فريق من أهل العلم، وبقية رجال الإسناد ثقات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان رسول اللَّه ﷺ على حراءٍ، هو وأبو بكرٍ وعمر وعثمان وعليٌّ وطلحة والزُّبير، فتحرَّكت الصَّخرة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اهْدَأْ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ**»[1]. رواه مسلمٌ والتِّرمذيُّ وغيرهما. وروي من طرقٍ.

وقد اتَّفق أهل السُّنَّة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم، لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم. ومَنْ أَجْهَلُ ممَّن يكره التَّكلُّم بلفظ العشرة، أو فعل شيءٍ يكون عشرةً، لكونهم يبغضون خيار الصَّحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنَّة، وهم يستثنون منهم عليًّا رضي الله عنه، فمن العجب أنَّهم يوالون لفظ التِّسعة وهم يبغضون التِّسعة من العشرة ويبغضون سائر المهاجرين والأنصار، من السَّابقين الأوَّلين، الَّذين بايعوا رسول اللَّه تحت الشَّجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائةٍ رضي الله عنهم.

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨].

وثبت في «صحيح مسلم»، عن جابرٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»[2].

وفي «صحيح مسلمٍ» أيضًا، عن جابرٍ: أنَّ غلامًا لحاطب بن أبي بلتعة قال: يا رسول اللَّه ليدخلنَّ حاطبٌ النَّار، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»[3].

والرَّافضة يتبرَّؤون من جمهور هؤلاء، بل يتبرَّؤون من سائر أصحاب رسول اللَّه ﷺ، إلَّا من نفرٍ قليلٍ، نحو بضعة عشر رجلًا ومعلومٌ أنَّه لو فرض في العالم عشرةٌ من أكفر النَّاس، لم يجب هجر هذا الاسم لذلك، كما أنَّه سبحانه لمَّا قال: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨﴾ [النمل: الآية ٤٨]، لم يجب هجر اسم التِّسعة مطلقًا. بل اسم العشرة قد مدح اللَّه مسمَّاه في مواضع من القرآن: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: الآية ١٩٦]. ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٤١٧)، والترمذي (حديث ٣٦٩٦) وقال: وهذا حديث صحيح.

(٢) **صحيح**: وقد تقدم.

(٣) **صحيح**: وقد تقدم.

بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]. ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾ [الفجر: ١، ٢].

وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان(١).

وقال في ليلة القدر: «**الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، مِنْ رَمَضَانَ**»(٢).

وقال: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَيَّامِ الْعَشْرِ**»(٣). يعني: عشر ذي الحجَّة.

والرَّافضة توالي بدل العشرة المبشَّرين بالجنَّة، الاثني عشر إمامًا، وهم عليُّ ابن أبي طالبٍ ﵁، ويدَّعون أنَّه وصيُّ النَّبيِّ ﷺ، دعوى مجرَّدةً عن الدَّليل، ثمَّ الحسن ﵁، ثمَّ الحسين ﵁، ثمَّ عليُّ بن الحسين زين العابدين، ثمَّ محمَّد بن عليٍّ الباقر، ثمَّ جعفر بن محمَّدٍ الصَّادق، ثمَّ موسى بن جعفرٍ الكاظم، ثمَّ عليُّ بن موسى الرِّضا، ثمَّ محمَّد بن عليٍّ الجواد، ثمَّ عليُّ بن محمَّدٍ الهادي، ثمَّ الحسن ابن عليٍّ العسكريُّ، ثمَّ محمَّد بن الحسن، ويغالون في محبَّتهم، ويتجاوزون الحدَّ ولم يأت ذكر الأئمَّة الاثني عشر، إلَّا على صفةٍ تردُّ قولهم وتبطله، وهو ما خرَّجاه في «الصحيحين» عن جابر بن سمرة، قال: دخلت مع أبي على النَّبيِّ ﷺ، فسمعته يقول: «**لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا**»، ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلِمَةٍ خَفِيَتْ عَلَيَّ، فَسَأَلْتُ أَبِي: مَاذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «**كُلُّهُمْ مِنْ**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٠٢٦)، ومسلم (حديث ١١٧٢) وغيرهما، وله عدة طرق عن النبي ﷺ.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٠٢١) من حديث ابن عباس ﵄ مرفوعًا، وأخرجه البخاري (حديث ٢٠١٧ - ٢٠١٩)، ومسلم (١١٦٧) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ مرفوعًا.
وله عدة طرق عن النبي ﷺ.

(٣) **صحيح**: وهو عند البخاري (في بعض النسخ كما أشار إلى ذلك الحافظ في «الفتح» (٢/ ٤٥٩) ط. دار المعرفة والحديث موجود في البخاري (مع الفتح ط. دار المعرفة) بلفظ: «**مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ...**» (حديث ٩٦٩).
قال الحافظ: والسياق الذي وقع في رواية كريمة شاذ مخالف لما رواه أبو ذر، وهو من الحفاظ عن الكشميهني - شيخ كريمة - بلفظ: «**مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ الْعَشْرِ**»، وكذا أخرجه أحمد وغيره عن غندر عن شعبة بالإسناد المذكور.
قلت (مصطفى): والحديث عند أبي داود أيضًا بلفظ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ**» يَعْنِي: أَيَّامَ الْعَشْرِ، (حديث ٢٤٣٨)، والترمذي (حديث ٧٥٧) وغيرهما.

قُرَيْشٍ»(١)، وفي لفظٍ: «**لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً**»(٢).

وفي لفظ: «**لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً**»(٣).

وكان الأمر كما قال النَّبيُّ ﷺ. والاثنا عشر: الخلفاء الرَّاشدون الأربعة، ومعاوية، وابنه يزيد، وعبد الملك بن مروان، وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، ثمَّ أخذ الأمر في الانحلال.

وعند الرَّافضة أنَّ أمر الأمَّة لم يزل في أيَّام هؤلاء فاسدًا منغصًا، يتولَّى عليهم الظَّالمون المعتدون، بل المنافقون الكافرون، وأهل الحقِّ أذلُّ من اليهود! وقولهم ظاهر البطلان، بل لم يزل الإسلام عزيزًا في ازديادٍ في أيَّام هؤلاء الاثني عشر.

متن الطحاوية

قوله: «وَمَنْ أَحْسَنَ الْقَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ، وَذُرِّيَّاتِهِ الْمُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ؛ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ»

الشرح

تقدَّم بعض ما ورد في الكتاب والسُّنة من فضائل الصَّحابة ﷺ.

وفي «صحيح مسلم»، عن زيد بن أرقم، قال: قام فينا رسول اللَّه ﷺ خطيبًا، بماءٍ يدعى: خمًّا بين مكَّة والمدينة، فقال: «**أمَّا بعد، أيُّها النَّاس، فإنَّما أنا بشرٌ، يوشك أن يأتيني رسول ربِّي فأجيب ربي، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين: أوَّلهما كتاب اللَّه، فيه الهدى والنُّور، فخذوا بكتاب اللَّه واستمسكوا به**». فحثَّ على كتاب اللَّه ورغَّب فيه، ثمَّ قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**» ثَلَاثًا(٤).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٧٢٢٢، ٧٢٢٣)، ومسلم (ص ١٤٥٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (ص١٤٥٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (ص١٤٥٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٤٠٨).

وخرَّج البخاريُّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ، قال: ارقبوا محمَّدًا في أهل بيته[١].

وإنَّما قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد برئ من النِّفاق» لأنَّ أصل الرَّفض إنَّما أحدثه منافقٌ زنديقٌ، قصده إبطال دين الإسلام، والقدح في الرَّسول ﷺ، كما ذكر ذلك العلماء. فإنَّ عبد اللَّه بن سبأٍ لمَّا أظهر الإسلام أراد أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه، كما فعل بولس بدين النَّصرانيَّة، فأظهر التَّنسُّك، ثمَّ أظهر الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، حتَّى سعى في فتنة عثمان وقتله، ثمَّ لمَّا قدم على الكوفة أظهر الغلوَّ في عليٍّ والنَّصر له؛ ليتمكَّن بذلك من أغراضه، وبلغ ذلك عليًّا، فطلب قتله، فهرب منه إلى قرقيسيا. وخبره معروفٌ في التَّاريخ، وتقدَّم أنَّه من فضَّله على أبي بكرٍ وعمر جلده جلد المفتري، وبقيت في نفوس المبطلين خمائر بدعة الخوارج من الحروريَّة والشِّيعة؛ ولهذا كان الرَّفض باب الزَّندقة، كما حكاه القاضي أبو بكر بن الطَّيِّب عن الباطنيَّة وكيفيَّة إفسادهم لدين الإسلام، قال: فقالوا للدَّاعي: يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلمًا أن تجعل التَّشيُّع عنده دينك وشعارك، واجعل المدخل من جهة ظلم السَّلف لعليٍّ وقتلهم الحسين، والتَّبرِّي من تيمٍ وعديٍّ، وبني أميَّة وبني العبَّاس، وأنَّ عليًّا يعلم الغيب يفوَّض إليه خلق العالم!! وما أشبه ذلك من أعاجيب الشِّيعة وجهلهم إلى أن قال: فإذا أنست من بعض الشيعة عند الدَّعوة إجابةً ورشدًا، أوقفته على مثالب عليٍّ وولده ﷺ. انتهى.

ولا شك أنَّه يتطرق من سبِّ الصَّحابة إلى سبِّ أهل البيت، ثمَّ إلى سبِّ الرَّسول ﷺ؛ إذ أهل بيته وأصحابه مثل هؤلاء الفاعلين الصانعين.

❋ ❋ ❋

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٧١٣، ٣٧٥١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ أَهْلُ الْخَيْرِ وَالْأَثَرِ، وَأَهْلُ الْفِقْهِ وَالنَّظَرِ، لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بِالْجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ»

الشرح

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: الآية ١١٥].

فيجب على كلِّ مسلمٍ بعد موالاة اللَّه ورسوله موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصًا الَّذين هم ورثة الأنبياء، الَّذين جعلهم اللَّه بمنزلة النُّجوم، يُهدى بهم في ظلمات البرِّ والبحر. وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كلُّ أمَّةٍ قبل مبعث محمَّدٍ ﷺ علماؤها شرارها إلَّا المسلمين، فإنَّ علماءهم خيارهم، فإنَّهم خلفاء الرَّسول من أمَّته، والمُحْيُونَ لما مات من سنَّته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلُّهم متَّفقون اتِّفاقًا يقينيًّا على وجوب اتِّباع الرَّسول ﷺ. ولكن إذا وجد لواحدٍ منهم قولٌ قد جاء حديثٌ صحيحٌ بخلافه فلا بدَّ له في تركه من عذرٍ.

وجماع الأعذار ثلاثة أصنافٍ:

أحدها: عدم اعتقاده أنَّ النَّبيَّ ﷺ قاله.

والثَّاني: عدم اعتقاده أنَّه أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثَّالث: اعتقاده أنَّ ذلك الحكم منسوخٌ.

فلهم الفضل علينا والمنَّة بالسَّبق، وتبليغ ما أرسل به الرَّسول ﷺ إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: الآية ١٠].

***

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نُفَضِّلُ أَحَدًا مِنَ الأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامِ، وَنَقُولُ: نَبِيٌّ وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الأَوْلِيَاءِ»

الشرح

يشير الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الرَّدِّ على الاتِّحاديَّة وجهلة المتصوِّفة، وإلَّا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشَّرع. فقد أوجب اللَّه على الخلق كلِّهم متابعة الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ [النساء: الآية ٦٤] إلى أن قال: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ٦٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٣١].

قال أبو عثمان النَّيسابوريُّ: من أمَّر السُّنَّة على نفسه قولًا وفعلًا، نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه، نطق بالبدعة.

وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شيئًا من السُّنَّة إلَّا لِكِبْرٍ في نفسه.

والأمر كما قال، فإنَّه إذا لم يكن متَّبعًا للأمر الَّذي جاء به الرَّسول، كان يعمل بإرادة نفسه، فيكون متَّبعًا لهواه بغير هدًى من اللَّه، وهذا غشُّ النَّفس، وهو من الكبر، فإنَّه شبيهٌ بقول الَّذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤].

وكثيرٌ من هؤلاء يظنُّ أنَّه يصل برياسته واجتهاده في العبادة، وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتِّباعٍ لطريقتهم.

ومنهم من يظنُّ أنَّه قد صار أفضل من الأنبياء.

ومنهم من يقول: إنَّ الأنبياء والرُّسل إنَّما يأخذون العلم باللَّه من مشكاة خاتم الأولياء ويدَّعي لنفسه أنَّه خاتم الأولياء ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون، وهو أنَّ هذا الوجود المشهود واجبٌ بنفسه، ليس له صانعٌ مباينٌ له، لكنَّ هذا يقول: هو اللَّه، وفرعون أظهر الإنكار بالكلِّيَّة، لكن كان فرعون في الباطن أعرف

باللَّه منهم، فإنَّه كان مثبتًا للصَّانع، وهؤلاء ظنُّوا أنَّ الوجود المخلوق هو الوجود الخالق، كابن عربيٍّ وأمثاله وهو لمَّا رأى أنَّ الشَّرع الظَّاهر لا سبيل إلى تغييره قال: النُّبوَّة ختمت، لكنَّ الولاية لم تختم؛ وادَّعى من الولاية ما هو أعظم من النُّبوَّة وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأنَّ الأنبياء مستفيدون منها كما قال:

مَقَامُ النُّبوَّة فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ

وهذا قلبٌ للشَّريعة، فإنَّ الولاية ثابتةٌ للمؤمنين المتَّقين، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. والنُّبوَّة أخصُّ من الولاية، والرِّسالة أخصُّ من النُّبوَّة، كما تقدَّم التَّنبيه على ذلك.

وقال ابن عربيٍّ أيضًا في «فصوصه»: ولمَّا مثَّل النَّبيُّ ﷺ النُّبوَّة بالحائط من اللَّبن فرآها قد كملت إلَّا لبنةً، فكان هو ﷺ موضع اللَّبنة، وأمَّا خاتم الأولياء فلا بدَّ له من هذه الرُّؤية، فيرى ما مثَّله النَّبيُّ ﷺ، ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين ويرى نفسه تنطبع في موضع اللَّبنتين، فيكمل الحائط والسَّبب الموجب لكونه يراها لبنتين: أنَّ الحائط لبنةٌ من فضَّةٍ ولبنةٌ من ذهبٍ، واللَّبنة الفضَّة هي ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو آخذٌ عن اللَّه في الشَّرع ما هو في الصُّورة الظَّاهرة متَّبعٌ فيه، لأنَّه يرى الأمر على ما هو عليه، فلا بدَّ أن يراه هكذا، وهو موضع اللَّبنة الذَّهبيَّة في الباطن فإنَّه يأخذ من المعدن الَّذي يأخذ منه الملك الَّذي يوحي به إلى الرَّسول ﷺ، قال: فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النَّافع.

فمن أكفر ممَّن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهبٍ، وللرُّسل المثل بلبنة فضَّةٍ، فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرَّسول؟! تلك أمانيُّهم: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: الآية ٥٦]. وكيف يخفى كفر من هذا كلامه؟ وله من الكلام أمثال هذا، وفيه ما يخفى منه الكفر، ومنه ما يظهر، فلهذا يحتاج إلى ناقدٍ جيِّدٍ؛ ليظهر زيفه، فإنَّ من الزَّغل ما يظهر لكلِّ ناقدٍ، ومنه ما لا يظهر إلَّا للنَّاقد الحاذق البصير، وكفر ابن عربيٍّ وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤]. ولكنَّ ابن عربيٍّ وأمثاله منافقون زنادقةٌ،

اتِّحاديَّةٌ في الدَّرك الأسفل من النَّار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين، لإظهارهم الإسلام، كما كان يظهره المنافقون في حياة النَّبيِّ ﷺ ويبطنون الكفر، وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم. فلو أنَّه ظهر من أحدٍ منهم ما يبطنه من الكفر، لأجرى عليه حكم المرتدِّ. ولكن في قبول توبته خلافٌ، والصَّحيح عدم قبولها، وهي رواية معلَّى عن أبي حنيفة رضي الله عنه. واللَّه المستعان.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ، وَصَحَّ عَنِ الثِّقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ»

الشرح

فالمعجزة في اللُّغة تعمُّ كلَّ خارقٍ للعادة، وفي عرف أئمَّة أهل العلم المتقدِّمين، كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ويسمونها الآيات ولكنْ كثيرٌ من المتأخِّرين يفرِّقون في اللَّفظ بينهما، فيجعلون المعجزة للنَّبيِّ والكرامة للوليِّ، وجماعهما: الأمر الخارق للعادة.

فصفات الكمال ترجع إلى ثلاثةٍ: العلم، والقدرة، والغنى. وهذه الثَّلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلَّا للَّه وحده، فإنَّه الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وهو غنيٌّ عن العالمين. ولهذا أمر النَّبيُّ ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثَّلاثة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: الآية ٥٠]، وكذلك قال نوحٌ عليه السلام، فهذا أوَّل أولي العزم، وأوَّل رسولٍ بعثه اللَّه إلى أهل الأرض، وهذا خاتم الرُّسل، وخاتم أولي العزم، وكلاهما تبرَّأ من ذلك، وهذا لأنَّهم يطالبونهم تارةً بعلم الغيب، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٧].

وتارةً بالتَّأثير، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: الآية ٩٠] الآيات.

وتارةً يعيبون عليهم الحاجة البشريَّة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ الآية [الفرقان: الآية ٧].

فأمر الرَّسول أن يخبرهم بأنَّه لا يملك ذلك، وإنَّما ينال من تلك الثَّلاثة بقدر ما يعطيه اللَّه، فيعلم ما علَّمه اللَّه إيَّاه، ويستغني عمَّا أغناه عنه، ويقدر على ما أقدره عليه من الأمور المخالفة للعادة المطَّردة، أو لعادة أغلب النَّاس. فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الأنواع.

ثمَّ الخارق إن حصل به فائدةٌ مطلوبةٌ في الدِّين، كان من الأعمال الصَّالحة المأمور بها دينًا وشرعًا، إمَّا واجبٌ أو مستحبٌّ، وإن حصل به أمرٌ مباحٌ، كان من نعم اللَّه الدُّنيويَّة الَّتي تقتضي شكرًا، وإن كان على وجهٍ يتضمَّن ما هو منهيٌّ عنه نهي تحريمٍ أو نهي تنزيهٍ، كان سببًا للعذاب أو البغض؛ كالَّذي أوتي الآيات فانسلخ منها: بلعام بن باعورا[(١)]، لاجتهادٍ أو تقليدٍ، أو نقص عقلٍ أو علمٍ، أو غلبة حالٍ، أو عجزٍ أو ضرورةٍ.

فالخارق ثلاثة أنواعٍ: محمودٌ في الدِّين، ومذمومٌ، ومباحٌ. فإن كان المباح فيه منفعةٌ كان نعمةً؛ وإلَّا فهو كسائر المباحات الَّتي لا منفعة فيها، قال أبو عليٍّ الجوزجانيُّ: كن طالبًا للاستقامة، لا طالبًا للكرامة، فإنَّ نفسك متحرِّكةٌ في طلب الكرامة، وربُّك يطلب منك الاستقامة.

قال الشَّيخ السُّهرورديُّ في «عوارفه»: وهذا الَّذي ذكره أصلٌ كبيرٌ في الباب، فإنَّ كثيرًا من المجتهدين والمتعبِّدين سمعوا عن سلف الصَّالحين المتقدِّمين، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فنفوسهم لا تزال تتطلَّع إلى شيءٍ من ذلك، ويحبُّون أن يرزقوا شيئًا منه، ولعلَّ أحدهم يبقى منكسر القلب، متَّهمًا لنفسه في صحَّة عمله، حيث لم يحصل له خارقٌ، ولو علموا بسرِّ ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أنَّ اللَّه يفتح على بعض المجتهدين الصَّادقين من ذلك بابًا، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وأمارة القدرة يقينًا، فيقوى عزمه على الزُّهد في الدُّنيا، والخروج عن دواعي الهوى، فسبيل الصَّادق مطالبة النَّفس بالاستقامة، فهي كلُّ الكرامة.

ولا ريب أنَّ للقلوب من التَّأثير أعظم ممَّا للأبدان، لكن إن كانت صالحةً كان تأثيرها صالحًا، وإن كانت فاسدةً كان تأثيرها فاسدًا. فالأحوال يكون تأثيرها محبوبًا للَّه تعالى تارةً، ومكروهًا للَّه أخرى.

---

(١) لم أقف على خبر صحيح عن رسول الله ﷺ في تسميته بلعام بن باعوراء.

وقد تكلَّم الفقهاء في وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن. وهؤلاء يشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكونيَّ، ويعدُّون مجرَّد خرق العادة لأحدهم أنَّه كرامةٌ من اللَّه له، ولا يعلمون أنَّه في الحقيقة إنَّما الكرامة لزوم الاستقامة، وأنَّ اللَّه تعالى لم يكرم عبدًا بكرامةٍ أعظم من موافقته فيما يحبُّه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه. وهؤلاء هم أولياء اللَّه الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: الآية ٦٢].

وأمَّا ما يبتلي اللَّه به عبده، من السراء بخرق العادة أو بغيرها أو بالضَّرَّاء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربِّه ولا هوانه عليه، بل قد سعد بها قومٌ إذ أطاعوه، وشقي بها قومٌ إذ عصوه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

ولهذا كان النَّاس في هذه الأمور ثلاثة أقسام: قسمٍ ترتفع درجتهم بخرق العادة، وقسمٍ يتعرَّضون بها لعذاب اللَّه، وقسمٍ يكون في حقِّهم بمنزلة المباحات، كما تقدَّم.

وتنوُّع الكشف والتَّأثير باعتبار تنوُّع كلمات اللَّه.

وكلمات اللَّه نوعان: كونيَّةٌ، ودينيَّةٌ:

فكلماته الكونيَّة: هي الَّتي استعاذ بها النَّبيُّ ﷺ في قوله: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ**»(١). قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١١٥]. والكون كلُّه داخلٌ تحت هذه الكلمات، وسائر الخوارق.

والنَّوع الثَّاني: الكلمات الدِّينيَّة، وهي القرآن وشرع اللَّه الَّذي بعث به رسوله، وهي أمره ونهيه وخبره، وحظُّ العبد منها العلم بها، والعمل، والأمر بما أمر اللَّه به، كما أنَّ حظَّ العباد عمومًا وخصوصًا العلم بالكونيَّات والتَّأثير فيها، أي

---

(١) تقدم.

بموجبها. فالأولى تدبيريَّةٌ كونيَّةٌ، والثَّانية شرعيَّةٌ دينيَّةٌ. فكشف الأولى العلم بالحوادث الكونيَّة، وكشف الثَّانية العلم بالمأمورات الشَّرعيَّة.

وقدرة الأولى التَّأثير في الكونيَّات، إمَّا في نفسه كمشيه على الماء، وطيرانه في الهواء، وجلوسه في النَّار، وإمَّا في غيره، بإصحاحٍ وإهلاكٍ، وإغناءٍ وإفقارٍ.

وقدرة الثَّانية التَّأثير في الشَّرعيَّات، إمَّا في نفسه بطاعة اللَّه ورسوله، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطنًا وظاهرًا وإمَّا في غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله فيطاع في ذلك طاعةً شرعيَّةً.

فإذا تقرَّر ذلك، فاعلم أنَّ عدم الخوارق علمًا وقدرةً لا تضرُّ المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيءٌ من المغيَّبات، ولم يسخَّر له شيءٌ من الكونيَّات لا ينقص ذلك في مرتبته عند اللَّه، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له، فإنَّه إن اقترن به الدِّين وإلَّا هلك صاحبه في الدُّنيا والآخرة، فإنَّ الخارق قد يكون مع الدِّين، وقد يكون مع عدمه، أو فساده، أو نقصه.

فالخوارق النَّافعة تابعةٌ للدِّين، خادمةٌ له، كما أنَّ الرِّياسة النَّافعة هي التَّابعة للدِّين، وكذلك المال النَّافع، كما كان السُّلطان والمال النَّافع بيد النَّبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ وعمر. فمن جعلها هي المقصودة، وجعل الدِّين تابعًا لها، ووسيلةً إليها، لا لأجل الدِّين في الأصل: فهو شبيهٌ بمن يأكل الدُّنيا بالدِّين، وليست حاله كحال من تديَّن خوف العذاب، أو رجاء الجنَّة، فإنَّ ذلك مأمورٌ به، وهو على سبيل نجاةٍ، وشريعةٍ صحيحةٍ.

والعجب أنَّ كثيرًا ممَّن يزعم أنَّ همَّه قد ارتفع عن أن يكون خوفًا من النَّار، أو طلبًا للجنَّة يجعل همَّه بدينه أدنى خارقٍ من خوارق الدُّنيا!! ثمَّ إنَّ الدِّين إذا صحَّ علمًا وعملًا فلا بدَّ أن يوجب خرق العادة، إذا احتاج إلى ذلك صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: الآية ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقال تعالى، فيما يروي عنه رسوله ﷺ: **«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»**(١). فظهر أنَّ الاستقامة حظُّ الرَّبِّ، وطلب الكرامة حظُّ النَّفس. وباللَّه التَّوفيق.

متن الطحاوية

قوله: «وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ: مِنْ خُرُوجِ الدَّجَّالِ، وَنُزُولِ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنَ السَّماءِ، وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ دَابَّةِ الأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا»

الشرح

عن عوف بن مالكٍ الأشجعيِّ، قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبَّةٍ من أدم، فقال: **«اعدد ستًّا بين يدي السَّاعة: موتي، ثمَّ فتح بيت المقدس، ثمَّ موتانٌ يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثمَّ استفاضة المال حتَّى يعطى الرَّجل مائة دينارٍ فيظلُّ ساخطًا، ثمَّ فتنةٌ لا يبقى بيتٌ من العرب إلَّا دخلته، ثمَّ هدنةٌ تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غايةً، تحت كلِّ غايةٍ اثنا عشر ألفًا»**(٢). وروي «رايةً»، بالرَّاء والغين، وهما بمعنًى. رواه البخاريُّ وأبو داود وابن ماجه والطَّبرانيُّ.

وعن حذيفة بن أسيدٍ، قال: اطَّلع النَّبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر السَّاعة، فقال: **«ما تذاكرون؟»** قالوا: نذكر السَّاعة، فقال: **«إنَّها لن تقوم حتَّى تُرى عشر آياتٍ الدُّخانُ، والدَّجَّالُ، والدَّابَّةُ، وطلوعُ الشَّمس من مغربها، ونزولُ عيسى ابن مريم، ويأجوجُ**

---

(١) أخرجه البخاري، وقد تقدم.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٧١٦)، وابن ماجه (حديث ٤٠٤٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٤٠).

ومأجوج، وثلاثة خسوفٍ: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد النَّاس إلى محشرهم»[١]. رواه مسلمٌ.

وفي «الصحيحين»، واللَّفظ للبخاريِّ، عن ابن عمر ﷺ، قال: ذكر الدَّجَّال عند النَّبيِّ ﷺ، فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ - وَإِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»[٢].

وعن أنس بن مالكٍ ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ قَوْمَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ؛ أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر»[٣]، فسَّره في روايةٍ: أي كافرٌ.

وروى البخاريُّ وغيره، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: والَّذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، فيكسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتَّى لا يقبله أحدٌ، حتَّى تكون السَّجدة خيرًا من الدُّنيا وما فيها[٤]. ثمَّ يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ [النِّساء: الآية ١٥٩].

وأحاديث الدَّجَّال، وعيسى ابن مريم ﷺ، ينزل من السَّماء ويقتله، ويخرج يأجوج ومأجوج في أيَّامه بعد قتله الدَّجَّال، فيهلكهم اللَّه أجمعين في ليلةٍ واحدةٍ ببركة دعائه عليهم يضيق هذا المختصر عن بسطها.

وأمَّا خروج الدَّابَّة وطلوع الشَّمس من المغرب فقال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [النَّمل: الآية ٨٢].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٢٩٠١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٤٣٩، ٧٤٠٧)، وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ١٦٩، ص ٢٢٤٧) وغيرهما.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٧١٣١، ٧٤٠٨)، ومسلم (حديث ٢٩٣٣) وغيرهما.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٢٢٢٢، ٣٤٤٨)، ومسلم (حديث ١٥٥) وغيرهما.

خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٥٨].

وروى البخاريُّ عند تفسير الآية، عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ**»(١).

وروى مسلمٌ، عن عبد اللَّه بن عمرٍو، قال: حفظت من رسول اللَّه ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: إنَّ أوَّل الآيات خروجًا طلوع الشَّمس من مغربها، وخروج الدَّابَّة على النَّاس ضحًى، وأيُّهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا(٢).

أي: أوَّل الآيات الَّتي ليست مألوفةً، وإن كان الدَّجَّال ونزول عيسى عليه السلام من السَّماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، كلُّ ذلك أمورٌ مألوفةٌ؛ لأنَّهم بشرٌ، مشاهدة مثلهم مألوفةٌ، أمَّا خروج الدَّابَّة على شكلٍ غريبٍ غير مألوفٍ، ثمَّ مخاطبتها النَّاس ووسمها إيَّاهم بالإيمان أو الكفر فأمرٌ خارجٌ عن مجاري العادات. وذلك أوَّل الآيات الأرضيَّة، كما أنَّ طلوع الشَّمس من مغربها، على خلاف عادتها المألوفة أوَّل الآيات السَّماويَّة.

وقد أفرد النَّاس أحاديث أشراط السَّاعة في مصنَّفاتٍ مشهورةٍ، يضيق على بسطها هذا المختصر.

متن الطحاوية

قوله: «وَلَا نُصَدِّقُ كَاهِنًا وَلَا عَرَّافًا،
وَلَا مَنْ يَدَّعِي شَيْئًا يُخَالِفُ الكِتَابَ والسُّنَّةَ وإجْمَاعَ الأُمَّةِ»

الشرح

روى مسلمٌ والإمام أحمد عن صفيَّة بنت أبي عبيدٍ، عن بعض أزواج النَّبيِّ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**من أتى عرَّافًا فسأله عن شيءٍ، لم تقبل له صلاة أربعين**

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٤٦٣٥) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (حديث ١٥٧) وغيرهما.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٩٤١).

ليلةً»[١].

والمنجِّم يدخل في اسم العرَّاف عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو في معناه. فإذا كانت هذه حال السَّائل، فكيف بالمسؤول؟

وفي «الصحيحين» ومسند الإمام أحمد، عن عائشة، قالت: سأل رسولَ اللَّه ﷺ ناسٌ عن الكهَّان؟ فقَالَ: **«لَيْسُوا بِشَيْءٍ»**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مائة كَذْبَةٍ»**[٢].

وفي الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: **«ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ»**[٣]. وحلوانه: الَّذي تسمِّيه العامَّة حلاوته.

ويدخل في هذا المعنى ما يعطاه المنجِّم وصاحب الأزلام الَّتي يستقسم بها، مثل الخشبة المكتوب عليها «ا ب ج د» والضَّارب بالحصى، والَّذي يخطُّ في الرَّمل، وما يُعْطَاهُ هؤلاء حرامٌ. وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحدٍ من العلماء، كالبغويِّ والقاضي عياضٍ وغيرهما.

وفي «الصحيحين» عن زيد بن خالدٍ، قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ بالحديبية، على إثر سماءٍ كانت من اللَّيل، فقال: **«أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم اللَّيْلَةَ؟»**. قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **«قَالَ اللَّهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»**[٤].

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٢٣٠).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٢١٠) وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم في «صحيحه» (حديث ٢٢٢٨، ص ١٧٥٠)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٨٧) وغيرهم.

(٣) أخرجه مسلم (ص ١١٩٩) من حديث رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: **«ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَكَسْبُ الْحَجَّامِ خَبِيثٌ»**. وأخرجه البخاري (حديث ٢٢٣٧)، ومسلم (حديث ١٥٦٧)، من حديث أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ «نَهَى عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ».

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٨٤٦) وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (حديث ٧١).

وفي صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد، عن أبي مالكٍ الأشعريِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ، وَالنِّيَاحَةُ**»(١).

والنُّصوص عن النَّبيِّ ﷺ وأصحابه وسائر الأئمَّة، بالنَّهي عن ذلك، أكثر من أن يتَّسع هذا الموضع لذكرها.

وصناعة التَّنجيم، الَّتي مضمونها الإحكام والتَّأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضيَّة بالأحوال الفلكيَّة أو التَّمزيج بين القوى الفلكيَّة والغوائل الأرضيَّة صناعةٌ محرَّمةٌ بالكتاب والسُّنَّة، بل هي محرَّمةٌ على لسان جميع المرسلين، قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٩]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: الآية ٥١]. قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وغيره: الجبت: السِّحر.

وفي «صحيح البخاريِّ»، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكرٍ غلامٌ يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشيءٍ، فأكل منه أبو بكرٍ، فقال له الغلام: تدري ممَّ هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهَّنت لإنسانٍ في الجاهليَّة، وما أُحْسِنُ الكهانة، إلَّا أنِّي خدعته فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الَّذي أكلت منه، فأدخل أبو بكرٍ يده فقاء كلَّ شيءٍ في بطنه(٢).

والواجب على وليِّ الأمر وكلِّ قادرٍ أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجِّمين والكهَّان والعرَّافين وأصحاب الضَّرب بالرَّمل والحصى والقرع والفالات، ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطُّرقات، أو أن يدخلوا على النَّاس في منازلهم لذلك. ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى في إزالته، مع قدرته على ذلك قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: الآية ٧٩]. وهؤلاء الملاعين يقولون الإثم ويأكلون السُّحت، بإجماع المسلمين. وثبت في «السُّنن» عن النَّبيِّ ﷺ برواية الصِّدِّيق رضي الله عنه، أنَّه قال: «**إنَّ النَّاس إذا رأوا المنكر**

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٩٦٤).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٨٤٢).

فلم يغيِّروه أوشك أن يعمَّهم اللَّه بعقابٍ منه»[١].

وهؤلاء الَّذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسُّنَّة، أنواعٌ:

نوعٌ منهم: أهل تلبيسٍ وكذبٍ وخداعٍ، الَّذين يظهر أحدهم طاعة الجنِّ له، أو يدَّعي الحال من أهل المحال، من المشايخ النَّصَّابين، والفقراء الكذَّابين، والطُّرقيَّة المكَّارين، فهؤلاء يستحقُّون العقوبة البليغة الَّتي تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتَّلبيس. وقد يكون في هؤلاء من يستحقُّ القتل، كمن يدَّعي النُّبوَّة بمثل هذه الخزعبلات، أو يطلب تغيير شيءٍ من الشَّريعة، ونحو ذلك.

ونوعٌ يتكلَّم في هذه الأمور على سبيل الجدِّ والحقيقة، بأنواع السِّحر. وجمهور العلماء يوجبون قتل السَّاحر، كما هو مذهب أبي حنيفة ومالكٍ وأحمد في المنصوص عنه، وهذا هو المأثور عن الصَّحابة، كعمر وابنه وعثمان وغيرهم ﷺ. ثمَّ اختلف هؤلاء: هل يستتاب أم لا؟ وهل يكفَّر بالسِّحر؟ أم يقتل لسعيه في الأرض بالفساد؟ وقال طائفةٌ: إن قَتَلَ بالسِّحر قُتِلَ، وإلَّا عوقب بدون القتل، إذا لم يكن في قوله وعمله كفرٌ، وهذا هو المنقول عن الشَّافعيِّ، وهو قولٌ في مذهب أحمد رحمهما اللَّه.

وقد تنازع العلماء في حقيقة السِّحر وأنواعه: والأكثرون يقولون: إنَّه قد يؤثِّر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيءٍ ظاهرٍ إليه، وزعم بعضهم أنَّه مجرَّد تخييلٍ.

واتَّفقوا كلُّهم على أنَّ ما كان من جنس دعوة الكواكب السَّبعة، أو غيرها، أو خطابها، أو السُّجود لها، والتَّقرُّب إليها بما يناسبها من اللِّباس والخواتم والبخور ونحو ذلك فإنَّه كفرٌ، وهو من أعظم أبواب الشِّرك، فيجب غلقه، بل سدُّه. وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه السلام، ولهذا حكى اللَّه عنه بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي

---

(١) **إسناده صحيح:** وقد أُعل بالوقف على أبي بكر رضي الله عنه ولمعناه شواهد صحيحه، وقد أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» بتحقيقي رقم (١).
وقد استفضت في الكلام عليه هناك، وقد أخرجه أحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٩)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (مع التحفة ٦/ ٣٨٨، ٨/ ٤٤٢)، وابن ماجه (٤٠٠٥) وغيرهم.

ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ الآيات [الأنعام: الآية ٧٦]، إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨٢].

واتَّفقوا كلُّهم أيضًا على أنَّ كلَّ رقيةٍ وتعزيمٍ أو قسمٍ، فيه شركٌ باللَّه، فإنَّه لا يجوز التَّكلُّم به، وإن أطاعته به الجنُّ أو غيرهم، وكذلك كلُّ كلامٍ فيه كفرٌ لا يجوز التَّكلُّم به، وكذلك الكلام الَّذي لا يعرف معناه لا يتكلَّم به، لإمكان أن يكون فيه شركٌ لا يعرف. ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا**»[(١)].

ولا يجوز الاستعاذة بالجنِّ، فقد ذمَّ اللَّه الكافرين على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: الآية ٦].

قالوا[(٢)]: كان الإنسيُّ إذا نزل بالوادي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فيبيت في أمنٍ وجوارٍ حتَّى يصبح، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: الآية ٦] يعني الإنس للجنِّ، باستعاذتهم بهم، رهقًا، أي: إثمًا وطغيانًا وجراءةً وشرًّا، وذلك أنَّهم قالوا: قد سُدْنا الجنَّ، والإنس، فالجنُّ تعاظم في أنفسها وتزداد كفرًا إذا عاملتها الإنس بهذه المعاملة. وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فهؤلاء الَّذين يزعمون أنَّهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم، وأنَّها تنزَّل عليهم ضالُّون، وإنَّما تنزَّل عليهم الشَّياطين، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ٢٢٠٠) من حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**».

(٢) كذا قال المفسرون.

فاستمتاع الإنسيِّ بالجنِّيِّ: في قضاء حوائجه، وامتثال أوامره، وإخباره بشيءٍ من المغيَّبات، ونحو ذلك، واستمتاع الجنِّ بالإنس تعظيمه إيَّاه، واستعانته به، واستغاثته وخضوعه له.

ونوعٌ منهم يتكلَّم بالأحوال الشَّيطانيَّة، والكشوف ومخاطبة رجال الغيب، وأنَّ لهم خوارق تقتضي أنَّهم أولياء اللَّه، وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين ويقول: إنَّ الرَّسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين، لكون المسلمين قد عصوا وهؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين.

والنَّاس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزابٍ:

حزب يكذِّبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم النَّاس، وثبت عمَّن عاينهم أو حدَّثه الثِّقات بما رأوه، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقَّنوا وجودهم خضعوا لهم.

وحزب عرفوهم، ورجعوا إلى القدر، واعتقدوا أنَّ ثمَّ في الباطن طريقًا إلى اللَّه غير طريقة الأنبياء.

وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليًّا خارجًا عن دائرة الرَّسول، فقالوا: يكون الرَّسول هو ممدًّا للطَّائفتين. فهؤلاء معظِّمون للرَّسول جاهلون بدينه وشرعه.

والحقُّ: أنَّ هؤلاء من أتباع الشَّياطين، وأنَّ رجال الغيب هم الجنُّ، ويسمَّون رجالًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: الآية ٦]. وإلَّا فالإنس يؤنسون، أي يشهدون ويرون، وإنَّما يحتجب الإنسيُّ أحيانًا، لا يكون دائمًا محتجبًا عن أبصار الإنس، ومن ظنَّ أنَّهم من «الإنس» فمن غلطه وجهله وسبب الضَّلال فيهم، وافتراق هذه الأحزاب الثَّلاثة عدم الفرقان بين أولياء الشَّيطان وأولياء الرَّحمن.

ويقول بعض النَّاسْ: الفقراء يسلَّم إليهم حالهم وهذا كلامٌ باطلٌ، بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشَّريعة المحمَّديَّة، فما وافقها قُبِلَ وما خالفها رُدَّ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[1].

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (ص ١٣٤٤) من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا.

وفي روايةٍ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١).

فلا طريقة إلَّا طريقة الرَّسول ﷺ، ولا حقيقة إلَّا حقيقته، ولا شريعة إلَّا شريعته، ولا عقيدة إلَّا عقيدته، ولا يصل أحدٌ من الخلق بعده إلى اللَّه وإلى رضوانه وجنَّته وكرامته إلَّا بمتابعته باطنًا وظاهرًا.

ومن لم يكن له مصدِّقًا فيما أخبر، ملتزمًا لطاعته فيما أمر، في الأمور الباطنة الَّتي في القلوب، والأعمال الظَّاهرة الَّتي على الأبدان: لم يكن مؤمنًا، فضلًا عن أن يكون وليًّا للَّه تعالى، ولو طار في الهواء، ومشى على الماء، وأنفق من الغيب، وأخرج الذَّهب من الجيب، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل فإنَّه لا يكون، مع تركه الفعل المأمور وعمل المحظور إلَّا من أهل الأحوال الشَّيطانيَّة، المبعدة لصاحبها عن اللَّه تعالى، المقرِّبة إلى سخطه وعذابه. لكن من ليس يكلَّف من الأطفال والمجانين قد رفع عنهم القلم، فلا يعاقبون، وليس لهم من الإيمان باللَّه وتقواه باطنًا وظاهرًا ما يكونون به من أولياء اللَّه المقرَّبين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين. لكن يدخلون في الإسلام تبعًا لآبائهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطُّور: الآية ٢١].

فمن اعتقد في بعض البُلْهِ أو المولعين، مع تركه لمتابعة الرَّسول في أقواله وأفعاله وأحواله أنَّه من أولياء اللَّه، ويفضِّله على متَّبعي طريقة الرَّسول ﷺ، فهو ضالٌّ مبتدعٌ، مخطئٌ في اعتقاده. فإنَّ ذاك الأبله، إمَّا أن يكون شيطانًا زنديقًا، أو زوكاريًّا متحيِّلًا، أو مجنونًا معذورًا فكيف يفضَّل على من هو من أولياء اللَّه، المتَّبعين لرسوله؟ أو يساوى به؟ ولا يقال: يمكن أن يكون هذا متَّبعًا في الباطن وإن كان تاركًا للاتِّباع في الظَّاهر؟ فإنَّ هذا خطأٌ أيضًا، بل الواجب متابعة الرَّسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

قال يونس بن عبد الأعلى الصَّدفيُّ: قلت للشَّافعيِّ: إنَّ صاحبنا اللَّيث كان يقول: إذا رأيتم الرَّجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتَّى تعرضوا أمره على الكتاب والسُّنَّة؟ فقال الشَّافعيُّ: قصَّر اللَّيث رَحِمَهُ اللَّهُ، بل إذا رأيتم الرَّجل يمشي على

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٢٦٩٧)، ومسلم (حديث ١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتروا به حتَّى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

وأمَّا ما يقوله بعض النَّاس عن رسول اللَّه ﷺ أنَّه قال: **«اطَّلعْتُ عَلَى الجَنَّة فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا البله»**(١) فهذا لا يصحُّ عن رسول اللَّه ﷺ، ولا ينبغي نسبته إليه، فإنَّ الجنَّة إنَّما خلقت لأولي الألباب، الَّذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم إلى الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وقد ذكر اللَّه أهل الجنَّة بأوصافهم في كتابه، فلم يذكر في أوصافهم البله، الَّذي هو ضعف العقل، وإنَّما قال النَّبيُّ ﷺ: **«اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءُ»**(٢). ولم يقل: البله.

والطَّائفة الملاميَّة، وهم الَّذين يفعلون ما يلامون عليه، ويقولون نحن متَّبعون في الباطن، ويقصدون إخفاء المرائين ردُّوا باطلهم بباطلٍ آخر والصِّراط المستقيم بين ذلك.

وكذلك الَّذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة، مبتدعون ضالُّون وليس للإنسان أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله، ولم يكن في الصَّحابة والتَّابعين من يفعل ذلك، ولو عند سماع القرآن، بل كانوا كما وصفهم اللَّه تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢]. وكما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣].

وأمَّا الَّذين ذكرهم العلماء بخيرٍ من عقلاء المجانين، فأولئك كان فيهم خيرٌ، ثمَّ زالت عقولهم. ومن علامة هؤلاء، أنَّه إذا حصل في جنونهم نوعٌ من الصَّحو، تكلَّموا بما كان في قلوبهم من الإيمان، ويهذون بذلك في حال زوال عقلهم، بخلاف غيرهم ممَّن يتكلم إذا حصل لهم نوع إفاقةٍ بالكفر والشِّرك، ويهذون بذلك في حال زوال عقلهم. ومن كان قبل جنونه كافرًا أو فاسقًا، لم يكن حدوث جنونه مزيلًا لما ثبت من كفره أو فسقه. وكذلك من جنَّ من المؤمنين المتَّقين،

(١) كل أسانيده تالفة.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٣٢٤١)، وفي غير موطن من «صحيحه» من حديث عمران بن حصين ﷺ مرفوعًا، وأخرجه مسلم (حديث ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا.

يكون محشورًا مع المؤمنين المتَّقين. وزوال العقل بجنونٍ أو غيره، سواءٌ سمِّي صاحبه مولهًا أو متولِّهًا، لا يوجب مزيد حال صاحبه من الإيمان والتَّقوى، بل يبقى على ما كان عليه من خيرٍ وشرٍّ، لا أنَّه يزيده أو ينقصه، ولكنَّ جنونه يحرمه الزِّيادة من الخير، كما أنَّه يمنع عقوبته على الشَّرِّ، ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله.

وما يحصل لبعضهم عند سماع الأنغام المطربة، من الهذيان، والتَّكلُّم ببعض اللُّغات المخالفة للسانه المعروف منه، فذلك شيطانٌ يتكلَّم على لسانه، كما يتكلَّم على لسان المصروع، وذلك كلُّه من الأحوال الشَّيطانيَّة، وكيف يكون زوال العقل سببًا أو شرطًا أو تقرُّبًا إلى ولاية اللَّه، كما يظنُّه كثيرٌ من أهل الضَّلال؟! حتَّى قال قائلهم:

هم معشرٌ حلُّوا النِّظام وخرَّقوا الـ سِّياج فلا فرضٌ لديهم ولا نفل
مجانين إلَّا أنَّ سرَّ جنونهم عزيزٌ على أبوابه يسجد العقل

وهذا كلام ضالٍّ، بل كافرٍ، يظنُّ أنَّ في الجنون سرًّا يسجد العقل على بابه لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفةٍ، أو تصرُّفٍ عجيبٍ خارقٍ للعادة، ويكون ذلك بسبب ما اقترن به من الشَّياطين، كما يكون للسَّحرة والكهَّان فيظنُّ هذا الضَّالُّ أنَّ كلَّ من كاشف أو خرق عادةً كان وليًّا للَّه، ومن اعتقد هذا فهو كافرٌ، فقد قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. فكلُّ من تنزل عليه الشَّياطين لا بدَّ أن يكون عنده كذبٌ وفجورٌ.

وأمَّا الَّذين يتعبَّدون بالرِّياضات والخلوات، ويتركون الجمع والجماعات، فهم الَّذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا، قد طبع اللَّه على قلوبهم. كما قد ثبت في «الصَّحيح» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**من ترك ثلاث جمعٍ تهاونًا من غير عذرٍ، طبع اللَّه على قلبه**»(١). وكلُّ من عدل عن اتِّباع سنَّة الرَّسول، إن كان عالمًا بها فهو مغضوبٌ عليه، وإلَّا فهو ضالٌّ. ولهذا شرع اللَّه لنا أن نسأله في كلِّ صلاةٍ أن يهدينا الصِّراط المستقيم، صراط الَّذين أنعم عليهم،

---

(١) **صحيح لغيره:** أخرجه أبو داود (حديث ١٠٥٢)، والترمذي (حديث ٥٠٠)، والنسائي (٣/ ٨٨)، وابن ماجه (١١٢٥)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٤٢٤)، وغيرهم، وله شاهد عند ابن ماجه (١١٢٦) وغيره.

من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وحسن أولئك رفيقًا، غير المغضوب عليهم ولا الضَّالِّين.

وأمَّا من يتعلَّق بقصَّة موسى مع الخضر ﵉، في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللَّدنِّيِّ الَّذي يدَّعيه بعض من عدم التَّوفيق فهو ملحدٌ زنديقٌ؛ فإنَّ موسى ﵇ لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأمورًا بمتابعته.

ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم[1]. ومحمَّدٌ ﷺ مبعوثٌ إلى جميع الثَّقلين، ولو كان موسى وعيسى حيَّين لكانا من أتباعه، وإذا نزل عيسى ﵇ إلى الأرض، إنَّما يحكم بشريعة محمَّدٍ، فمن ادَّعى أنَّه مع محمَّدٍ ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوَّز ذلك لأحدٍ من الأمَّة فليجدِّد إسلامه، وليشهد شهادة الحقِّ، فإنَّه مفارقٌ لدين الإسلام بالكلِّيَّة، فضلًا عن أن يكون من أولياء اللَّه، وإنَّما هو من أولياء الشَّيطان، وهذا الموضع مفرِّقٌ بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة، فحرِّك تَرَ.

وكذا من يقول بأنَّ الكعبة تطوف برجالٍ منهم حيث كانوا!! فهلَّا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول اللَّه ﷺ حين أحصر عنها، وهو يودُّ منها نظرةً؟! وهؤلاء لهم شبهٌ بالَّذين وصفهم اللَّه تعالى حيث يقول: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾ [المدثر: الآية ٥٢]، إلى آخر السُّورة.

متن الطحاوية

قوله: «وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، والفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا»

الشرح

قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾ [آل عمران: الآية ١٠٥].

(١) **صحيح**: وذلك ضمن حديث أخرجه البخاري في عدة مواطن من «صحيحه» منها (حديث ٣٤٠١)، ومسلم (حديث ٢٣٨٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

فجعل أهل الرحمة مستثنين من الخلاف.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: الآية ١٧٦].

وقد تقدَّم قوله ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً** - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ - **كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»(١).

وفي روايةٍ: قالوا: من هي يا رسول اللّه؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**». فبيَّن أنَّ عامَّة المختلفين هالكون إلَّا أهل السُّنَّة والجماعة، وأنَّ الاختلاف واقعٌ لا محالة.

وفي «الصحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥] قال: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: «**هَاتَانِ أَهْوَنُ**»(٢).

فدلَّ على أنَّه لا بدَّ أن يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعضٍ، مع براءة الرَّسول من هذه الحال، وهم فيها في جاهليَّةٍ. ولهذا قال الزُّهريُّ: وقعت الفتنة وأصحاب رسول اللّه ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أنَّ كلَّ دمٍ أو مالٍ أو فَرْجٍ أصيب بتأويل القرآن فهو هدرٌ، أنزلوهم منزلة الجاهليَّة.

وقد روى مالك بإسناده الثَّابت عن عائشة رضي الله عنها، أنَّها كانت تقول: ترك النَّاس العمل بهذه الآية، يعني قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ الآية [الحجرات: الآية ٩]. فإنَّ المسلمين لمَّا اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر اللّه تعالى، فلمَّا لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهليَّة.

---

(١) تقدم الكلام عليه مرارًا.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٤٦٢٨)، وفي غير موضع من «صحيحه»، والحديث في «صحيح مسلم».

وهكذا مسائل النزاع التي تتنازع فيها الأمَّة، في الأصول والفروع إذا لم تردَّ إلى اللَّه والرَّسول لم يتبيَّن فيها الحقُّ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بيِّنةٍ من أمرهم، فإن رحمهم اللَّه أقرَّ بعضهم بعضًا، ولم يَبْغِ بعضهم على بعضٍ، كما كان الصَّحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد، فيقرُّ بعضهم بعضًا، ولا يعتدي ولا يعتدى عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعضٍ، إمَّا بالقول، مثل تكفيره وتفسيقه، وإمَّا بالفعل، مثل حبسه وضربه وقتله. والَّذين امتحنوا النَّاس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء، ابتدعوا بدعةً، وكفَّروا من خالفهم فيها، واستحلُّوا منع حقِّه وعقوبته.

فالنَّاس إذا خفي عليهم بعض ما بعث اللَّه به الرَّسول إمَّا عادلون وإمَّا ظالمون، فالعادل فيهم: الَّذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء، ولا يظلم غيره، والظَّالم: الَّذي يعتدي على غيره، وأكثرهم إنَّما يظلمون مع علمهم بأنَّهم يظلمون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٩]. وإلَّا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقرَّ بعضهم بعضًا؛ كالمقلِّدين لأئمَّة العلم الَّذين يعرفون من أنفسهم أنَّهم عاجزون عن معرفة حكم اللَّه ورسوله في تلك المسائل، فجعلوا أئمَّتهم نوَّابًا عن الرَّسول، وقالوا: هذا غاية ما قدرنا عليه، فالعادل منهم لا يظلم الآخر، ولا يعتدي عليه بقولٍ ولا فعلٍ، مثل أن يدَّعي أنَّ قول مقلِّده هو الصَّحيح بلا حجَّةٍ يبديها، ويذمُّ من خالفه، مع أنَّه معذورٌ. **ثمَّ إنَّ أنواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان: اختلاف تنوُّعٍ، واختلاف تضادٍّ:**

واختلاف التَّنوُّع على وجوهٍ: منه ما يكون كلُّ واحدٍ من القولين أو الفعلين حقًّا مشروعًا، كما في القراءات الَّتي اختلف فيها الصَّحابة رضي الله عنهم، حتَّى زجرهم النَّبيُّ ﷺ، وقال: «**كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ**»(١).

ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، ومحلِّ سجود السَّهو، والتَّشهُّد، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، ونحو ذلك، ممَّا قد شرع

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

جميعه، وإن كان بعض أنواعه أرجح أو أفضل.

ثمَّ تجد لكثيرٍ من الأمَّة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك! وهذا عين المحرَّم، وكذا تجد كثيرًا منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع، والإعراض عن الآخر والنَّهي عنه ما دخل به فيما نهى عنه النَّبيُّ ﷺ.

ومنه ما يكون كلٌّ من القولين هو في المعنى القول الآخر، لكن العبارتان مختلفتان، كما قد يختلف كثيرٌ من النَّاس في ألفاظ الحدود، وصوغ الأدلَّة، والتَّعبير عن المسمَّيات، ونحو ذلك، ثمَّ الجهل أو الظُّلم يحمل على حَمْدِ إحدى المقالتين وذمِّ الأخرى والاعتداء على قائلها! ونحو ذلك.

وأمَّا اختلاف التَّضادِّ، فهو القولان المتنافيان، إمَّا في الأصول، وإمَّا في الفروع عند الجمهور الَّذين يقولون: المصيب واحدٌ، والخطب في هذا أشدُّ؛ لأنَّ القولين يتنافيان، لكن نجد كثيرًا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الَّذي مع منازعه فيه حقٌّ ما، أو معه دليلٌ يقتضي حقًّا ما، فيردُّ الحقَّ مع الباطل، حتَّى يبقى هذا مبطلًا في البعض، كما كان الأوَّل مبطلًا في الأصل، وهذا يجري كثيرًا لأهل السُّنَّة.

وأمَّا أهل البدعة، فالأمر فيهم ظاهرٌ، ومن جعل اللَّه له هدايةً ونورًا رأى من هذا ما يبيِّن له منفعة ما جاء في الكتاب والسُّنَّة من النَّهي عن هذا وأشباهه، وإن كانت القلوب الصَّحيحة تنكر هذا، لكن نورٌ على نورٍ.

والاختلاف الأوَّل، الَّذي هو اختلاف التَّنوُّع، الذَّمُّ فيه واقعٌ على من بغى على الآخر فيه، وقد دلَّ القرآن على حمد كلِّ واحدةٍ من الطَّائفتين في مثل ذلك، إذا لم يحصل بغيٌ، كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: الآية ٥]. وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قومٌ، وترك آخرون.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] فخصَّ سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم.

وكما في إقرار النَّبيِّ ﷺ يوم بني قريظة لمن صلَّى العصر في وقتها، ولمن أخَّرها إلى أن وصل إلى بني قريظة(١).

وكما في قوله ﷺ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(٢). ونظائر ذلك.

والاختلاف الثَّاني، هو ما حمد فيه إحدى الطَّائفتين، وذمَّت الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ الآيات [الحج: الآية ١٩].

وأكثر الاختلاف الَّذي يؤول إلى الأهواء بين الأمَّة من القسم الأوَّل، وكذلك إلى سفك الدِّماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء؛ لأنَّ إحدى الطَّائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحقِّ، ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحقِّ زياداتٍ من الباطل، والأخرى كذلك، ولذلك جعل اللَّه مصدره البغي في قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢١٣]؛ لأنَّ البغي مجاوزة الحدِّ، وذكر هذا في غير موضعٍ من القرآن ليكون عبرةً لهذه الأمَّة.

وقريبٌ من هذا الباب ما خرَّجاه في «الصحيحين»، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول اللَّه ﷺ، قال: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ**

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (حديث ٩٤٦)، ومسلمًا (حديث ١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: نَادَى فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ انْصَرَفَ عَنِ الْأَحْزَابِ: «**أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الْوَقْتِ، فَصَلَّوْا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّي إِلَّا حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ: قَالَ: فَمَا عَنَّفَ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٧٣٥٢)، ومسلم (حديث ١٧١٦) من حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ**».

فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(١).

فأمرهم بالإمساك عمَّا لم يؤمروا به، معلِّلًا بأنَّ سبب هلاك الأوَّلين إنَّما كان كثرة السُّؤال ثمَّ الاختلاف على الرُّسل بالمعصية.

ثمَّ الاختلاف في الكتاب من الَّذين يقرُّون به على نوعين:

أحدهما: اختلافٌ في تنزيله.

والثَّاني: اختلافٌ في تأويله. وكلاهما فيه إيمانٌ ببعضٍ دون بعضٍ.

فالأوَّل كاختلافهم في تكلُّم اللَّه بالقرآن وتنزيله، فطائفةٌ قالت: هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته؛ لكنه مخلوق في غيره لم يقم به، وطائفةٌ قالت: بل هو صفةٌ له قائمٌ بذاته ليس بمخلوقٍ، لكنَّه لا يتكلَّم بمشيئته وقدرته. وكلٌّ من الطَّائفتين جمعت في كلامها بين حقٍّ وباطلٍ، فآمنت ببعض الحقِّ، وكذَّبت بما تقوله الأخرى من الحقِّ، وقد تقدَّمت الإشارة إلى ذلك.

وأمَّا الاختلاف في تأويله الَّذي يتضمَّن الإيمان ببعضه دون بعضٍ فكثيرٌ؛ كما في حديث عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جدِّه، قال: خرج رسول اللَّه ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينزع بآيةٍ وهذا ينزع بآيةٍ، فكأنَّما فقئ في وجهه حبُّ الرُّمَّان، فقال: **«أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَمْ بِهَذَا وُكِّلْتُمْ؛ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ انْظُرُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَاتَّبِعُوهُ، وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»**(٢).

وفي روايةٍ: **«يَا قَوْمُ، بِهَذَا أُهْلِكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكِتَابَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا تَشَابَهَ عَلَيْكُمْ فَآمِنُوا بِهِ»**.

وفي روايةٍ: **«فَإِنَّ الْأُمَمَ قَبْلَكُمْ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى اخْتَلَفُوا فِي الْقُرْآنِ، وَإِنَّ الْمِرَاءَ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ»**. وهو حديثٌ مشهورٌ، مخرَّجٌ في المسانيد والسُّنن.

وقد روى أصل الحديث مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث عبد اللَّه بن رباحٍ الأنصاريِّ، أنَّ عبد اللَّه بن عمرٍو قال: هَجَّرْتُ إلى رسول اللَّه ﷺ يومًا، فسمع

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٧٢٨٨)، ومسلم (حديث ١٣٣٧، ص ١٨٣١، ١٨٣٢).

(٢) **حسن:** وقد تقدم.

أصوات رجلين اختلفا في آيةٍ، فخرج علينا رسول اللَّه ﷺ يُعْرَفُ في وجهه الغضب، فقال: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ**»[(١)].

وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله، مؤمنون ببعضه دون بعضٍ، يقرُّون بما يوافق رأيهم من الآيات، وما يخالفه إمَّا أن يتأوَّلوه تأويلًا يحرِّفون فيه الكلم عن مواضعه، وإمَّا أن يقولوا: هذا متشابهٌ لا يعلم أحدٌ معناه، فيجحدون ما أنزله اللَّه من معانيه، وهو في معنى الكفر بذلك؛ لأنَّ الإيمان باللَّفظ بلا معنًى هو من جنس إيمان أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: الآية ٥]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: الآية ٧٨] أي: إلَّا تلاوةً من غير فهم معناه؛ وليس هذا كالمؤمن الَّذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به، واشتبه عليه بعضه فوكل علمه إلى اللَّه، كما أمره النَّبيُّ ﷺ بقوله: «**فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه**»[(٢)]، فامتثل ما أمر به ﷺ.

متن الطحاوية

قوله: «وَدِينُ اللهِ في الأرضِ وَالسَّماءِ وَاحِدٌ، وهُو دينُ الإسْلَامِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣]»، وهو بيْن الغلوِّ والتَّقصير، وبين التَّشبيه والتَّعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس

الشرح

ثبت في الصَّحيح عن أبي هريرة ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ**»[(٣)].

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (حديث ٢٦٦٦).

(٢) **حسن:** أخرجه أحمد (٢/ ١٨١).

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٤٤٣)، ومسلم (حديث ٢٣٦٥) (ص ١٨٣٧)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ بلفظ: «... **وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**» هذا لفظ البخاري.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥] - عامٌّ في كلِّ زمانٍ، ولكنَّ الشَّرائع تتنوَّع، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: الآية ٤٨].

فدين الإسلام هو ما شرعه اللَّه ﷻ لعباده على ألسنة رسله، وأصول هذا الدِّين وفروعه موروثةٌ عن الرُّسل، وهو ظاهرٌ غاية الظُّهور، يمكن كلُّ مميِّزٍ من صغيرٍ وكبيرٍ، وفصيحٍ وأعجميٍّ، وذكيٍّ وبليدٍ أن يدخل فيه بأقصر زمانٍ، وإنَّه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك، من إنكار كلمةٍ، أو تكذيبٍ، أو معارضةٍ، أو كذبٍ على اللَّه أو ارتيابٍ في قول اللَّه تعالى، أو ردٍّ لما أنزل، أو شك فيما نفى اللَّه عنه الشَّك، أو غير ذلك ممَّا في معناه.

فقد دلَّ الكتاب والسُّنَّة على ظهور دين الإسلام وسهولة تعلُّمه، وأنَّه يتعلَّمه الوافد ثمَّ يولِّي في وقته، واختلاف تعليم النَّبيِّ ﷺ في بعض الألفاظ بحسب من يتعلَّم، فإن كان بعيد الوطن؛ كضمام بن ثعلبة النَّجديِّ ووفد عبد القيس علَّمهم ما لا يسعهم جهله، مع علمه أنَّ دينه سينتشر في الآفاق ويرسل إليهم من يفقِّههم في سائر ما يحتاجون إليه، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كلَّ وقتٍ بحيث يتعلَّم على التَّدريج، أو كان قد علم فيه أنَّه قد عرف ما لا بدَّ منه - أجابه بحسب حاله وحاجته على ما تدلُّ قرينة حال السَّائل؛ كقوله: **«قل: آمنت باللَّه ثمَّ استقم»**.

وأمَّا من شرَّع دينًا لم يأذن به اللَّه، فمعلومٌ أنَّ أصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولةً عن النَّبيِّ ﷺ ولا عن غيره من المرسلين، إذ هو باطلٌ، وملزوم الباطل باطلٌ، كما أنَّ لازم الحقِّ حقٌّ.

وقوله: «بين الغلوِّ والتَّقصير» قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: الآية ١٧١]، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: الآية ٧٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

وفي «الصحيحين» عن عائشة ﵂: أنَّ ناسًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ سأَلُوا أَزْوَاجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّر، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ

بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: **«مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَنَامُ وَأَقُومُ وَآكُلُ اللَّحْمَ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**(١).

وفي غير «الصحيحين»: سألوا عن عبادته في السِّرِّ، فكأنَّهم تقالُّوها.

وقوله: «وبين التَّشبيه والتَّعطيل» تقدَّم أنَّ اللَّه ﷻ يحبُّ أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تشبيهٍ، فلا يقال: سمعٌ كسمعنا، ولا بصرٌ كبصرنا، ونحوه، ومن غير تعطيلٍ، فلا ينفى عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به أعرف النَّاس به: رسوله ﷺ، فإنَّ ذلك تعطيلٌ، وقد تقدَّم الكلام في هذا المعنى.

ونظير هذا القول قوله فيما تقدم: «ومن لم يتوقَّ النَّفي والتَّشبيه، زلَّ ولم يصب التَّنزيه». وهذا المعنى مستفادٌ من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]. فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ على المشبِّهة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على المعطِّلة.

وقوله: «وبين الجبر والقدر» تقدَّم الكلام أيضًا على هذا المعنى، وأنَّ العبد غير مجبورٍ على أفعاله وأقواله، وأنَّها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرِّياح وغيرها، وليست مخلوقةً للعبد، بل هي فعل العبد وكسبه وخلق اللَّه تعالى.

وقوله: «وبين الأمن والإياس» تقدَّم الكلام أيضًا على هذا المعنى، وأنَّه يجب أن يكون العبد خائفًا من عذاب ربِّه، راجيًا رحمته، وأنَّ الخوف والرَّجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره إلى اللَّه تعالى والدَّار الآخرة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (حديث ١٤٠١) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا، واللفظ لمسلم، وهو عند البخاري أيضًا بنحوه من حديث أنس أيضًا (٥٠٦٣).

أما حديث عائشة ﷺ فأخرجه البخاري (حديث ٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) ولفظه واللفظ لمسلم: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرًا فَتَرَخَّصَ فِيهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَكَأَنَّهُمْ كَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ: **«مَا بَالُ رِجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَمْرٌ تَرَخَّصْتُ فِيهِ، فَكَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ، فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»**.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

متن الطحاوية

قوله: «فَهَذَا دِينُنَا وَاعْتِقَادُنَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَنَحْنُ بُرَآءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ مَنْ خَالَفَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ. وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ، وَيَخْتِمَ لَنَا بِهِ، وَيَعْصِمَنَا مِنَ الْأَهْوَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْآرَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الرَّدِيَّةِ، مِثْلَ الْمُشَبِّهَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، مِنَ الَّذِينَ خَالَفُوا السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَحَالَفُوا الضَّلَالَةَ، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بَرَاءٌ، وَهُمْ عِنْدَنَا ضُلَّالٌ وَأَرْدِيَاءُ. وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ»

الشرح

الإشارة بقوله: «فهذا» إلى كلِّ ما تقدَّم من أوَّل الكتاب إلى هنا.

والمشبِّهة: هم الَّذين شبَّهوا اللَّه سبحانه بالخلق في صفاته، وقولهم عكس قول النَّصارى، فإن النصارى شبَّهوا المخلوق - وهو عيسى عليه السلام - بالخالق وجعلوه إلهًا، وهؤلاء شبَّهوا الخالق بالمخلوق، كداود الجواربيِّ وأشباهه.

والمعتزلة: هم عمرو بن عبيدٍ، وواصل بن عطاءٍ الغزَّال وأصحابهما. سمُّوا بذلك لمَّا اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصريِّ رحمه الله، في أوائل المائة الثَّانية، وكانوا يجلسون معتزلين، فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة.

وقيل: إنَّ واصل بن عطاءٍ هو الَّذي وضع أصول مذهب المعتزلة، وتابعه عمرو ابن عبيدٍ تلميذ الحسن البصريِّ، فلمَّا كان زمن هارون الرَّشيد صنَّف لهم أبو الهذيل كتابين، وبيَّن مذهبهم، وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة، الَّتي سمَّوها: العدل، والتَّوحيد، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر! ولبَّسوا فيها الحقَّ بالباطل؛ إذ شأن البدع هذا اشتمالها على حقٍّ وباطلٍ.

وهم مشبِّهة الأفعال؛ لأنَّهم قاسوا أفعال اللَّه تعالى على أفعال عباده، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه! وقالوا: يجب عليه

أن يفعل كذا، ولا يجوز له أن يفعل كذا، بمقتضى ذلك القياس الفاسد!! فإنَّ السَّيِّد من بني آدم لو رأى عبيده تزني بإمائه ولا يمنعهم من ذلك لعدَّ إمَّا مستحسنًا للقبيح، وإمَّا عاجزًا، فكيف يصحُّ قياس أفعاله ﷻ على أفعال عباده؟! والكلام على هذا المعنى مبسوطٌ في موضعه.

فأمَّا العدل، فستروا تحته نفي القدر، وقالوا: إنَّ اللَّه لا يخلق الشَّرَّ ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثمَّ يعذِّبهم عليه يكون ذلك جورًا!! واللَّه تعالى عادلٌ لا يجور. ويلزمهم على هذا الأصل الفاسد أنَّ اللَّه تعالى يكون في ملكه ما لا يريده، فيريد الشَّيء ولا يكون، ولازمه وصفه بالعجز! تعالى اللَّه عن ذلك.

وأمَّا التَّوحيد: فستروا تحته القول بخلق القرآن، إذ لو كان غير مخلوقٍ لزم تعدُّد القدماء!! ويلزمهم على هذا القول الفاسد أنَّ علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقةٌ، أو التَّناقض!

وأمَّا الوعيد: فقالوا: إذا أوعد بعض عبيده وعيدًا فلا يجوز أن لا يعذِّبهم ويخلف وعيده، لأنَّه لا يخلف الميعاد، فلا يعفو عمَّن يشاء، ولا يغفر لمن يريد، عندهم!!

وأمَّا المنزلة بين المنزلتين، فعندهم أنَّ من ارتكب كبيرةً يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر!!

وأمَّا الأمر بالمعروف، فهو أنَّهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به، وأن نلزمه بما يلزمنا، وذلك هو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وضمَّنوه أنَّه يجوز الخروج على الأئمَّة بالقتال إذا جاروا!! وقد تقدَّم جواب هذه الشُّبه الخمس في مواضعها.

وعندهم أنَّ التَّوحيد والعدل من الأصول العقليَّة الَّتي لا يعلم صحَّة السَّمع إلَّا بعدها، وإذا استدلُّوا على ذلك بأدلَّةٍ سمعيَّةٍ، إنَّما يذكرونها للاعتضاد بها، لا للاعتماد عليها، فهم يقولون: لا نثبت هذه بالسَّمع، بل العلم بها متقدِّمٌ على العلم بصحَّة النَّقل! فمنهم من لا يذكرها في الأصول، إذ لا فائدة فيها عندهم، ومنهم من يذكرها ليبيِّن موافقة السَّمع للعقل، ولإيناس النَّاس بها، لا للاعتماد

عليها! والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشُّهود الزَّائدين على النِّصاب والمدد اللَّاحق بعسكرٍ مستغنٍ عنهم! وبمنزلة من يتَّبع هواه واتَّفق أنَّ الشَّرع ما يهواه!! كما قال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممَّن يتَّبع الحقَّ إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذًا أنت لا تثاب على ما وافقته من الحقِّ، وتعاقب على ما تركته منه، لأنَّك إنَّما اتَّبعت هواك في الموضعين. وكما أنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادته، فالاعتقاد القويُّ يتبع أيضًا علم ذلك وتصديقه، فإذا كان ذلك تابعًا للإيمان كان من الإيمان، كما أنَّ العمل الصَّالح إذا كان عن نيَّةٍ صالحةٍ كان صالحًا، وإلَّا فلا، فقول أهل الإيمان التَّابع لغير الإيمان، كعمل أهل الصَّلاح التَّابع لغير قصد أهل الصَّلاح، وفي المعتزلة زنادقةٌ كثيرةٌ، وفيهم من ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا.

والجهميَّة: هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان السَّمرقنديِّ، وهو الَّذي أظهر نفي الصِّفات والتَّعطيل، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهمٍ، الَّذي ضحَّى به خالد بن عبد اللَّه القسريُّ بواسط[1]، فإنَّه خطب النَّاس في يوم عيد الأضحى، وقال: أيُّها النَّاس، ضحُّوا تقبَّل اللَّه ضحاياكم، فإنِّي مضحٍّ بالجعد بن درهمٍ، إنَّه زعم أنَّ اللَّه لم يتَّخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلِّم موسى تكليمًا، تعالى اللَّه عمَّا يقول الجعد علوًّا كبيرًا، ثمَّ نزل فذبحه، وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه، وهم السَّلف الصَّالح رحمهم اللَّه تعالى.

وكان الجهم بعده بخراسان، فأظهر مقالته هناك، وتبعه عليها ناسٌ، بعد أن ترك الصَّلاة أربعين يومًا شكًّا في ربِّه! وكان ذلك لمناظرته قومًا من المشركين، يقال لهم السُّمنيَّة، من فلاسفة الهند، الَّذين ينكرون من العلم ما سوى الحسِّيَّات، قالوا له: هذا ربُّك الَّذي تعبده، هل يرى أو يشمُّ أو يذاق أو يلمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدومٌ!! فبقي أربعين يومًا لا يعبد شيئًا، ثمَّ لمَّا خلا قلبه من معبودٍ يؤلِّهه نقش الشَّيطان اعتقادًا نحته فكره، فقال: إنَّه الوجود المطلق ونفى جميع الصِّفات، واتَّصل بالجعد.

---

(١) قصة التضحية هذه ضعيفة.

وقد قيل: إنَّ الجعد كان قد اتَّصل بالصَّابئة الفلاسفة من أهل حرَّان، وأنَّه أيضًا أخذ شيئًا عن بعض اليهود المحرِّفين لدينهم المتَّصلين بلبيد بن الأعصم السَّاحر الَّذي سحر النَّبيَّ ﷺ؛ فقتل جهمٌ بخراسان، قتله سلم بن أحوز ولكن كانت قد فشت مقالته في النَّاس، وتقلَّدها بعده المعتزلة. ولكن كان الجهم أدخل في التَّعطيل منهم؛ لأنَّه ينكر الأسماء حقيقةً، وهم لا ينكرون الأسماء بل الصِّفات.

وقد تنازع العلماء في الجهميَّة: هل هم من الثِّنتين وسبعين فرقةً أم لا؟ ولهم في ذلك قولان: وممَّن قال إنَّهم ليسوا من الثِّنتين وسبعين فرقةً: عبد اللَّه بن المبارك، ويوسف بن أسباطٍ.

وإنَّما اشتهرت مقالة الجهميَّة من حين محنة الإمام أحمد بن حنبلٍ وغيره من علماء السُّنَّة، فإنَّه من إمارة المأمون قووا وكثروا، فإنَّه قد أقام بخراسان مدَّةً واجتمع بهم، ثمَّ كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثمان عشرة ومائتين وفيها مات، وردُّوا الإمام أحمد إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام، فلمَّا ردَّ عليهم ما احتجُّوا به عليه، وبيَّن أنَّه لا حجَّة لهم في شيءٍ من ذلك، وأنَّ طلبهم من النَّاس أن يوافقوهم وامتحانهم إيَّاهم جهلٌ وظلمٌ، وأراد المعتصم إطلاقه، أشار عليه من أشار بأنَّ المصلحة ضربه؛ لئلَّا تنكسر حرمة الخلافة مرَّةً بعد مرَّةٍ! فلمَّا ضربوه قامت الشَّناعة في العامَّة، وخافوا، فأطلقوه، وقصَّته مذكورةٌ في كتب التَّاريخ.

وممَّا انفرد به الجهم: أنَّ الجنَّة والنَّار تفنيان، وأنَّ الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل فقط، وأنَّه لا فعل لأحدٍ في الحقيقة إلَّا للَّه وحده، وأنَّ النَّاس إنَّما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز، كما يقال تحرَّكت الشَّجرة، ودار الفلك، وزالت الشَّمس! ولقد أحسن القائل:

عَجِبْتُ لِشَيْطَانٍ دَعَا النَّاسَ جَهْرَةً ... إِلَى النَّارِ وَاشْتُقَّ اسْمُهُ مِنْ جَهَنَّمِ

وقد نقل أنَّ أبا حنيفة رحمه الله لمَّا سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام، فقال: لعن اللَّه عمرو بن عبيدٍ، هو فتح على النَّاس الكلام في هذا.

والجبريَّة: أصل قولهم من الجهم بن صفوان، كما تقدَّم، وأنَّ فعل العبد بمنزلة طوله ولونه! وهم عكس القدريَّة نفاة القدر، فإنَّ القدريَّة إنَّما نسبوا إلى القدر لنفيهم إيَّاه، كما سمِّيت المرجئة لنفيهم الإرجاء، وأنَّه لا أحد مرجأٌ لأمر اللَّه إمَّا

يعذِّبهم وإمَّا يتوب عليهم، وقد تسمَّى الجبريَّة «قدريَّةً»؛ لأنَّهم غلوا في إثبات القدر، وكما يسمَّى الَّذين لا يجزمون بشيءٍ من الوعد والوعيد، بل يغلون في إرجاء كلِّ أمرٍ حتَّى الأنواع، فلا يجزمون بثواب من تاب، كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب، وكما لا يجزم لمعيَّنٍ. وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعليًّا، ولا يشهدون بإيمانٍ ولا كفرٍ!!

وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرِّقة بين الأمَّة، كما ذكر البخاريُّ في «صحيحه»، عن سعيد بن المسيَّب، قال: وقعت الفتنة الأولى - يعني: مقتل عثمان - فلم تبق من أصحاب بدرٍ أحدًا، ثمَّ وقعت الثَّانية - يعني: الحرة - فلم تبق من أصحاب الحديبية أحدًا؛ ثمَّ وقعت الثَّالثة، فلم ترتفع وللنَّاس طباخٌ[1]، أي عقلٌ وقوَّةٌ.

فالخوارج والشِّيعة حدثوا في الفتنة الأولى، والقدريَّة والمرجئة في الفتنة الثَّانية، والجهميَّة ونحوهم بعد الفتنة الثَّالثة. فصار هؤلاء الَّذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعًا يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوا في عليٍّ، وأولئك كفَّروه! وأولئك غلوا في الوعيد، حتَّى خلَّدوا بعض المؤمنين، وأولئك غلوا في الوعد حتَّى نفوا بعض الوعيد - أعني المرجئة - وأولئك غلوا في التَّنزيه حتَّى نفوا الصِّفات، وهؤلاء غلوا في الإثبات، حتَّى وقعوا في التَّشبيه! وصاروا يبتدعون من الدَّلائل والمسائل ما ليس بمشروعٍ، ويعرضون عن الأمر المشروع، وفيهم من استعان على ذلك بشيءٍ من كتب الأوائل اليهود والنَّصارى والمجوس والصَّابئين، فإنَّهم قرؤوا كتبهم، فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم ودلائلهم، وغيَّروه في اللَّفظ تارةً، وفي المعنى أخرى! فلبَّسوا الحقَّ بالباطل، وكتموا حقًّا جاء به نبيُّهم، فتفرَّقوا واختلفوا وتكلَّموا حينئذٍ في الجسم والعرض والتَّجسيم، نفيًا وإثباتًا.

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم عدولهم عن الصِّراط المستقيم، الَّذي أمرنا

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا عقب (حديث ٤٠٢٤) من طريق الليث عن يحيى بن سعد عن سعيد بن المسيب.
وقال الحافظ في «الفتح»: لم يقع لي هذا الأثر من طريق الليث، وصله أبو نعيم في «المستخرج» من طريق أحمد بن حنبل عن يحيى بن سعيد القطان عن يحيى بن سعيد الأنصاري نحوه.

اللَّه باتِّباعه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فوحَّد لفظ: «صراطه» و «سبيله»، وجمع «السُّبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: خطَّ لنا رسول اللَّه ﷺ خطًّا، وقال: «**هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ**»، ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣][(١)].

ومن هاهنا يعلم أنَّ اضطرار العبد إلى سؤال هداية الصِّراط المستقيم فوق كلِّ ضرورةٍ، ولهذا شرع اللَّه تعالى في الصَّلاة قراءة أمِّ القرآن في كلِّ ركعةٍ، إمَّا فرضًا أو إيجابًا، على حسب اختلاف العلماء في ذلك، لاحتياج العبد إلى هذا الدُّعاء العظيم القدر، المشتمل على أشرف المطالب وأجلِّها. فقد أمرنا اللَّه تعالى أن نقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: الآية ٦، ٧]. وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ**»[(٢)].

وثبت في الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**»[(٣)].

قال طائفةٌ من السَّلف: من انحرف من العلماء ففيه شبهٌ من اليهود، ومن

---

(١) **سنده حسن:** أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، والدارمي (١/ ٦٧) وغيرهما، وله طريق آخر عند عبد بن حميد «المنتخب» (بتحقيقي ١١٣٩)، وانظر ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير الآية الكريمة (٢/ ١٩٠). وقد أشار بعض العلماء إلى أن الصواب فيه الوقف؛ فالله أعلم.

(٢) **حسن بمجموع طرقه:** أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨، ٣٧٩)، والترمذي (٢٩٥٤)، وغيرهما من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه مرفوعًا، وله شواهد.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (حديث ٣٤٥٦)، ومسلم (حديث ٢٦٦٩)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

انحرف من العبَّاد ففيه شبهٌ من النَّصارى. فلهذا تجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام، من المعتزلة ونحوهم - فيه شبهٌ من اليهود، حتَّى إنَّ علماء اليهود يقرؤون كتب شيوخ المعتزلة، ويستحسنون طريقتهم، وكذا شيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود ويرجِّحونهم على النَّصارى. وأكثر المنحرفين من العبَّاد، من المتصوِّفة ونحوهم فيهم شبهٌ من النَّصارى؛ ولهذا يميلون إلى نوعٍ من الرَّهبانيَّة والحلول والاتِّحاد ونحو ذلك. وشيوخ هؤلاء يذمُّون الكلام وأهله، وشيوخ أولئك يعيبون طريقة هؤلاء ويصنِّفون في ذمِّ السَّماع والوجد وكثيرٍ من الزُّهد والعبادة الَّتي أحدثها هؤلاء.

ولفرق الضُّلَّال في الوحي طريقتان: طريقة التَّبديل، وطريقة التَّجهيل. أمَّا أهل التَّبديل فهم نوعان: أهل الوهم والتَّخييل، وأهل التَّحريف والتَّأويل.

فأهل الوهم والتَّخييل، هم الَّذين يقولون: إنَّ الأنبياء أخبروا عن اللَّه واليوم الآخر والجنَّة والنَّار بأمورٍ غير مطابقةٍ للأمر في نفسه، لكنَّهم خاطبوهم بما يتخيَّلون به ويتوهَّمون به أنَّ اللَّه شيءٌ عظيمٌ كبيرٌ، وأنَّ الأبدان تعاد، وأنَّ لهم نعيمًا محسوسًا، وعقابًا محسوسًا، وإن كان الأمر ليس كذلك؛ لأنَّ مصلحة الجمهور في ذلك، وإن كان كذبًا فهو كذبٌ لمصلحة الجمهور وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

وأمَّا أهل التَّحريف والتَّأويل، فهم الَّذين يقولون: إنَّ الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحقُّ في نفس الأمر، وإنَّ الحقَّ في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا، ثمَّ يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التَّأويلات ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتَّأويل، بل يقولون: يجوز أن يراد كذا. وغاية ما معهم إمكان احتمال اللَّفظ.

وأمَّا أهل التَّجهيل والتَّضليل، الَّذين حقيقة قولهم: إنَّ الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالُّون، لا يعرفون ما أراد اللَّه بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء ويقولون: يجوز أن يكون للنَّصِّ تأويلٌ لا يعلمه إلَّا اللَّه، لا يعلمه جبريل ولا محمَّدٌ ولا غيره من الأنبياء، فضلًا عن الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسانٍ، وأنَّ محمَّدًا ﷺ كان يقرأ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: الآية ١٠].

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥].

وهو لا يعرف معاني هذه الآيات بل معناها الَّذي دلَّت عليه لا يعرفه إلَّا اللَّه تعالى ويظنُّون أنَّ هذه طريقة السَّلف.

ثمَّ منهم من يقول: إنَّ المراد بها خلاف مدلولها الظَّاهر المفهوم، ولا يعرفه أحدٌ، كما لا يعلم وقت السَّاعة، ومنهم من يقول: بل تجرى على ظاهرها وتحمل على ظاهرها ومع هذا، فلا يعلم تأويلها إلَّا اللَّه، فيتناقضون حيث أثبتوا لها تأويلًا يخالف ظاهرها، وقالوا مع هذا: إنَّها تحمل على ظاهرها وهؤلاء يشتركون في القول بأنَّ الرَّسول لم يبيِّن المراد بالنُّصوص الَّتي يجعلونها مشكلةً أو متشابهةً؛ ولهذا يجعل كلُّ فريقٍ المشكل من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلًا.

ثمَّ منهم من يقول: لم يعلم معانيها أيضًا ومنهم من يقول: علمها ولم يبيِّنها، بل أحال في بيانها على الأدلَّة العقليَّة، وعلى من يجتهد في العلم بتأويل تلك النُّصوص!! فهم مشتركون في أنَّ الرَّسول لم يَعْلَمْ بل نحن عرفنا الحق بقولنا ثم اجتهدنا في حمل كلام الرسول على ما يوافق عقولنا، وأنَّ الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليَّات ولا يفهمون السَّمعيَّات وكلُّ ذلك ضلالٌ وتضليلٌ عن سواء السَّبيل.

نسأل اللَّه السَّلامة والعافية من هذه الأقوال الواهية، المفضية بقائلها إلى الهاوية.

سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد للَّه ربِّ العالمين.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- مقدمة التحقيق	٥
- ترجمة الإمام أبي جعفر الطحاوي	٧
- ترجمة الإمام ابن أبي العز	١٠
- منهج الإمام ابن أبي العز في «شرحه للطحاوية»	١٧
- الإيمان بالله تعالى	٢٥
- الإيمان بنبوة النبي ﷺ	٦٨
- الإيمان بالقرآن الكريم	٨٨
- رؤية الله حق	١٠٣
- الإيمان بالإسراء والمعراج	١٣٤
- الإيمان بالحوض والشفاعة والميثاق	١٣٧
- الشفاعة	١٣٩
- الميثاق	١٤٨
- الإيمان بعلم الله	١٥٥
- الإيمان بالقضاء والقدر	١٥٨
- الإيمان بالعرش والكرسي	١٧٨
- الإيمان بالملائكة والنبيين والكتب السماوية	١٩٠
- حرمة الخوض في ذات الله والجدال في دين الله وقرآنه	٢٠١
- الرد على المرجئة	٢٠٤
- تعريف الإيمان	٢١٩
- أهل الكبائر من المؤمنين لا يخلدون في النار	٢٤٨
- وجوب طاعة الأئمة والولاة	٢٥٨
- اتباع أهل السنة والجماعة	٢٦١
- وجوب الحج والجهاد إلى يوم القيامة	٢٦٧

- الإيمان بالملائكة والبرزخ ٢٦٨
- الإيمان بيوم القيامة وما فيه من المشاهد ٢٨٢
- الإيمان بالجنة والنار ٢٩٦
- أفعال العباد خلق الله وكسب من العباد ٣١٠
- التكليف بما يطاق ٣١٩
- الله هو الغني ونحن الفقراء إليه ٣٣٤
- حب أصحاب النبي ﷺ دين وإيمان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان ٣٣٦
- الخلفاء من بعد النبي ﷺ ٣٤٠
- مقام الأنبياء أعلى من مقام الأولياء ٣٦٠
- أشراط الساعة ٣٦٦
- حكم تصديق الكهنة والعرافين ٣٦٨
- إن الدين عند الله الإسلام ٣٨٣
- فهرس الموضوعات ٣٩٤

❋ ❋ ❋

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل